مجلـة فكريـة إبداعيـة

مجلة شهرية تصدر مؤقتا ست مرات في السنة • العدد 24 ــ السنة السادسة ــ 1982 • المدير المسؤول : محمد بنيس. هيئة التحرير : محمد البكروي، مصطفى المسناوي، عبد الله راجع. العنوان : ص.ب. : 505، المحمدية، المغرب. التصفيف الالكتروني : لينو النخلة، 5، زنقة مستغانم، البيضاء. السحب : مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر. التوزيع : سوشبريس. رقم الايداع القانوني : 12ــ1974.
الاشتراكات : بالمغرب : الاشتراك العادي : 30 دهـ. اشتراك المؤسسات : 75 دهـ. الاقطار العربية وأروبا : الاشتراك العادي : 75 دهـ. اشتراك المؤسسات : 225 دهـ. اشتراك المساندة : ابتداء من 50 دهـ. تبعث الاشتراكات باسم : محمد بنيس ــ الحساب البريدي :

1.383.41 الرباط.



الموضوعـات

فلسطينيــون جميــعاً

هذا حاضرٌ كنا نستَقبله لحظات متجزئة، وهو اليوم مكتملٌ في الموت والدمارِ والابادة.

من جنوب لبنان الى بيروت تتسَارعُ خطوط ممنهجة لمحونا، من عواصِم بلدانـ «نا» انطلقت بتوقيت متناسق، وباتفاق مُعَمَّمٍ اتسعت وتمادت، وها هي الفاشية الصهيونية تُتْقِنُ المشهدَ الأخير، وتقتحم الخيانات.

اسرائيل تُحرِق، تَهدِم، تقتُل، والصَّمت صيغة مناسبة لمن يزيدون في خدَاع أمتهم، ولا فجيعة أكبر من هذا الاحتراق الفريد للشعبين الفلسطيني واللبناني.

الصمت ! هذا المدى المتماسِكُ الذي يطوِّقنا في الإعلام والشّوارع، ونحن نبادُ بجبروت لا حدودَ لهُ.

لم نعد بحاجة لتحاليل تبريرية، كل شيء يحترق : التاريخ، الحلم، الاجساد، الشعارات، المستقبل، والعرب أمة يُختصر وجودُها في هذا الحريقِ الآتي من كل الجهات التي لمْ تعُدْ تسمح للغةِ أن تبدأ أو أن تنتهي.

هنيئاً للذين فُوجئوا، وهنيئا للذين مَا يزالون قادِرين على ترتيبِ حواسِّهم.

تأكيداً أننا نُصيخ لاحتفال الصَّمت بعيون منفجرة دَامِية، نصيخ بأصابع منكسرة متلاشية.

ونعلمُ أن ليس الصمتُ وحده حاضراً، فالموت المنعزِلُ المعزولُ لمقدمات الضوءِ العربي من بين الفلسطينيين واللبنانيين يحضرنا هو الآخر. من جنوب لبنان الى بيروت يختار الدمُ أرضَه ولا يَغِيب في مَدَى الصَّمت.

هاهم الفلسطينيون واللبنانيون يُنبئوننَا بمستقبلنا الدَّمَوِيِّ، يذهبون صامدين في حَياتنا وموْتنا، ولَا نهاية لإشْعَاعِهم.

هي احتراقات تُفَسِّخُنَا، ولكن كيف نُقَاسِمُ الموتى موتَهم؟ والمحاصرين حِصَارهم؟ والصامِدِين صُمُودَهُم ؟

ينهون خياناتهم باطمئنان. كلُّ المدن والقرى العربية تحترِقُ ما بين الجنوبِ اللبْناني وبيروت، ونحن جميعا لم نَعُدْ نرغبُ في سُؤَال أو جَوَاب. هويتنا فلسطينيةٌ، وبالدم الفلسطيني اللبناني وحده نتمسَّكُ، به نقرأ الخيانات ونفضَحُها، وفي نهاية الخيانات نتفقَّدُ أعضاءَنَا، نرحل في الموتِ والدمارِ والابادةِ، نُزوبِع الكلمات، ننْتَهِي لنجُومِنَا : صَامِدُون

وصَامِدُون

وصَامِدُون

«الثقافة الجديدة»

عبد الصمد بلكبير

ملحمة بيــروت

1 /1 ... ومع ذلك فيجب أن نتكلم، أن ننهي كلامنا الصامت.. أن نقول شيئا، رغم ان الكلمات، عند الكثيرين بدأت تفقد معانيها الاصلية أمام زخم الواقع وشدة تحولاته اليومية. فاي معجم وأي تركيب بل رواية بلاغة تستطيع اللحظة التعبير عن كل هذه المصائب والاهوال... غير الممارسة، والموت في الممارسة. (!؟)

في لحظات التحولات التاريخية الكبرى والحاسمة ــ مثل حالتنا ــ يظهر عجز اللغة المفارقة للواقع ماثلا بقوة ووضوح، وتفرغ الكلمات من مدلولاتها القديمة بحثا عن معاني جديدة من الوقائع المستجدة. يخفق القلم من ثم في أن يجد طريق انسيابه المعتاد اتجاه عثرات المفاجئات، حيرة الى حد اليأس يحسها كل من يرغم قلمه في اتجاه حل هذا التناقض الحاد بين جدّة الوقائع وصراحتها الوقحة من جهة ورتابة اللغة وتفاهة بلاغتها القديمة من جهة أخرى. ومثل هذه الوضعية بالتقريب هو ما انتجته هزيمة 67 مثلا حيث ساد التشكيك في كل القيم وكل المؤسسات... ومنها الكتابة (= التفكير عمليا)، وقريب منها ما خلقته الثورة الايرانية من ارتدادات فكرية وحالات يأس وصمت من / وعن المبادىء القديمة والتفكير والكتابة... الخ.

عود على بدء. فربما لا يستهدف الاعداء اكثر من إيصالنا الى هذه النتيجة بالذات، أن نخسر عقولنا بفقد الثقة فيها، أن نفهم المعركة كحدث عسكري دون بعده بل أبعاده السياسية والايديولوجية والحضارية، أن نفقد صوتنا وبذلك نخسر فضيلة الحوار مع النفس (التفكير) والحوار مع الآخرين... مهما أظلم الوضع بل وحين يظلم الوضع بالذات.

من هذا المنطلق، وبهذا الفهم، أرجو أخذ الكلمة.

1 /2 وهذه الكلمات ــ الانطباعات بل والتذكرات... تقرأ «الآن». لا يدري صاحبها عند كتابتها «الآن» ماذا سيكون عليه الوضع في بيروت المناضلة من الناحيتين العسكرية والسياسية، ولكن الذي أنا على يقين منه هو أن الصهيونية «اسرائيل» ستنهزم في الاحتمالين المنتظرين : اما عسكريا ومن ثم سياسيا كذلك... وإما أن تنتصر في المواجهة القتالية ولكنها حتما ستكون قد خسرت الكثير في بقية الواجهات وهي الأهم في محصلة التحليل، ما دامت الخسارة الاولى يمكن أن تعوض مع الزمن : الناس والاشياء، وعندئذ ستبقى هذه الكلمات ادناه صالحة للحالتين، خصوصا وانها لن تهتم بالجزئيّ والعارض المؤقت بل تحاول ــ مبدئيا ــ

التنقيب عن المنسي من الحقائق ــ البديهيات، التي تراجعت الى الخلف من كثرة تراكمات الاحداث المزيفات.

2 .1/ انه في جميع الاحوال لا يجوز أن نيأس من رحمة التاريخ ومن رحمة الشعب (ومنها رحمة الله) فلو وقع ان انهزمت المقاومة الفلسطينية ومعها الحركة الوطنية اللبنانية ليس عسكريا وحسب، بل وحتى سياسيا كذلك، فإن هذا لا يعني بأي حال هزيمة للشعبين ولا هزيمة للامة ولا بالاحرى هزيمة للقضية نفسها، فسواء بالنسبة للقضية بالذات وبالنسبة لتاريخ اصحابها او بالنسبة لتاريخنا جميعا... فقد مرت علينا هزائم مختلقة وكلنها جميعا كانت تمر وتمضي وتبقى الشعوب (وقضاياها الكبرى) شامخة منتصبة القامة في عناد وإباء أمام العوادي والعواتي. إن أخطر ما يتهددنا الآن، ومرة أخرى، ليس هو أن تهزمنا في بيروت بالذات اسرائيل (ومن الحقيقة الامبريالية الاميركية) وفي معركة من معارك حرب طويلة النفس (ليست سياسية ــ عسكرية... فحسب بل وحضارية في العمق) بل هو أن نهزم أنفسنا باليأس. أنه لا ييأس من رحمة الله الا القوم الكافرون (= الحاكمون).

هذه الثقة بالذات الحضارية لأمتنا ليست جرعة سيكولوجية مصطنعة، ولا يجوز أن تفهم كقناعة تعويضية بلهاء تافهة... بل ان لها من عناصر ومقومات الحاضر ما يدعمها ويزكيها بل ويفرضها، فليس مقاتلو بيروت هم كل المقاتلين.. ففي بقية لبنان وفي الارض المحتلة وفي غيرهما هم يوجدون، صامدون، وحتى وان هزم الجميع (لاقدر الله) فهنالك شعب بأنه يقاتل بكل الوسائل ليس اقلها نموه الديمغرافي الاستثنائي (مقارنة الى تدهوره وفقره لدى الاسرائيليين) وكذا مستوى ابنائه التعليمي والعلمي... فحتى اذا قدر للمقاومة أن تموت (وهذا مستحيل) فان الشعب الفلسطيني والشعوب العربية لا يمكن ان تموت، ويكفينا هذا الآن لنثق في المستقبل، حتى وان اغتصبوا هم اليوم كل مقومات الحياة في الحاضر العربي والعالمي البئيس حقا.

وفي تاريخنا الوطني القريب (والقومي كذلك) امثلة عديدة تشبه لحظتنا الحاضرة، ومن أبرز ذلك المقاومات المسلحة للفلاحين المغاربة منذ أوائل هذا القرن، ومن ابرزهم : ماء العينين... ثم محمد بن عبد الكريم الخطابي... حيث انتهت جميعا الى هزائم لم تحل دون الشعب المغربي وبعد حين من الوقت (بل بالعكس) واعادة تنظيم نفسه واعلان المقاومة من جديد... انها مسألة ميزان قوى مادى ولكنه ظرفي... هو ما يتحكم في منطق كل سياسة، غير ان هذا الميزان متأرجح ويخسر فيه الذي يراهن عليه وحده، أما نحن فرهاننا على التاريخ (الحضارة) حيث لا يقف سوى الاصيل العميق الجذور في تربة الماضي والحاضر والبعيد المطامع في آن معا، ليس التناقض والصراع هنا (نقيض السياسة) بين قوى وضعيف بل بين حقيقي وزائف، أصيل وتافه حضاري (مناقبي ــ أخلاقي ــ وسياسي (انتهازي)

3 /1 سابقا في ما يسمى «الشرق الأوسط» واليوم في الشام وفي بيروت العربية بالذات تتمركز وتتكاثف كل تناقضات أمة بكاملها، مع بعضها، ومع الاستعمار بجميع اشكاله وتلاوينه، ليست المعركة في حقيقتها معركة فلسطينية ـــ لبنانية من جهة صهيونية ـــ اسرائيلية من جهة أخرى، فهذا الذي يجري يكاد يشبه تدريبا مسرحيا أوليا لحفل قادم سيشمل فيه الصراع والتدمير مجموع شعوب هذه الامة العظيمة ضد من قد يتهيأ له الدور من الامبرياليات أو هي جميعا. ويكاد يكون ما يحدث الآن كذلك اجراءات لتلافي أو تأخير ذلك الصدام التاريخي الشامل والذي هو آت دون ريب، وربما أسرعت الاحداث هذه بحدوثه، من حيث تقصد العكس، إنه مكر التاريخ (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)، ليس الشعب الفلسطيني (أو الشامي عموما) هو المستهدف حقيقة، والمعركة ليست معركته وحده، وان كان هو الطليعي فيها حاليا ـــ انها معركة تاريخية وحضارية لمجموع الامة العربية الكادحة، اليوم وغدا ضد جميع امبرياليات اليوم والغد.

هذه المعركة ـــ الحرب إذن وإن كانت الشام (فلسطين ـــ لبنان ـــ سورية) تمثل فيها اليوم دور الفدائي، المسيح... الا أنها معركة جميع الشعوب المضطهدة... والمستعمرة باشكال جديدة اتجاه مختلف الامبرياليات المعاصرة أو المقبلة، أما طليعة المعركة ـــ الحرب تلك فستكون الشعوب العربية جميعا بحكم عدة اعتبارات موضوعية وذاتية تؤهلها لهذه المهمة التاريخية والحضارية الحتمية... إنه «قدرها» التاريخي لا اختيارها السياسي، فاذا كان الشرق الاقصى مشغولا بتناقضاته التابعة لتناقضات العملاقين وكانت أمريكا اللاتينية ترزح تحت ضغط امبرياليتها الخاصة (و.م.أ) وكانت افريقيا بلا حول ولا طول : فقيرة متأخرة وعاجزة... فان الذي يبقى مؤهلا بحكم عدة اعتبارات هو شعوب هذه الامة. ان التناقض هو هذا في العمق، وعلى كل الاصداء، غير أنه في تجلياته أو تمركزاته ينتقل من فيتنام... الى الشرق الاوسط الى فلسطين... ثم الى بيروت ليرجع في لحظة لاحقة الى مجاله الطبيعي (التاريخي) القومي العربي ثم الاممي لتعود الكرة من جديد الى كلمة السر ـــ الشعار التاريخي العظيم «ياعمال (كادحي) العالم اتحدوا»

4 /1 وفي الحرب الاخيرة بوادر لكل هذا تتسارع بالبروز، اذ تهجم (اسرائيل) على لبنان)، وحاصرت عاصمتها وكان الذي قاومها ليس المقاومة الفلسطينية وحسب بل والشعب اللبناني بقياداته الوطنية، كذلك، واذن فالمعركة في بعض وجوهها لم تعد تهم الفلسطينيين وحدهم بل والشعب اللبناني وما يجاوره من الشعوب، فليس المستهدف هذه المرة بالذات هو المقاومة الفلسطينية بل المقاومة اللبنانية كذلك وبالاساس وكل الشعب اللبناني نظرا للاعتبارات التالية :

ا ـــ فهو أول شعب عربي بدأ يأخذ قضيته بيده كسلطة، ويشكل المنطقة الاولى المحررة نسبيا ـــ على مستوى المجتمع والانسان ان لم يكن على مستوى الاقتصاد والاشياء ـــ والمحققة أرق اشكال التحالف والمشاركة اليوم مع القضية القومية الاولى : تحرير فلسطين.

ب ــ في لبنان حيث ازدواجية السلطة سياسيا (بين الوطنيين الديمقراطيين من جهة والعملاء من جهة أخرى كطرفين رئيسيين بتحالفاتهما المختلفة والمتنوعة) وحيث انفراد الوطنيين بها ثقافيا (والآخرين اقتصاديا)... تجد الأمة العربية جمعاء متنفسا لحل بعض تناقضاتها على طريق طلائعها هنالك، وفي المقدمة منها التناقضات الثقافية هذه التي شكلت وما تزال خميرة تثوير كل الاوضاع وتحريك كل السواكن.

ت ــ لبنان هو حصن الحرية في الوطن العربي اليوم، هو ملجأ كل فكر مضطهد وكل مفكر ــ مناضل مقموع في أي بلد عربي، هناك يجد الحماية والدعم بل ويجد من يرفع له الصوت عاليا حتى يسمعه الجميع.

هذا الحصن، الملجأ، هذه الارض اللينة لمستقبل بناء أمة... هذه الكعبة للنضال حيث يحج جميع المؤمنين المعاصرين ... هو ما تستهدفه الهجمة الاخيرة في الحق لا المقاومة الفلسطينية فحسب.

ث ــ إن الدافع الاقتصادي المباشر للعدوان لا يجوز ان يغيب من الاعتبار في هذا التحليل. ان لبنان منافس حقيقي وعتيد للاطماع الاستثمارية الاستغلالية الاسرائيلية وازاحته (كما كان الحال مع مصر 67) تعتبر خطوة ضرورية لتحقيق التوسع الاقتصادي في المنطقة. ولهذا لاحظنا كيف اقترن الغزو العسكري للجنوب بغزو اقتصادى (4 ملايين دولار من السلع الاسرائيلية بيعت في شهر يوليوز فقط / فرض العملة الاسرائيلية لم انشاء فروع للبنوك الاسرائيلية / تشغيل خطوط السكك العثمانية من لبنان الى فلسطين الى مصر / النشاط السياحي المتبادل... بعثات التنقيب الاثري التي اكتشفت منذ الآن معبدين يهوديين !؟! ...الخ مما يشير الى اطماع السيطرة على الارض (الجنوب) والماء (الليطاني) والبقية تأتي).

[وبالمناسبة، فلا شك ان هذا العنصر سيُسرع في انفجار التناقض بين هذه الاطماع التوسعية والبورجوازية المارونية (الكتائب)، وهي التي لديها نفس الاطماع والمطامح في الاستثمار والاستغلال، ويجب اعتبار هذا التناقض بين العدوين وحسبانه في رهاناتنا المستقبلية، وظواهره حتى خلال الهجوم كثيرة]

4 /2 في لبنان... وبهجومهم لا يستهدفون اغتيال تلك الامكانيات وحسب، بل وقلبها ضداً عليها، فليبرالية «الدولة» في لبنان هي مصدر قوته وقوتنا جميعا كما هي في نفس الآن مصدر ضعفه وضعفنا جميعا ! فاليمين هنالك قوي هو الآخر ويمكن تسليحه هو الآخر والدفع به ليشكل سلطة... «هكذا ازدوجت السلطة خارج الدولة الرسمية والشكلية في الحقيقة[1]. وما كان لهذه الازدواجية ان تستمر على حال ثابتة، خصوصا مع تأثيرات العوامل الخارجية فيها، وقد ادت المقاومة الفلسطينية دور الخلخلة سابقا لصالح السلطة الوطنية في حين قامت سوريا (ومن وراءها) بالدور المضاد وفي الحق بالنيابة الظرفية عما تقوم به (اسرائيل) اليوم من

نيابة عن الطرف البورجوازي الرجعي والعنصري من السلطة المنقسمة في لبنان، على سبيل حسم ازدواجها نهائيا لصالح الرجعية المارونية ومن اجل اقامة اسرائيل ثانية بقناع مسيحي ولكنه يحمل كل خصائص النموذج ــ الاصل : نظرية الحق التاريخي (فينيقيا) ــ وضع الاقلية الدينية (المارونية) ــ ربط الدولة بالدين ــ العنصرية (ضد العرب) ــ العمالة للغرب مباشرة (الامبريالية)... وآخرها ارادة التوسع المتعدد الأوجه بتحالف مع اسرائيل الاولى.

فالبنان، ونتيجة تاريخ طويل من الصراع وحاضر زخم بالتناقضات... توضحت الخرائط الاجتماعية والسياسية... وأمسى الجميع يعي مصالحه وحلفاءه وأعداءه... فلم تعد ثمة امكانية لخداع أحد والتمويه عليه بايديولوجية «دولة» الجميع .. الوطنية والمحايدة في الصراع. واذن فلم يعدُ ثمة مانع (بل بالعكس) من أن تكشف الرأسمالية الامبريالية وعملاؤها عن وجهها القبيح ،الدموي والعنصري.. وتقيم دولة عصابات أقلية رجعية وعميلة تحكم بالاعدامات والسجون كما هو حال اسرائيل وخصوصا بعض انظمة أمريكا اللاتينية. بهذا المعنى فالمنتظر من «الجميل» أن يجمع في شخصه «فضائل» بيغين الى «خصال» سوموزا حتى يستجيب لمقتضيات الدولة ــ المسخ في لبنان المغتصب.[2]

[نقول هذا ما دامت امكانيات التقسيم ومبرراته الاقتصادية العسكرية والاجتماعية... شبه مستحيلة]

4 /3 كل هذا يعني شيئا أساسيا ومهما.. وهو ان (اسرائيل) أظهرت عجزها ككيان غريب عن المنطقة وضعيف عمقيا عن تمثيل المصالح الامبريالية بمختلف مظاهرها وفي جميع الظروف وبكل الاساليب. خصوصا بعد الثغرة الايرانية التي يزداد اتساعها والتي لم يستطع التعويض المصري ــ السوداني ملأها بكفاءة ولوقت طويل، هنا وجب البحث عن بدائل استراتيجية للامبريالية تستخدم لمواجهة مستجدات الحاضر المتسارعة والمفاجئة (نهضة الشعب المصري ــ ايران... الخ) وآفاق المستقبل المحتملة وكان من أهم هذه البدائل صنع اسرائيل ثانية في لبنان بما سيكون لها من مقومات تفضل بها اسرائيل الاولى.

أ ــ فهي ذات شرعية تفتقدها اسرائيل الحالية، فاللبنانيون المسيحيون يوجدون في ارضهم المعترف لهم بها عربيا ودوليا ولاينازعهم فيها أحد.

ب ــ إن رأسماليتها اكثر تجذرا في المنطقة وأدرى باوضاعها وقوانينها وأرسخ علاقة باسواقها.

ت ــ لا يوجد حاجز من أي نوع (باستثناء الدين جزئيا) بينها وبين شعوب ودول المنطقة.

ث ــ توجد لها مع الغرب روابط متعددة (اقتصادية ــ اجتماعية ــ وسياسية ــ وثقافية) مما لا يتوفر لدولة اسرائيل «اليهودية» فالمارونيون مسيحيون وهم بذلك ادعى لدعم و

«عطف» الغرب «المسيحي» من اليهود الذين يستقطبون «عطفا» غير طوعي من الرأي العام الغربي بل مصطنع وتحت الضغط والتهديد.. الدعائي، السيكولوجي (عقدة اللاسامية ــ النازية ...الخ) مما يمكن اعتباره منذ الآن مؤقتا ومحتمل الزوال في كل حين.

5 /1 بجميع المعاني، ومع التحفظ من جميع التحفظات وقبول كل الهوامش والحواشي والشروح، فان العدو الوحيد والحقيقي، ليس لشعوب الشام وانما لكل الشعوب العربية في مرحلتها الحاضرة هو الامبريالية (بالمفرد فهي أمام عدوها واحدة وموحدة) وفي المقدمة منها اليوم (و.م.أ) وما اسرائيل سوى «حاملة طائرات» (الوصف لسميح القاسم) والصهيونية هي ايديولوجية تسويغ الارتزاق لجنود القاعدة العسكرية الامريكية (اسرائيل)، وكل حديث يشذ عن هذا الاطار هو حديث باطل ان لم يكن مغرضا وسيء القصد، ويفسد علينا التحليل والرؤية ويزيف المهام والبرامج والاولويات. هذه، مرة أخرى، بديهية، وهي فوق ذلك قديمة، ولكن كم من بديهية تناسيناها لمحض أنها بديهية وأدينا عن ذلك باهض الثمن، ومثل هذه الحقائق يجب ان تبقى ماثلة في أذهان ووجدان الشعب وأن يرى بل ويتصرف على أساسها ولو اثناء شرائه للسجائر أو لبسه للازياء... الخ

5 /2 ليست الامبريالية وحدة متجانسة، وليست هي كذلك تناقضات لا حدود لها... انها هذا وذاك في نفس الآن وبحسب الظروف وبحسب المعنيين بالاستغلال والاستعباد، واذا كانت هي اليوم في لحظة من أهم لحظات اصطراعها الاقتصادي... والسياسي في آسيا كما في افريقيا وامريكا اللاتينية.. الا اننا مع ذلك نجدها متواطئة فيما بينها على حدود لذلك الصراع، وليست تلك الحدود سوى مصالح الشعوب بالذات، المهم الا تصطدم هي الاصطدام القاتل أو المنهك بالاقل، ولا فكيف يعقل ان تكون فرنسا (تشاد) او ابريطانيا (الارجنتين) أو حتى روسيا (افغانستان وارتيريا) ان يكونوا حقا وحقيقة ضد أمريكا (فلسطين ولبنان)

5 /3 ان العدو الحقيقي للعدوان.. هو الشعوب المضطهدة والمستعمرة والعدو الحقيقي لهذه الاخيرة هو كل مصدر للعدوان او قائم به مهما كان لونه ومهما كانت مواقعه الظرفية والعارضة عمقيا.

6 /1 ليست الهجمة الاخيرة حدثا مفردا. ولا نهاية لمسلسل أو بداية له، انها بالاحرى لحظة من تصعيده. لحظة بارزة حقا، ولكنها مع ذلك جزء من كل، من هذه البرهة الامبريالية من الزمن والتي نعيشها اليوم. وان الكثير من الاحداث السابقة دوليا وقوميا... قد بدأت الآن تاخذ مدلولتها الحقيقية كتحضير لهذا الاجرام التاريخي الفظيع في بيروت.. وبالطبع فان هذا التصعيد حياة بعد، ولكن له موتا أيضا.

اذا كانت الامبريالية الامريكية هي القائدة الفعلية لاغلب مآسي حاضرنا الدولي والأممي، فان هذا لا يعني انها وحدها المباشرة للردة ــ الهجوم الحالي، ان الجديد هذه المرة هو :

أ ــ ملاحظة مستوى عال من التنسيق الدولي بين مختلف اطراف الامبريالية العالمية والرجعيات المحلية في مختلف البلدان (فيما يخص قضايا الاخيرة)، وهو تنسيق يشمل في دقته وفي ضبطه أصغر وأبسط المجالات والمهام، يكاد لا يسمح لأي من أطرافه بالتصرف بعيداً عن التوجيه العام والمبرمج للردة ــ الهجوم الامبريالي ــ الرجعي العالمي.

ب ــ ان الاحداث المحلية، في هذا المنحى، لم تعد محلية الا باعتبار مكان حدوثها، أما وظيفتها.. ومن ثم دلالتها فتكتسبها أساسا من تحليلهما على المستوى الدولي، بهذا المعنى بالضبط نستطيع اليوم أن نفهم دلالات حرب الخليج مثلا (الهجوم العراقي على ايران) ــ تحطيم الطائرتين الليبيتين ــ انقلاب التشاد ــ الصمت النسبي للاعلام الغربي عن كل من لواندا وافغانستان ــ اعادة تأجيج حرب أوغادن... ثم قبول (و.م.أ) فتح مفاوضات جنيف حول الحد من التسلح ... الخ ... الخ

هكذا فاخطط وقع التحضير له هذه المرة منذ زمن بعيد وبدقة، وهو كذلك أشمل وأبعد مدى مما يظن والاطراف المشاركة فيه متعددة جدا وكل حسب مصالحه الخاصة يساهم، وحسب درجة ونوع استعداده، وأقلها التواطؤ بالسكوت مقابل أن يسلم بجلده أن تعصف به عواصف الردة العامة.

6 /2 وبالمقابل لكل ذلك فالملاحظ على الجبهة المقابلة من الوطنيين والديمقراطيين العرب او على المستوى الدولي... تراخ عام تقريبا واستهانة عملية بخطورة الهجمة ــ الردة، وضعف كبير في التنسيق لرد فعل نضالي من مستوى ما هو مطروح من تحديات ولو لهدف حفظ الذات والمكتسبات إن لم يكن لتحقيق هجوم مضاد. ان المعسكر الرجعي في اهدافه لم يعد كذلك في وسائل عمله وتفكيره، في حين ان المعسكر التقدمي في المنطلقات والاهداف ليس كذلك في خطط العمل ووسائلها.

7 /1ان هذه الهجمة ــ الردة الامبريالية العالمية على الشعوب المستعمرة... تشبه في كثير من ملامحها أحوال منتصف الستينيات وما بعدها، والتي أدت فيها أغلب الشعوب ثمنا باهضا على قصورها... جنوب شرق آسيا كله ــ اندونيسيا ــ غانا ــ مالي ــ الدومينيكان ــ المغرب... ثم هزيمة العرب جميعا من 67... وهكذا حتى بداية السبعينيات حيث ستبدأ الكفة بالرجحان لصالح الشعوب بدءا من فيتنام وما جاورها الى حرب اكتوبر 73 العربية، الصهيونية.. واستقلالات المستعمرات البرتغالية وانتصار الديمقراطيات في جنوب أوربا (اسبانيا ــ البرتغال ــ اليونان...)

7 /2 هذا التارجح في التاريخ الامبريالي بين هجومات وحشية تعقبها هزائم... يعكس في حقيقته الوضع الخاص لبنية اقتصاديات الامبريالية القائدة (و.م.أ) فباعتبارها كذلك فهي تؤدي مقابل ما تستفيده من امتيازات دولية يعتبر في المقدمة منها وضعية الدولار كعملة

للتبادل الدولي (وليس الوطني فحسب كما هو حال كل العملات الاخرى) اضافة الى امتيازات في الاستثمار والتوظيف وفي التبادل وفي الاحتكار (وخصوصا للمعرفة والعلم) وفي سرقة العلماء ...الخ هي تؤدي مقابل كل ذلك ومن أجله «واجبات» دولية تتلخص في السهر على استتباب هذا «النظام» الدولي بما يقتضيه من تجنيد وعسكر، وتسليح وحروب وغير ذلك.

هذه المعادلة على الصعيد الدولي بين الاستغلال والحرب، بين السلعة المدنية والسلعة العسكرية، بين الاسواق التجارية والقواعد العسكرية بين الدولار والتدخلات والانقلابات ...الخ هي انعكاس جدلي لمعادلة أخرى في اقتصاديات (و.م.أ) نفسها داخليا بين قطاعين في الاقتصاد الصناعي : الانتاج المدني والانتاج الحربي، والحدود بينهما ليست مادية وثابتة بل زمنية فقط يضبطها قانون أساس من قوانين السوق هو : العرض والطلب، وقانون الربح الذي يفرض على رأس المال ان يتجه الى حيث المردودية اكثر، وبالطبع فان هذا التحول الفوضوي واللاعقلاني لرأس المال من قطاع ضئيل الربحية الى آخر وفيرها. ينتهي بعد أمد يسير، ونتيجة تراكم العرض مقارنة الى الطلب الى ضئالة جديدة في ربحية القطاع الثاني الذي سبق الانتقال اليه والتراجع مرة اخرى نحو الاول... وهكذا دواليك.

هذا ما حصل، أو بدأ يحصل، متزامنا مع نهايات حرب جنوب شرق آسيا إثر تصعيدها الفظيع والوحشي في أواخر الستينيات، بدأت تقل مردودية رأس المال في قطاع الانتاج الحربي فبدأ التحرك (والتحول) الى القطاع المدني وتعبيراً عن ذلك تكاثرت أشكال المطالبة بالسلم مدعمة من طرف اقطاب هذا القطاع (اعلام مسيرات احتجاج ...الخ) ونهض المسرحي كيسنجر كلسان معبر وارادة منفذة سياسيا لهذا التحول، وأمسى سوق الصين (الصناعة المدنية) أوفر ربحية من سوق فيتنام (الصناعة الحربية) بالنسبة لتلك المرحلة من سيرورة الرأسمال الامريكي (العالمي في الحقيقة) [3].

7 / 3 ما الذي يعنيه كل هذا في حالتنا ؟ يعني أننا في مرحلة من مراحل هذا التحول للرأسمال الامريكي مرة أخرى نحو الحرب (الانتاج والاقتصاد العسكري) وأن الكوبوي الفاشل ريغان أتى بالذات ليمثلها أحسن (أو أسوأ) تمثيل [4].

غير أن هنالك فروقا بين هذه المرحلة وسابقتها في منتصف الستينيات مثلا وأهم ذلك :

أ ــ ان (و.م.أ) هي اليوم أقل قوة وهيمنة بمقارنتها مع ماضيها القريب، فباقي الامبرياليات قد نهضت واستقوت واصبحت منافستها لها أشد (أوربا السوق ــ اليابان) ثم روسيا باعتبارها دولة عظمى.

ب ــ ان الرأسمالية عموما وأنى كان موطنها تعيش اليوم اكثر من أي وقت أزمة عامة وبنيوية في كل مقوماتها كنظام اقتصادي واجتماعي وسياسي... محلي او عالمي. وهي أزمة

تقهقر وعجز لا يمكن الفكاك منها باصلاحات جزئية في النظام المالي أو النقدي او التجاري، بل فقط بتغيير جذري هيكلي لابد سيأتي قريبا من داخلها ومن خارجها في آن معا.

ت ــ ان حركة ونهضة الشعوب المضطهدة والمستعمرة.. قد كسبت مكاسب جلى، وتقدمت في مسيرة تحررها خطوات كبرى وأخذت مواقع لا يستهان بل ولا يمكن التخلي عنها. وبعض دول هذه الشعوب دخل نادي الكبار (باعتبار التسليح النووي) مثل الصين والهند... وباكستان والبرازيل وغيرها في الطريق.

اذن فميزان القوى في هجوم هذه المرحلة ليس بدرجة اختلاله السابقة. وعندئذ فليس من المنتظر وقوع خسارات بالاحجام السابقة للردة ولا طول نفس لهذه الأخيرة (الردة) بالاقدار التي كانت تحصل. إن زمنها حتما سيكون قصيرا ونهضة الشعوب واعادة استجماعها لقوتها (وفي مقدمتها الشعوب العربية وفي طليعتها الشعب الفلسطيني واللبناني وكذا المصري) سيكون أسرع بالرغم من أن الهمجية والدمار... يمكن أن يكونا أقوى حتى من الاختبارات الاولى. التي جرت في الشيلي والارجنتين.

7 /4 الطوفان الرجعي إذن آت لا ريب، ولن يفلت منه أحد بالتقية او بالانتهاز أو بغيرهما، لن ينفع معه غير شيء واحد، ركوب سفينة «الصمود» أولا من أجل الحفاظ على الذات وثانيا... على المكتسبات. فهذه الاستراتيجية الوحيدة للمرحلة، وهي من جهتها تقتضي عدة تكتيكات توجد في المقدمة منها : توسيع اطار التحالفات ما أمكن وفي سبيل أدنى الحدود من برامج العمل. والتنسيق الى اقصى حد وطنيا وقوميا وأمميا مع المتجانسين او المتقاربين في المبادىء وفي الاهداف والخطوط السياسية.

8 /1 بعد المعركة، والتي سيكون أهم انتصار عسكري لنا فيها هو تفويت فرصة دخول بيروت على الغزاة الصهاينة ولو كان ثمن ذلك هو خروج المقاومة الفلسطينية منها... سنكون حتما أمام خطرين موضوعين عامين :

أ ــ بروز وتجرؤ التيار اليميني على الساحتين الفلسطينية والعربية، وسيغذي بعضهما البعض في اتجاه خط الاستسلام والتسليم في المكتسبات وفي الاهداف...

ب ــ اعادة بروز جناح اليأس والمغامرة والانتحار في سياق خط : البندقية بدل السياسة، والممارسة بديلا أوحداً عن النظرية و «الكلام» فتنتظم حركة الارهاب على الصعيد الدولي من جديد كما وقع بعد هزيمة 67 أو أكثر.

وفي نظري، وعند الموازنة بين الخطرين أيهما الاخطر، أجد الثاني، لماذا؟
أ ــ لان التيار الاول منهزم لا محالة ليس فقط لاسباب ذاتية تتعلق بـ :

ا /1 موقف الجماهير التلقائي منه، أو بما اكتسبته من حصانة ايديولوجية وسياسية ضده بحكم التمرس الطويل وتراكمات الوعي الوطني...

ا /2 ما ستشكله مجزرة لبنان من جرح غائر في جسم الامة العربية بمختلف شعوبها، الشيء الذي يشكل حاجزا عاصما لها من الانخداع له (نقيض ما وقع في مصر مثلا حيث الاستسلام وقع بعد انتصار لا بعد هزيمة).

وانما كذلك وبالاساس لاسباب موضوعية كامنة في ذلك التناقض الجذري والذي لا يسمح بتاتا بأية امكانية للمصالحة او المساومة بين الحركة الصهيونية كمشروع امبريالي عنصري وتوسعي ...الخ وبين مشروع الشعب الفلسطيني الوطني العربي والديمقراطي.

والامبريالية من جهتها والصهيونية خصوصا، يسرها اكثر ويفيدها أن تجد أمامها شعبا تمارس طلائعه الارهاب من أن يواجهوها سياسيا حتى ولو كان اتجاه تلك السياسة ــ مثلا يمينياً يصب في نهاية مطافه في صاحونتها فهي لا يمكن لها ان تتنازل أدنى تنازل في الصراع حتى لو وصل الامر بعدوها الى قبول التعايش معها وتحت ظلها. إن المشروعين إياهما في علاقة تلاغي وتنافي لا يمكن معه أن يحضرا معا وفي نفس الوقت إلا على مستوى صراع مصيري وانتحاري. ان الصهيونية ليست ايديولوجية رجعية محلية فحسب، وانما هي بالاساس حركة امبريالية وعنصرية لا تقبل التعايش الا في اطار السيطرة والعدوان والتوسع، ومن ثم فسنلاحظ كيف أنها تحارب الاتجاهات السياسية لدى الفلسطيني ولو كانت يمينية (الطرد الاخير لرشاد الشوا مثلا) ربما اكثر مما تصنعه مع الارهاب المسلح والذي يخدمها اكثر ويقدم لها «مبررات» عدوانها المعتبر جزا أساسيا ومقوما بنيويا من مقومات تكوينها.

واذن فهذا الخطر ستتكفل به الجماهير الفلسطينية والعربية بشكل تلقائي من جهة، ومن جهة أخرى سيتكفل بتسفيهه وهزيمته العدو نفسه بممارساته الاستعمارية ومواقفه العنصرية...

الخطر الاخطر إذن هو التيار الثاني المحتمل، ذلك لان شروط بروزه ونمائه عادة ما تكون هي هذه الشروط (شروط الاخفاق العسكري أو السياسي..) ولان مصدره الاجتماعي ــ الطبقي (فئات البورجوازية الصغيرة عادة والمثقفة منها خصوصا...) هو الذي ما يزال في طليعة الحركات الوطنية العربية حتى اليوم، وكذلك لأن مستوى الهمجية والوحشية الصهيونية.. قد تجاوز كل حد يمكن تصوره.

انه تيار اليائس ولكن الذي يقدم نفسه للجماهير (في مظهره وحسب وعي أصحابه لانفسهم) كأمل للخلاص وكبديل جذري ووحيد في الساحات جميعا.

8 /2 أمام احتمال اليأس والانتحار وزيف الوعي هذا تُمسي مهمة التوعية وتكثيف العمل الدعائي والسياسي لدى مختلف أوساط الجماهير وبالاخص منها الفلسطينية ــ اللبنانية نفسها، مهمة من أوكد وأعجل الواجبات الآنية على الطلائع السياسية العربية الوطنية والديمقراطية، أنى كانت وبتعاون وتنسيق مشترك بينها.

9 /1 عود إلينا، وليكن العود أحمد.. ففي بلدنا العزيز وقعت أحداث وأحداث، قلبت الكثير من المعطيات قلبا جذريا، لنبدأها على الاقل من زيادات الاسعار في ماي 1981 والتي حكمت على عشرات الآلاف من المواطنين بالموت جوعا او مرضا.. على فراشهم.. الى يونيو من نفس العام حيث نفذ حكم الموت اياه على المستعجلين منهم بالرصاص في الشارع ... الى انتهاك قدسية الرموز الوطنية (اعتقال عبد الرحيم) الى الاحكام الاخيرة ضد قيادات (أوطم) الوطنية والفرعية والمناضل بوزوبع وقبل ذلك استمرار التحفظ على المناضل الاموي ورفاقه.

انها حملة شاملة في الحقيقة، ولا يمكن أن تفسر نفسها بنفسها ولا حتى بأوضاعنا الخاصة. ان الدلالة قد بدأت تبرز الآن فقط باعتبارها من المقدمات القطرية (ولبقية الاقطار العربية حملاتها الخاصة بها) للهجمة العامة في لبنان، وبالفعل فقد نجحوا (اولاد...) والا فهل كنا سنتخاذل هنا كل هذا التخاذل لو لم تقع كل هذه التوطئة الهمجية والمدروسة للساحة الوطنية، أو لو وقع الهجوم اياه على بيروت قبل عام فقط من اليوم.

اذن فمشكلنا الوطني اصبح في عمقه قوميا بل وأمميا، ولا محيد لنا عن اعتبار هذا عند كل تحرك، ليس فقط لأن الخصم يراعيه، ويشتغل ضمنه كجزء من مخطط عام رجعي عربي وامبريالي عالمي، بل وكذلك لأن منطق التطورات الاقتصادية والتقنية (العلمية).. يفرض هذا، وان تخلفنا عن هذا الفهم وعن هذه الممارسة.. هو الذي جر وما يزال يجر علينا كل هذه الكوارث الوطنية والمآسي والاحباطات السياسية بل وأكاد أقول اللا جدوى النضالية كذلك، حيث تكاد النضالات لا تؤدي سوى الى مواقع أقل صلابة ومواقف أكثر تخلفاً.

9 /2 هذا الوضع يشمل كذلك اكثر الفصائل الوطنية والديمقراطية بما فيها المقاومة الفلسطينية، والتي تهاونت نسبيا في تدعيم تحالفاتها وفتح اوسع اشكال الحوار لحل خلافاتها وتناقضاتها، على نقيض الرجعيات العربية التي وصلت في التعاون والتنسيق وتبادل الخبرة والمعلومات والدعم.. مدى بعيد جداً إن بشكل مستقل أو تحت الاشراف العام للامبريالية بتوجيهاتها وتخطيطاتها.

10 /1 وبعد... ففي بيروت ولبنان عموما يحدث الآن تأسيس لاحد احتمالين هذه المرحلة كلاهما ممكن رغم تناقضهما، فاما انتصار للامبريالية العالمية والرجعية العربية ومنها اليمين العنصري اللبناني.. وهذا يعني (واللهم الطف بنا) سلسلة انهيارات في كل البلاد العربية وفي افريقيا كذلك ومناطق من آسيا لكثير من مراكز نفوذ وقوة الحركات الوطنية والتقدمية هذه المناطق. وإما أن نصمد هنالك وهنا وفي كل مكان وبمختلف الاشكال والوسائل (ومنها العسكري طبقا) وعندئذ فاحتمال تحول النقمة الى نعمة يصبح واردا جداً، وذلك بالحفاظ أولا على الذات والمكتسبات في انتظار لحظة هجوم لاحق لاريب فيه وهذا يتطلب الكثير وفي

المقدمة منه تحرك الجميع ليس لدعم صمود منظمة التحرير الفلسطينية في مختلف اشكال ممارساتها في فلسطين ولبنان وغيرهما، وانما في الحق من أجل الدفاع عن النفس اكثر من ذلك وقبل وبعد ذلك.

10 /2 وبالنسبة الينا هنا فان هذا يتطلب تنفيذ برنامج للحد الادنى نحن ملزمون بتنفيذه مهما طال الزمن أو تغيرت الاحوال. في اتجاه القضية القومية ــ الوطنية الاولى : فلسطين.

1) على المستوى الرسمي :

ــ الدفع بالحكومة المغربية كي تخرج من وضعها وموقفها الحاليين، وتبدأ في اتخاذ اجراءات لصالح القضية وباخذ الادنى على الاقل بما ينسجم وارادة كل الجماهير المغربية. وذلك بـ :

اــ تغيير سياسة الاعلام الحالي، وليكن مثلا بتخصيص حصص اذاعية وتلفزية اما لمنظمة التحرير رأسا أو بوساطة الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني.

ب ــ الدعم المادي : المالي والعسكري لجبهة المقاومتين الفلسطينية اللبنانية.

ت ــ السماح للحركة الوطنية المغربية : (الجمعية المغربية...) بتنظيم حملات :

ــ الدعاية والتوعية والتظاهر... الجماهيرية.

ــ جمع التبرعات الشعبية لصالح القضية.

ــ التبرع بالدم.

ــ تسجيل المتطوعين، وتنظيم سفرهم الى الجبهة.

ث ــ فتح معسكرات تدريب سريع باشراف الجيش الملكي للمتطوعين والمتطوعات.

جـ ــ المساهمة في مختلف المؤسسات الاقليمية والدولية (الجامعة العربية ــ الوحدة الافريقية ــ عدم الانحياز ــ المؤتمر الاسلامي ــ الامم المتحدة ...الخ) مع بقية البلاد العربية في الفضح والتنديد بالرجعية الصهيونية ... مع حملة اعلامية شعبية على الصعيد العالمي.

2) على الصعيد الشعبي.

ــ الدخول في حركة تنسيقات مرنة ومتعددة الاشكال والمستويات والمحتوى بين مختلف حركات النضال الوطني السياسية والنقابية والثقافية. والمهنية والرياضية والفنية ...الخ تتراوح بين الحدود الدنيا والعليا.. كل بحسب استعداداته وبحسب مطامحه.

ــ التأكيد على إطارى الجمعية المغربية للمساندة وكذا جمعية حقوق الانسان كأشكال أولى للعمل المشترك. مع العمل الدؤوب من أجل تطويرهما حتى يشملا أوسع ما يمكن من أجزاء الوطن ويستوعبا أكثر ما يمكن من أشكال العمل.

ــ التفكير والعمل على خلق أطر تنظيمية أخرى للممارسة النضالية في نفس الاتجاه ولكن بأشكال متنوعة وجديدة وتخصصات أكثر دقة من الشعارات العامة التي تعمل في ظلها حاليا الجمعيتان أعلاه.

ــ تقوية العمل على المستوى العربي في كل هيئات التنسيق الشعبي العربية (المحامين ــ المهندسين ــ العمال ــ الاطباء ــ الطلبة ــ المعلمين ...الخ ...الخ) ودائما طبقا للمخططات والبرامج التي تقترحها الحركتان الوطنيتان الفلسطينية واللبنانية بالاساس.

ــ خوض حملة اعلامية وطنية في إطار برنامج منسق بين مختلف الهيأت في الوطن بما فيها احيانا تلك المشتركة في الحكومة، يكون هدفها القضية ولا شيء غير، حتى لا توظف في أهداف حزبية ضيقة وانتخابية، تنتهي الى نقيض الهدف منها. وهذا يتطلب :

أ ــ حملة محاضرات وندوات وسهرات فنية ولقاءات رياضية... مخصصة جميعا لمصلحة القضية.

ب ــ حملة تجمعات وتظاهرات واعتصامات وعرائض... تكون مشتركة كل منها بين هيئتين وطنيتين أو محليتين ... على الأقل.

ت ــ تخصيص جريدة خاصة ومشتركة لقضية فلسطين.

ث ــ خوض حملة مقاطعة للمؤسسات والسلع والرموز الامبريالية والصهيونية... اعتمادا على لوائح المقاطعة العربية أو غيرها، شركات، منتوجات صناعية : سجائر أمريكية، ألبسة، أفلام، مغنيين، كتابا... الخ.

جـ ــ العمل السريع والحازم لالغاء المعاهدة العسكرية المغربية ــ الامريكية... الخ.

11 / خلاصات ونتائج

ــ غزو لبنان وارادة احتلاله يثبت من جديد الطابع القومي للمعركة مع الامبريالية والصهيونية وأن القضية لا تخص الشعب الفلسطيني وحده بتاتا.

ــ يؤكد كذلك أن هزيمتنا العسكرية اليوم في لبنان، هي نتيجة لهزيمتنا السياسية بالأمس في «كمب داوود». الرجعية المصرية ــ والعربية عموما مساهمة مباشرة أو بطريق غير مباشر في ما يحصل الآن في لبنان.

ــ لا يستهدف العدو في هجومه المقاومة الفلسطينية وحدها أساسا، بل وكذلك الحركة الوطنية اللبنانية كسلطة سياسية وعسكرية وثقافية ... ذات نفوذ عام في الشارع ويشكل خطراً آنيا ولاحقا على جميع الدول العميلة في المنطقة. ان قليلا من الديمقراطية (الحرية) وشيئا من السلطة الشعبية قد تحققا في لبنان وأفزعا «الجميع» فماعساهم يفعلون حين تمسى كل الديمقراطية (الحرية) وكل السلطات للجماهير ؟!؟

ــ أعطى الاعلام عنايته كلها للثورة الفلسطينية ومقاومتها وعلى حساب دعم القوات المشتركة اللبنانية، في حين أن ما يجب الخوف عليه حقا ومن ثم إيلاء العناية والدعم له الآن أكثر هو الأخيرة. ذلك لان الثورة الفلسطينية بحكم مقوماتها الذاتية وشروطها الموضوعية أصبحت تقريبا في مأمن من خطر القضاء عليها وهي لابد ستتجاوز الامتحان الصعب الحالي

ــ كما تجاوزت غيره في السابق ــ بنجاح ومزيد تجذر وقوة، في حين نجدهم اليوم يستهدفون بالاساس لبنان وتحويله من السلطة الوطنية (في الشارع على الاقل) الى سلطة استعمارية عميلة، الى «اسرائيل» جديدة في المنطقة، وهذا ما يجب ان يتجه الاهتمام اليه حاليا باعتباره الخطر المحدق.

ــ ليست المقاومة الفلسطينية هي التي احتمت ببيروت، بل ان بيروت هي التي احتمت بالمقاومة ودافعت الاخيرة عنها دفاع البار عن أمه، ولولا ذلك لغزت الصهيونية (بيروت) ولكان مصيرها ومصير سكانها أشد هولاء بما لا يقاس بما وقع.

ــ اذا اضطرت المقاومة الفلسطينية للانسحاب من (بيروت) فلا يجوز أن يشكل هذا مدعاة لأي «بكاء» فهي، إن فعلت، ستخرج كريمة شريفة بطلة ومرفوعة الرأس عاليا ذلك لأن :

أ) وُجودها أصلا في «بيروت» لم يكن سوى حدث عارض، أذ أن مكانها الطبيعي (التاريخي) هو وسط شعبها وعلى ارضها المحتلة «فلسطين» وخارج ذلك لا يمثل للثورة سوى «قواعد للعمل السياسي والتدريب والتمويل».. وكذا ما تدعو اليه هجمات الرجعية من ضرورة حماية شعبها في المخيمات ...

ب) لا يمثل السلام ولا تشكل الممارسة بواسطته ــ عند المقاومة الفلسطينية ــ إلا نسبة ضئيلة من تحركها العام : (السياسي ــ الدعائي ــ التنظيمي ــ والدبلوماسي... الخ) حتى الآن. وإذن فتوقفه الجزئي (في جنوب لبنان) والمؤقت حتما لا يشكل في المسيرة العامة للحركة «مأساة» نهائية كما سيحاول البعض تصوير الامر.

ت) انها معركة واحدة، وهي على اهميتها وخطورتها لا تشكل سوى لحظة من لحظات حرب طويلة النفس متنوعة المراحل والسبل والاشكال.

ث) لقد صرحت المقاومة بان المعركة الحقيقية مع العدو قد بدأت الآن فقط، وهذا صحيح، ولا يدري أحد شيئا عن افاقها القريبة أو البعيدة، غير أن ما نعرفه عن هذه البداية وما يميزها في آن معا، هو انها، نقيض العادة، بدأت من القمة، بدأت بأقصى قوتها ومنتهى طاقتها التدميرية، فاستعملت ابشع ما يمكن تصوره عن العنف العنصري ــ الاستعماري الهمجي والوحشي، والذي لم يسبق له في التاريخ مثيل (حتى عند هتلر أو جنسون...) ومع ذلك فالمقاومتان الفلسطينية ــ اللبنانية صامدتان... إن زمانهم يمر الآن ان لم يكن قد مر فعلا، فماذا لديهم جوابا عن زماننا القادم حتما.

ــ الحرب، كل حرب، ذات وجهين : عسكري (مباشر) وسياسي (بعيد المدى) وهو الأهم) ومن الاكيد ان القضية (والثورة الفلسطينية) قد انتصرت على هذه الواجهة الثانية ولها في المستقبل مجال فسيح لاستثمارها اكثر، وان الصهيونية في المقابل قد انهزمت على هذه الساحة داخليا (احتدام التناقضات القاتلة) وخارجيا (العزلة الدولية والاممية).

أما على الصعيد العسكري فقد انتصرنا جزئيا في سياق هزيمتنا العسكرية العامة :

أ ــ معنويا : بصمود المقاومتين النادر المثيل أمام قوة تضاعفهما أكثر من (50) خمسين مرة عدة وعتاداً.

ب ــ الحفاظ على الذات المقاومة سليمة نسبيا وباقل ما يمكن من الخسارات وباكثر ما يمكن من التماسك والوحدة.

ت ــ نجاحهما في الدفاع عن بيروت ومنع الغزاة من دخولها، واشتراطها ذلك حتى في حال الانسحاب منها عسكريا.

ث ــ مساهمتها في حماية القوات المشتركة اللبنانية (ق.م.ل).

ج ــ إفشال مخطط الحرب الخاطفة الحيوي لدى العدو، ولاول مرة.

ح ــ ما مُني به العدو من خسارات كبيرة في الارواح.

ــ موضوعيا يهدّد الثورة الفلسطينية (والعربية عموما) من الداخل اليوم خطران سياسيان محتملان :

انبعاث اليمين العميل ونقيضه (شقيقه) اليسار الانتهازي المتطرف (المغامر ــ الارهابي..) والتهديد الثاني هو الاخطر لجملة أسباب، وعليه فتجب العناية وطنيا وقوميا بالنقاش والتنظيم السياسيين، وذلك بممارسة حملة توعية منظمة وعامة.. والا تحولت الهزيمة العسكرية المحتملة (الطبيعية في الشروط العامة) الى هزيمة سياسية ونفسية (ثقافية ــ اخلاقية...) وهي الغاية الحقيقية للعدو الامبريالي ــ الصهيوني والرجعي.

ــ يجب أن نتذكر دائما بأن عدونا الحقيقي والدائم والخطير هو بالاساس (الولايات المتحدة الامريكية)، وهو عدو يمكننا أن نحاربه يوميا وانطلاقا من وسائل بسيطة وهو هكذا يفعل فهو يعيش بيننا وبنا وفي كل لحظة، بدءا من سجائرنا واذواق لباسنا.. وصولاً الى أفكار وعواطف الكثير منا، فلنحارب اسرائيل ــ امريكا فينا والا فنحن منافقون ليس إلا.

ــ هذه الهجمة الهمجية اليوم على لبنان، هي حلقة من حلقات حملة عامة وذات مراحل للامبريالية على الصعيد العالمي فعلينا أن ننتظر ونتهيأ لما بعدها. غير أنها مع ذلك، وفي المجمل، تمثل لحظة من قانون سيرورة الامبريالية بين الهجوم والانحسار، وهذه اللحظة الهجومية اليوم ستكون حتما أقصر نفسا (لعدة أسباب) رغم انها ستكون أعتى تدميراً.

ان قضيتنا سياسية وان تناقضتنا (معركتنا) مع العدو سياسي أيضا، وبالتوعية السياسية وبالتنظيم السياسي للجماهير أساسا سننتصر، لا بالبندقية (وأحرى بالبندقية وحدها).

إن قوة العدو من ضعفنا (تبعيتنا وتخلفنا) كما أن دحره وهزيمته تكمنان في قوتنا (تحررنا تقدمنا)، وكل اخفاق (سياسي أو عسكري أو...) في منطقة عربية ينعكس سلبيا على الجميع وفي المقدمة منه قضيتنا المقدسة نفسها : تحرير فلسطين، أما اذا جاءت الطعنة (كامب داوود) في القلب (مصر) فتلك كانت الضربة الموجعة التي تلتها وستتلوها حتما ضربات حتى يسترجع «القلب» شفاءه، وهو اليوم يفعل، وفي السابق عبر حافظ ابراهيم عن شيء من هذا بقوله على لسان «مصر».

أنا إن قدر الاله مماتي   لن ترى الشرق يرفع الرأس بعدي

ولكن مصر (وشعبها) مثل أهراماتها لا تموت وإن كبت.

وعلى ذرى مجد الاهرام وتراث عمرو بن العاص والايوبي وناصر... سنحتفل ولابد بصنع مجد، بل أمجاد جديدة، ولكن دون عدوان ودون استغلال.

* * *

إن كعبتنا توجد منذ اليوم في بيروت (الغربية) التي قاومت — دون أن ينوب عنها أو يساعدها أحد — أحباش وأروام عصرنا الاكثر توحشا وهمجية، لقد كانوا يستهدفون — كما الحال في الماضي — تحطيم الرمز الجامع والموحد، رمزنا للحرية والتعايش الوطني والديمقراطي، رمزنا للتحالف القومي والكفاح الوطني.. فاذا بهم زادوا الرمز رسوخا وصرح البناء قوة ومظهره نصاعة ووضوحا، أما الرجعيات العربية فلن تخير بعد اليوم ما تفعل بعد كل هذا الصمود وهذه المقاومة المعجزة لبيروت أمام اعتى قوة امبريالية واكثر عملائها ومنفذي خططها.. عنصرية ورجعية وهمجية.

فلتكن (بيروت) ماسادا العروبة ولكن دون حقد ودون عنصرية.

واخيـــــرأ

— لتعش مناضلة ومنتصرة كل الشعوب العربية وفي الطليعة منها شعوب الشام ومصر.
— ولتحيى (م. ت. ف) و (ق. م. ل) و (ح. ت. في مصر).
— وليبق أملنا بعرض ضحكة قائد المقاومة، وقائدنا جميعا : ياسر عرفات رمز الماضي والحاضر والمستقبل.

البيضاء في 10 غشت 1982

هوامــش :

(1) لم تكن (لبنان) دولة في يوم ما (العروي) ولن تكون دولة. ومآسيها المتلاحقة اليوم، كما هو حالها بالامس ومستقبلا تكمن هنا بالضبط، فهي كيان مصطنع، كغيره من اغلب الكيانات الاقليمية (وحتى القبلية) العربية لا مستقبل له خارج اطار أوسع للوجود والحياة هو (سوريا الكبرى، سوريا ــ لبنان ــ فلسطين ــ الاردن وربما العراق كذلك) كولاية ضمن الدولة القومية، التي يمكن أن تكون بصيغة، ولايات متحدة عربية، وهي اليوم بتناقضاتها المستحيلة الحل (تعارضاتها) تقدم النموذج المصغر عن مستقبل البؤس لكل كيانات «دول» الطوائف العربية (وبالمناسبة : الافريقية كذلك)

(2) في هذا السياق، كم يشبه التاريخ البئيس لشخصية ريغان حالية دولته وكم تنسجم شخصيته : لاملامح الجد (الشيخوخة) والضحكة البلهاء (للاستهتار) (وهنا يخفيان تفاهة عميقة...) مع وضع الدولة الامريكية اليوم. الشيخوخة المستهترة بمخلفات قوتها القديمة.

ابو غزالة. المشير ووزير الدفاع والانتاج الحربي في مصر حاليا يمدنا بالمعلومات التالية :
«يكلف الجندي الامريكي في الشرق الاوسط 150 الف دولار في السنة.
اما الجندي المصري هنالك فلا يكلف سوى 1200 دولار في السنة».
وبعملية قسمة لمجموع المساعدات الامريكية السنوية لاسرائيل على مجموع سكانها نعلم ان كل واحد منهم (جندي مرتزق) ينوبه 1000 دولار فقط.

عندها ستمسي الصفقة اللبنانية اكثر ربحية على الأقل من الوجهة «الاقتصادية» الصرف، مادام المرتزق الماروني لن يكلف حتما وبالنظر لعدة أسباب أكثر من نصف هذا القدر أو أقل ربما.

(3) هنالك قوانين أخرى لتفسير نفس الظاهرة لا حاجة بنا الى الدخول في تفاصيلها حاليا لأن هذا لا يهمنا بقدر ما يهمنا الفهم العام للظواهر.

(4) هنالك تطابق (غريب) بين شخصية رئيس الدولة في (و.م.أ) والمرحلة التي يمثلها (سر هذا التطابق يكمن في شروط ومراحل ترشيح الرئيس والمصنوعة بشكل دقيق جداً) فاذا وقع تحول ما اثناء مرحلة رئاسة في الوضع العام فعلى الرئيس أن يتحول (وهو شيء صعب مقارنة بالشروط التي كانت المرحلة السابقة قد شرطتها في صعوده) او يزول، هذا ما وقع غالبا، اما بالاغتيال او الفضيحة (نيكسون) وهنالك رؤساء يمثلون المراحل الانتقالية غالبا (كارتر) وغالبا ما يكون نواب الرئيس من هذا الصنف او من النوع النقيض للرئيس كنوع من التوازن من الاحتياط في نفس الوقت (جونسون) وآلية هذا الوضع مفهومه ولا مجال هنا لتفصيلها.

الياس خوري

بيـروت العـروس

بيروت وحدها

المدينة ـ المرآة تنكسر الى شظايا، والشظايا تعلو، كأننا نشهد لنهاية الكون او لبداية الكون.

المدينة التي تنحني على المتوسط ترتفع باشلائها. المدينة الاشلاء لا تنحني إلا لتلم قتلاها وتمضي.

وبيروت تمضي، بيروت الحاضر والمستقبل.

الحصار، الماء، النار، الآلاف مطوقون بالنار، مئات الآلاف يتراكضون تحت النار وفوق النار وبيروت لا تستسلم.

جميع المدن العربية استسلمت قبل ان تحارب. سقطت دون أن تحارب وبيروت لا، انها داخل النار، بمدها يشتعل، عيون اطفالها تشتعل ولا تنحني أمام الغزاة. حاصروها فحاصرتكم ايها العرب انتم المحاصرون وبيروت في حرية الموت.

حاصروها فهجمت عليكم وحاصرت مدنكم وقصوركم وسجونكم ونفطكم.

الحرية في بيروت ولها.

المدينة العظيمة التي حولت بيوتها الى متاريس، المدينة اللبنانية التي صارت أجمل من فلسطين، بيروت المقدسة كالقدس. انها الاسم الذي تعمدنا به ونموت به.

نحن الموتى، نحن الشهداء والضحايا، وحاصرونا ولو نحاصر، كسرونا ولم ننكسر، احرقوا عيوننا ونرى، نحن نرى ونكتشف كيف تبدأ البدايات

الاجساد ـ المتاريس ـ هؤلاء الذين حولوا أجسادهم الى متاريس ليسوا ابطالا، انهم بشر يحلمون ويعشقون العيون الجميلة ويسكرون برائحة البحر، لا يوجد أبطال. البطولة لا معنى لها، كتب التاريخ تكذب، وحدهم الناس حين يهجمون على الموت يصنعون تاريخهم.

وبيروت تعلن أن الحاضر هو التاريخ. توقفوا عن البحث في المقابر عن اصالتكم. لقد اعطتكم بيروت اكبر مقبرة واكبر حديقة واكبر بحر.

المفاجأة في بيروت ليست مفاجأة.

منذ ثماني سنوات والقتلى يتشكلون كأقواس الرغبات المشتعلة من حنين الى البحر واجسادنا تتساقط.

قتلونا، ارادوا قتلنا، وكنا في موتنا اكثر حرية من حياتهم، ارادوا أن يقتلوا في بيروت كل الكلمات التي كتبناها وكتبتنا
وكنا في النار نشتعل ولا تموت.
هجموا علينا. كل الجراد هجم. افترسوا حقولنا وبيوتنا لكننا لم نركع. ارادوا تحويلنا الى عبرة فلم نعتبر. كنا نعرف، وكانوا يعرفون اننا نعرف: قتلوا غسان كنفاني وقتلوا كمال ناصر، ثم قتلوا كمال جنبلاط. قتلوا وقتلوا. ايدي القتلة تتعب والموتى لا يتعبون.
كنا نعرف وكانوا يعرفون اننا نعرف. لذلك جاءت اسرائيل وتركونا وحدنا. تركوا بيروت وحيدة هي وحفنة من الرجال والنساء الذين وقفوا واوقفوا العالم صاروا قلب العالم، ليس لأنهم لا يخافون، بل لأنهم تجرأوا على الخوف.
ومهما حدث لبيروت فبيروت ستبقى.

انها النموذج والبداية.
انها الجميلة والجميلة في بيروت. انا رأيتها، سمراء وتقف بين الانقاض ولا تبكي. الأجمل من كل النساء تركض وسط الشوارع المقفرة تلملم الموتى وتقف ولا تستسلم
الجميلة في بيروت وبيروت كالعيون.
وبيروت ستبقى
القبضات المرفوعة الى الأعلى لن تسقط
والعيون التي تحدق في النار لن تغمض
والرجال الذين قتلوا لن تموتوا.
بيروت ستبقى
الكتابة فيها ستبقى، كل «المواقف» التي وقفت ستبقى «الطريق» الذي رسمناه سيبقى، جبل «الكرمل» الذي يصعد من بين الاشلاء سيبقى
الشعراء، المغامرون، الموج، الاصوات، الصحف، كلها ستبقى
لا تصدقوا الجنرالات الذين هجموا على بيروت، انهم يكذبون وبيروت لا تكذب.
لا تصدقوهم، صدقوا الفدائيين. صدقوا الفدائيين لانهم وحدهم علامات المستقبل. صدقوا المخيمات التي هدمت، صدقوا عين الحلوة والرشيدية، صدقوا المدن التي أسرت، صدقوا صور وصيدا، صدقوا برج البراجنة وصبرا وشاتيلا، صدقوا عين المرية وكورنيش المزرعة وساقية الجنزير ورمل الظريف. صدقوا الفاكهاني، صدقوا الحجارة التي لم تهرب، صدقوا جرح بيروت الذي يحترق.

وانت يا بيروت افرحي
افرحي ايتها العليقة المحترقة
افرحي ايتها الأم والحياة
افرحي ايها الينبوع الذي لا ينضب
افرحي ايتها العذراء المقدسة والقتيلة
افرحي ايتها المصلوبة على الأيام التي لا تنتهي
يابيروت افرحي
افرحي يا عروساً لا عريس لها.

كمال أبو ديب

....

1 ـــ
عصية على التسميه
عصية على القهـــر
عصية على النـــدب
تتعمدين بدم يافا والجليل
فتكونين قربان البدايات
كان لابد أن يأتي زمن للبدء
ونحن خارج الزمن
فكنت بشارة البدء
البشارة التي تمسح الدم والدمار والدمع

2 ـــ
أقول بيروت وأعني يافا
أقول أدونيس وأعني محمود
أقول أمية وأعني فاطمه
الوجوه التي تتحد بالموتِ
فينحني الموتُ

3 —

الوجوه التي تتناثر دون هوية
التي تسقط دون ألم
تصبح أَلِفَ اسمائك الحسنى
في موتك المريع
في مخاضك المريع

4 —

لكني ذا زمن البدء
لا زمن النهاية
لانك باسم الاطفال
باسم الدم الفلسطيني
لا تملكين حق أن تكوني شيئاً آخر.

5 —

ليكن ذا زمن بدء لا كأي آخر
بدء من الحجر، من هوة الشهادة والأشلاء
والخراب
بدء مس اليأس
من الفضيحة والهيكل المتنافر
من الجمجمة الخاويه
بدء من صلابة ما صهرته النار
لتكن النار
ليكن الدم نسغ مستقبل يأتي
لكـن
قبل كل شيء آخر
ليكن أن تكوني الآن
وردة الصبح المعمد بالدم
وردة الولادة.

ابراهيم السرفاتي
سيون أسيدون

إلى ياســـر عرفـــات

الأخ العزيز، اخوتنا الأعزاء، نحييكم بحرارة.

في الوقت الذي يحتل فيه جنود الهمجية الصهيونية جنوب لبنان معتمدين في ذلك على الدعم الفعال للغرب الامبريالي، ومستفيدين من سكوت وتواطؤ الرجعية العربية..

في الوقت الذي يرتكبون فيه جريمة الابادة الجماعية ضد الشعبين العربيين الفلسطيني واللبناني..

نرفع صرختنا نحن كاتبا هذه السطور. آملان أن تصلكم، ولو داخل خطوط الحصار، للتنديد بالعملية الاجرامية التي يقوم بها بيغين وعصابته.

من جديد تطبع حجة تاريخية أخرى عن طبيعة الصهيونية : الفاشية ـــ الصهيونية. هذه الآلة لزرع الدمار والموت ـــ على اللحم المنهوش وتسجل بالدم المسفوك لعشرات الالاف من العرب الفلسطينيين واللبنانيين، رجالا ونساء، أطفالا وشيوخا استشهدوا تحت نيران القنابل.

من جديد سجلت حجة تاريخية اخرى في وجه العالم كله عن طبيعة الصهيونية العنصرية التي تسعى لابادة الشعب الفلسطيني نهائيا على غرار ما مارسته النازية من «حل نهائي للمشكلة اليهودية» عن طريق الابادة الجماعية.

وهكذا فان جماهير اليهود التي هاجرت الى فلسطين باغراء من الصهيونية تحولت الى ذراع لنازية جديدة.

من دير ياسين في 1948 الى ما يجري اليوم في جنوب لبنان مرورا بكفر قاسم وبفلسطين المحتلة عامة، ومن غرنيكا في بلاد الباسك ومن اورادور سوركلان بفرنسا ابان الاحتلال النازي الى سانتياغو بتشيلي في 1973، مرورا بمي لاي في فيتنام، هناك نفس المنطلق ونفس النهج ونفس الهمجية الامبريالية الفاشية.

في الوقت الذي تحاول فيه الامبريالية والصهيونية اطفاء الشعلة التي أوقدتها الثورة الفلسطينية، نؤكد من خلالكم دعمنا المطلق للمقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين الأبطال، حاملي آمال مستقبل مشرق للشعوب العربية *والأمل الوحيد لسلام حقيقي وعادل بالنسبة للبشرية في هذه المنطقة من العالم.

في الوقت الذي يبدو فيه وكأن الهدف السامي للثورة الفلسطينية يبتعد كجوهرة ساطعة في أحشاء الليل الهمجي، في ذات الوقت، تلمع سدادة وعظمة هذا الهدف بكل جلاء :

الا تبرهن جرائم الصهيونية الأخيرة على أن الصهيونية والأمة العربية لا سبيل للتعايش بينهما ؟ان الصراع التاريخي والحضاري بين الأمة العربية، وعلى رأسها فلسطين، والكيان الصهيوني كامتداد للامبريالية في عدوانها ضد الشعوب العربية عامة وكآلة للدولة الهادفة الى تصفية الشعب الفلسطيني خاصة سيؤدي لا محالة الى تدمير الكيان الصهيوني. وهكذا، ستفتح مرحلة جديدة في تاريخ الشرق الأوسط، أحد منابع الحضارة البشرية منذ أقدم العصور. ومهما طال وصعب الطريق فان تعايش المسلمين واليهود والمسيحيين داخل فلسطين ديموقراطية مندمجين في شعب فلسطيني موحد سيتحقق على انقاض الكيان الصهيوني.

ان الثورة الفلسطينية تحمل في طياتها أملا مزدوجا لأنها لن تحرر الأمة العربية فقط من وحش الصهيونية المفترس بل ستحرر أيضا يهود فلسطين أنفسهم من هذا الوهم القاتل والانتحاري.

اخوتنا الاعـزاء

ان الثورة الفلسطينية تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، المحاصرة في بيروت من طرف الهمجية الصهيونية والفاشية الكتائبية وبمشاركة الرجعية وعجز البرجوازية العربيتين، تشكل منارا للضمير الفلسطيني والعربي والبشري تحاول الامبريالية وبالخصوص الامريكية منها والصهيونية إطفاءه.

اننا متيقنون تمام اليقين من ان الثورة الفلسطينية ستخرج من المعركة القاسية التي تخوضونها في هذه اللحظات الحرجة أعظم من ذي قبل وأن الانتصار النهائي سيكون حليفا للثورة الفلسطينية والشعوب العربية !

الاخ أبو عمار، اننا كثوريين عرب نطلب منك كقائد عام للقوى الفلسطينية المسلحة أن تعتبرنا جنديين للثورة الفلسطينية مكافحين في سبيل تحرير فلسطين.

ان الشعب الفلسطيني قد نهض ولا يمكن أن يموت ! وانها لثورة حتى النصر !

19 يونيو 1982
عن «البلاغ المغربي»
عدد 29 يوليوز 1982

رسالة من المثقفين العرب إلى الحكام العرب

في جو من الصمت المتآمر وغياب الفعل والاستقلالية القومية والسياسية والمعنوية والعسكرية، واستمرار المهاترات والنزاعات الجانبية والتسميم الاعلامي والقمع الداخلي لكل صوت حر، تجري في لبنان تصفية القضية الفلسطينية ومن ورائها الاستقلال العربي والامال التي ارتبطت به.

ويتعرض الشعبان العربيان اللبناني والفلسطيني في هذا السبيل إلى حرب إبادة وتدمير لامثيل لها دفاعا عن وجودهما وكرامة العرب.

كان من الممكن ولا يزال احباط خطة اسرائيل والولايات المتحدة الامريكية العدو الرئيسي للعرب لو توفرت إرادة القتال لدى الزعماء العرب كما توفرت لدى المقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين وكانت اللحظة مناسبة لكسر إرادة القوة وقهر العدوان.

إن خطورة الوضع اللبناني الفلسطيني العربي عامة لا تسمح بالتردد وهي تشكل امتحانات لكل القيادة العربية اليوم. ولهذا فإن المثقفين العرب إذ يحيون المقاومة الباسلة للشعبين اللبناني والفلسطيني وينحنون إجلالا أمام الشهداء الذين سقطوا بالآلاف على أرض لبنان يؤكدون ما يلي :

أولا : إدانة العدوان الصهيوني الامريكي والمتآمرين معه والضالعين فيه ودعوة جميع ملوك ورؤساء الدول العربية إلى أخذ مسؤوليتهم التاريخية والتدخل فورا وبكل الوسائل العسكرية والاقتصادية والسياسية لحماية المقاومة وصد العدوان عن لبنان والامة العربية.

ثانيا : رفض أية مساومة على مستقبل لبنان والشعب الفلسطيني والتمسك بقرار الانسحاب الفوري وغير المشروط للقوات الصهيونية من الاراضي اللبنانية.

ثالثا : الكف عن استخدام قضية فلسطين والمقاومة في المزايدات الاعلامية والابتزاز في حين يوجه القمع إلى الجماهير المتظاهرة للتعبير عن تضامنها مع المقاومة البطولية في لبنان.

رابعا : القيام باصلاحات جذرية وعاجلة أصبحت اليوم ضرورية أكثر من أي وقت مضى للنظم السياسية العربية في اتجاه توفير حياة ديمقراطية سليمة وجعل الشعب يشارك في تقرير مستقبله ومصيره، وإن الغياب الخطير لهذه المشاركة يشكل اليوم نقطة الضعف الاساسية للعمل العربي ويهدده بكارثة حقيقية ليس العدوان في لبنان إلا أحد معالمها.

خامسا : وقف النزاعات المستشرية بين الدول العربية التي ليس لها من هدف سوى تحقيق مكاسب عابرة لهذا النظام أوذاك على حساب مصالح الشعوب العربية جميعا.

إن المطلوب هو توفير المناخ الملائم لمشاركة كل البلاد العربية والاسلامية في الصراع ضد الغزو الاسرائيلي الامريكي وضد إرادة الهيمنة الاجنبية.

إن المثقفين العرب إذ يدركون ضخامة المعركة ضد العنصرية التوسعية الاسرائيلية وضد إرادة السيطرة الامريكية وأنظمة الاستبداد المتآمرة معها يؤكدون أن تحويل الحرب العدوانية الاسرائيلية الى هزيمة كان ومايزال وسيبقى أمرا ممكنا وهو أيضا ضروري. وهم إذ يضعون الزعماء العرب أمام مسؤولياتهم التاريخية إنما يعملون بوحي من واجبهم الوطني ووجدانهم الانساني ضميرهم الاخلاقي معا.

قائمة التوقيعات، وهي مفتوحة :

التواقيع

مصطفى صفوان (كاتب) ــ نقولا سركيس (خبير بترولي) ــ عبد الرحمن منيف (روائي) ــ أحمد عبد المعطي حجازي (شاعر) ــ مطاع صفدي (كاتب) ــ عبد اللطيف اللعبي (شاعر) ــ عبد الكبير الخطيبي (كاتب) ــ محمد برادة (كاتب) ــ محمد عابد الجابري (كاتب) ــ فتح الله ولعلو (اقتصادي) ــ محمد بنيس (شاعر) ــ محمود أمين العالم (كاتب) ــ سعد زغلول فؤاد (صحفي) ــ لطف الله سليمان (صحفي) ــ بلند الحيدري (شاعر) ــ أديب ديمتري (صحفي) ــ محسن التومي (كاتب) ــ جيروم شاهين (كاتب) ــ ماجد نعمة (كاتب) ــ منير العكش (صحفي) ــ أميرة الزين (شاعرة) ــ بطرس الحلاق (كاتب) ــ فاروق مردم (كاتب) ــ فايز ملص (كاتب) ــ عمر أميرالاي (مخرج سينمائي) ــ عبد الغني أبو العزم (كاتب) ــ برهان غليون (كاتب) ــ عفيف صافية (جامعي) ــ إيلي صنبر (كاتب) ــ علي أومليل (أستاذ جامعي) ــ الباهي محمد (صحفي) ــ انطوان منصور (اقتصادي) ــ الطاهر وطار (روائي) ــ رشيد بوجدرة (روائي) ــ كاتب ياسين (مسرحي) ــ عبد الجبار السحيمي (صحفي) ــ حبيب المالكي (اقتصادي) ــ عبد الكريم برشيد (مسرحي) ــ عواد عبد اللطيف (صحفي) ــ أحمد المديني (روائي) ــ عبد الحكيم قاسم (روائي) ــ عبد الوهاب المؤدب (كاتب) ــ صالح بشير (صحفي) ــ ميشيل كامل ــ محمد بن يحيى (صحفي) ــ عبد القادر الشاوي (كاتب) ــ أحمد لمسيح (شاعر) ــ محمد حميش (كاتب) ــ سعيد علوش (كاتب) ــ مصطفى المسناوي (كاتب) ــ حنون مبارك (أستاذ جامعي) ــ أحمد السطاتي (أستاذ جامعي) ــ نور الدين عبدي (باحث) ــ عبد الغني العلاني (خطاط) ــ نبيل فارس (شاعر) ــ محمد بشير علية (كاتب) ــ دلال الحيدري (رسامة) ــ بدر الدين عرودكي (كاتب) ــ صخر فرزات (رسام) ــ جان دبغي (صحفي) ــ عبد العزيز طولبي (مخرج سينمائي) ــ مصطفى مرجان (صحفي) ــ عبد

الغني بوستة (صحفي) ــ محمد ربيع (اقتصادي) ــ حميدة نعنع (صحفية) ــ ساسي محمد (رسام) ــ محجوب بن بلا (رسام) ــ عبد الحميد التيبوشي (شاعر) ــ قاسي رشيد (رسام) ــ محمد خدة (رسام) ــ أدونيس مارتينز (رسام) ــ أسامة عبد الدايم (رسام) ــ مرزوق علواش (مخرج سينمائي) ــ مبارك بودرقة (صحفي) ــ خليل شميل (ناشر) ــ محمد كلش (مسرحي) ــ بطرس روحانا (مسرحي) ــ مشهور مصطفى (مسرحي) ــ وسام خالد (مسرحي) ــ عبد الرزاق عيد (صحفي) ــ عبد بدرخان (صحفي) ــ حسن منيمنة (صحفي) ــ أيمن عربي كاتبي (أستاذ جامعي) ــ حسن الشامي (شاعر) ــ روبير مشعلاني (صحفي) ــ بشير أوبي (صحفي) ــ رينيه نبعه (صحفي) ــ عدنان زكا (صحفي) ــ طلال طعمه (صحفي) ــ سعود المولى (جامعي) ــ محمد حافظ يعقوب (كاتب) ــ رياض الددا (اقتصادي) ــ عبد الله راجع (شاعر) ــ محمد البكري (كاتب) ــ فاضل يوسف (مسرحي) ــ محمد الزاهري (باحث) ــ عبد الله زريقة (شاعر) ــ عز الدين التازي (كاتب) ــ عبد اللطيف الفؤادي (كاتب) ــ محمد وهبه (جامعي) ــ أولغا النقاش (صحفية) ــ جورج رعد (منتج سينمائي) ــ رودولف القارح (جامعي) ــ شبل السبع (أستاذ جامعي) ــ سليمان علاء الدين (جامعي) ــ عادل الطويل (جامعي) ــ محمد الحبيب الطالبي (صحفي) ــ كومينة محمد نجيب (صحفي) ــ برادة حميمة محمد (صحفي) ــ طليمات عبد الجليل (أستاذ) ــ أحمد تفاسكا (جامعي) ــ محمد الحساوي (جامعي) ــ العربي مفضال (صحفي) ــ طالع السعود الاطلسي (صحفي) ــ محمد برني (صحفي) ــ سعيد يقطين (كاتب) ــ عبد الفاضل الغوالي (أستاذ) ــ بنسالم حبيبي (مفتش) ــ أحمد طليمات (أستاذ) ــ أقضاض محمد (أستاذ) ــ عبد الواحد بلكبير (موظف) ــ لطيفة اجبابدي (مركز التعريب) ــ عبد العزيز طليمات (أستاذ) ــ المهدي العمراني (جامعي)

بيان من اتحاد كتاب المغرب

منذ أكثر من أسبوعين على بداية الغزوة الصهيونية الابادية الموجهة ضد شعب لبنان وضد أبناء الثورة الفلسطينية.. كنا نعرف أن المؤامرات ــ المذبحة هذه المرة، لا يمكن أن تجدي معها البلاغات والبيانات.. كنا نعرف أن العدو الاسرائيلي اختار الظرف الملائم لتنفيذ مخططاته ضد المقاومة الفلسطينية، لانه يعلم جيدا خريطة الاختلافات والتناحرات العربية، ويعلم جيدا حقيقة حسابات الانظمة وعلائقها التواطؤية، وتبرمها من الوجود الفلسطيني الرافض للمساومات والتنازلات.

كنا نعلم ذلك، لكننا كنا نؤمل أن تفتح هذه الحرب الخامسة عيون (الساهرين) على مصالح الامة العربية وعلى كيانها ومقوماتها، فتكون ردود الفعل بداية لجمع الكلمة وإفساح

المجال أمام القوى الشعبية المغيبة وراء أسيجة القمع والوصاية والتصريحات الجوفاء.

إن هذه المأساة ـــ المهزلة التي تعيشها الشعوب العربية الملجمة المحولة، بالرغم منها، الى شخوص متفرجة وسط مسارح صامتة لا يعلو فيها سوى صوت القنابل والرصاص والبكاء، وهدير القصف والدمار.. في مباراة غير متكافئة : صهاينة مدججون بالاسلحة والمساعدات الامريكية ومساندة أجهزة الاعلام الاوروبية. ولبنانيون ـــ فلسطينيون ببنادقهم وإيمانهم بضرورة الدفاع عن حق الانسان العربي الفلسطيني في الوجود واسترجاع أرضه المغتصبة..وحدهم يبادون ويهانون والمائة مليون عربي غائبة أو مغيبة، والانظمة ساكتة متلكئة، فقدت حتى قدرتها على اصطناع الغضب.

لقد اتضحت منذ الساعات الاولى لاعلان الغزو الابادي. نوايا اسرائيل العنصرية أنها لا تستهدف فقط (أبادة) منظمة التحرير الفلسطينية وضرب القوى اللبنانية الوطنية، بل تريد أن (تؤدب) كل العرب ابتداء من قوات الردع، ومرورا بكل الانظمة، ليدرك الجميع أن إسرائيل وحدها القادرة على أن تضع (القانون) والحلول وفق مصالحها ومطامعها التوسعية، ووفق ما يخدم المصالح الامريكية في المنطقة.. بعد هذا الوضوح الصارخ لدى العدو، نستطيع أن ننتحل الاعذار ونوازع في تحديد مصالحنا بوضوح وحسم ؟

عند هذا المستوى. وأمام الوقائع، علينا أن نذكر بأن هذا الانهزام الذي يلحقنا أمام العدو الصهيوني مرده قبل كل شيء الى اختيارات الانظمة العربية الراهنة، إلى ممارساتها، وإلى ابعادها شعوبنا عن المساهمة في القرار والنضال الاستشهاد. كيف يمكنها أن تبرر بعد الآن، أمام الرأي العام العربي، اختيارها الصمت فيما يذبح الفلسطينيون واللبنانيون الوطنيون، وتدمر مدن لبنان ومخيمات اللاجئين، وتدك بيروت ـــ الرئة التي يتنفس منها العربي المقهور ؟

إننا نعرف لا جدوى الكلمات أمام رعب المأساة المحيط بجزء من جسدنا. لكننا لا نريد أن نستسلم للصمت ـــ الموت البطيء، وقد لا يكون وقت التحليل واستخلاص العبر قد حان بعد، إلا أننا نعلن، وذلك أضعف الايمان، أدانتنا لهذا العار المزلزل للكيان، لهذا الصمت المخزي تحتمي به الأنظمة الحريصة على بقائها وعلى استمرار أجهزتها وهياكلها.

نعلن انتسابنا للفعل الفلسطيني ـــ اللبناني المتحدي للنظام العرقي الصهيوني. وللنظام الفاشستي المبيح لدماء الاطفال والابرياء..

نعلن انتماءنا لذلك الموت الذي يتجرعه جزء من أبناء شعبنا الكبير، لانه الموت الذي يصنع غد الشعوب العربية.

18 يونيه 1982 ـــ المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب

الجمعية المغربية لحقوق الانسان

بيـــــان

ان المكتب المركزي للجمعية المغربية لحقوق الانسان وهو يتتبع بكل اهتمام ما يجري من احداث خطيرة على الاراضي اللبنانية يعلن للرأي العام الداخلي والخارجي ما يأتي :

ـ انطلاقا من ايمان الجمعية بالمبادىء الراسخة لحقوق الانسان وحرياته بما في ذلك حقه في حياة حرة كريمة وحق الشعوب في تقرير مصيرها على ارضها واختيار انظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهي المبادىء التي جاءت بها مختلف المواثيق والاعراف الدولية من خلال كفاحات الانسانية عبر التاريخ من اجل تحقيق كرامتها والتي من بينها ما جاء في المادة 3) من الاعلان العالمي لحقوق الانسان التي تقول «لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه» والمادة 1) لكل من الاتفاقيتين الدوليتين اللتين وافقت عليهما الجمعية العمومية للامم المتحدة في 16 /12/ 1966 وهما الاتفاقيتان المتعلقتان بالحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتي جاء فيها بانه «لكافة الشعوب الحق في تقرير المصير ولها استنادا الى هذا الحق ان تقرر بحرية كيانها السياسي وان تواصل بحرية نموها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي...».

واعتبارا لما جاء في القرار رقم ـ 3236 ـ الصادر عن الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة في دورتها 29 بتاريخ 22 نونبر 1974 حول اقرار حقوق الشعب الفلسطيني والذي من جملة ما جاء فيه «حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، وحقه في استعادة حقوقه بكل الوسائل وفقا لمقاصد الامم المتحدة ومبادئه ومناشدة جميع الدول والمنظمات الدولية ان تمد بدعمها الشعب الفلسطيني في كفاحه لاسترداد حقوقه وفقا للميثاق... »ولما جاء في قرار الجمعية العامة في جلستها العامة 2400 بتاريخ 10 نونبر 1975 من «كون الصهيونية شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري».

ـ وتذكيرا لما سبق ان أعلنته الجمعية في مؤتمرها التأسيسي وفي بيانها حول حقوق الانسان من اعتبار الكيان الصهيوني ذا طبيعة عدوانية وانه يتنافى اساسا مع حقوق الانسان ويشكل انتهاكا دائما وسافرا للحقوق الوطنية الثابتة المشروعة للشعب الفلسطيني وشعوب المنطقة.

فان الجمعية لتؤكد بان العدوان الصهيوني الاخير المدعم من قبل الامبريالية الامريكية على الشعبين الفلسطيني واللبناني والذي لازال مستمرا منذ 6 يونيو 1982 والذي استعملت فيه

ـ برا وبحرا وجوا ـ كافة انواع وآلات الفتك والتقتيل والدمار ضد الانسان والمنشآت بما فيها تلك المخصصة للاغراض الانسانية والصحية والاجتماعية والثقافية ـ قد تجاوز حدود خرق حقوق الانسان وحرياته ليصل الى مستوى ابادة الانسان الفلسطيني واللبناني ليس فقط بواسطة الاسلحة الحربية وانما ايضا عن طريق حرب التجويع والظمأ. إننا أمام جرائم ابادة الجنس البشري ـ التي تحرمها وتعاقب عليها المواثيق الدولية ـ تمارسها الصهيونية على الارض اللبنانية بمباركة من الولايات المتحدة الامريكية ـ والتي تستهدف منها الصهيونية إنهاء القضية الفلسطينية وصولا الى تحقيق برامجها ومخططاتها الاستيطانية التوسعية الاستغلالية في الوطن العربي.

ان نوعية وضخامة الحصار الذي يضربه المعتدون الاسرائيليون حول بيروت منذ اكثر من خمسين يوما اذا كان يؤكد من جديد على الطبيعة العدوانية للكيان الصهيوني فهو من جهة اخرى يكشف عن التواطؤ المقصود مع هذا الكيان من قبل حلفائه الامبرياليين، وعن مؤامرات الصمت والتضليل والشائعات المغرضة والبلبلة التي تمارسها بعض الانظمة والهيئات والمنظمات السياسية والاجتماعية والنقابية ازاء العدوان الغادر وعن اكتفاء بعض الانظمة السياسية بالتأييد الكلامي الخجول ذي الحدود المرسومة والضيقة والتي تفرضها الحسابات والمصالح الظرفية.

ان كل ذلك يضع الضمير الانساني امام واجباته ويحمل المنظمات السياسية والاجتماعية والنقابية ـ داخليا وخارجيا ـ كامل مسؤولياتها امام ما يرتكبه الصهاينة من ابادة للشعبين الفلسطيني واللبناني.

ـ ان الجمعية المغربية لحقوق الانسان التي جعلت من بين اهدافها القيام بالفضح والتنديد لجميع الخروق التي تصيب حقوق الانسان والوقوف بجانب ضحايا هذه الخروق كانت وما زالت وبكل تواضع، وفي حدود امكانياتها تجعل من بين اهتماماتها واشتغالاتها وضعية حقوق الانسان الفلسطيني. وفي هذا الاطار سبق لها ان قررت ـ بمعية بعض الجمعيات الوطنية ـ إقامة مهرجان عمومي بالرباط بمناسبة يوم الارض الفلسطينية وذلك بتاريخ 31 /3 /82 ـ الا ان السلطة العمومية منعت المهرجان بالقوة ـ كما سبق لها ان قررت تجمعا تضامنيا بالرباط مع الشعبين الفلسطيني واللبناني يوم 15 يونيو 82 ومرة اخرى يمنع التجمع بالقوة من قبل قوات الشرطة، واتخذت الجمعية ـ بمناسبة مهرجان التضامن مع الشعبين الفلسطيني واللبناني ـ المقام في شهر يونيو / 82 بقاعة سمية مبادرة الدعوة الى التنسيق فيما يخص مساندة الشعبين بين المنظمات الوطنية ذات الاهتمام المشترك ولا زالت تعمل من اجل تحقيق ذلك...

ــ انه من اجل ذلك كله ومن منطلق العمل الملموس، فان الجمعية المغربية لحقوق الانسان تناشد وتطلب وتدعو :
والنقابيةلمواطنين المغاربة الى مساندة الشعبين الفلسطيني واللبناني ماديا ومعنويا بمختلف التبرعات ذات القيم المالية وبالوقوف عمليا بجانب كفاح الشعبين الفلسطيني واللبناني ضد الهجمة الصهيونية الامبريالية، وباستعمال كافة الوسائل الممكنة المشروعة بما في ذلك المساهمة في حد الدفاع الشرعي عن النفس وعن حياة الغير وعن السيادة الوطنية ومشروعية المشاركة في حرب التحرير الوطنية.

2) الحكومة المغربية بعدم عرقلة العمل الجماهيري الذي تقوده المنظمات الوطنية والرامي الى تدعيم كفاح الشعبين الفلسطيني واللبناني في مواجهة العدوان الصهيوني الامبريالي، وبأن تقدم كافة التسهيلات الملموسة التي من شأنها ان تجعل الراغبين في الذهاب الى الاراضي اللبنانية لمساعدة المدافعين ضد العدوان الصهيوني الامبريالي قادرين فعلا على القيام بهذه المهمة.

3) المنظمات والهيئات السياسية والاجتماعية والنقابية إلى تحمل مسؤولياتها في المساندة المادية والمعنوية للشعبين الفلسطيني واللبناني في مقاومتهما للهجمة الشرسة من قبل العدو الصهيوني وحليفه الامريكي.

الرباط في 3 / 8 / 82
المكتـــب المركـــزي

الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني
تعلن عن انشاء «جائزة فلسطين» المغربية

إن الجماهير المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني، وعيا منها بما للعمل الثقافي بجميع مرافقه وأنواعه من أهمية فيما يخص تعميق الوعي بالقضايا الانسانية العامة وبقضية تحرر الشعوب. وانطلاقا من الاهداف التي رسمتها لنفسها بالنسبة لدعم نضال الشعب العربي الفلسطيني المكافح وخدمة هذا النضال بجميع الوسائل والامكانيات، قررت اتخاذ مبادرة جديدة في إطار عملها هذا، وذلك بإنشاء «جائزة فلسطين» المغربية.

أن الهدف الاساسي من خلق هذه الجائزة هو إثارة وتشجيع الاعمال الابداعية والابحاث العلمية المرتبطة بالقضية الفلسطينية والتي من شأنها أن تساهم بشكل فعال في التعريف بهذه القضية وكذلك في تعميق الوعي، وطنيا وعربيا ودوليا، بمجمل أبعادها الثقافية والفكرية والحضارية الانسانية.

وفيما يلي تعريف بهذه الجائزة وبشروطها العامة :

1 ــ الميادين التي ستمنح فيها الجائزة :

أ ــ الجائزة الادبية :

وستمنح لاجود عمل أدبي يتطرق لموضوع فلسطين في الميادين التالية :

ــ القصيدة الشعرية
ــ القصة القصيرة
ــ النص المسرحي

ب ــ الجائزة الفنية :

وستمنح لاجود عمل فني يتطرق لموضوع فلسطين في الميادين التالية :

ــ اللوحة أو الملصقة أو النحت
ــ الاغنية أو القطعة الموسيقية
ــ الفيلم القصير

ج ــ جائزة البحث العلمي :

وستمنح لاجود بحث علمي يخص قضية فلسطين في الميادين التالية :

ــ العلاقات الدولية والقانون الدولي
ــ التاريخ قديما وحديثا وخصوصا الارتباط التاريخي بين المغرب وفلسطين
ــ الاقتصاد.
ــ الثقافة الفلسطينية

2 ــ التنظيم العملي للجائزة :

أ ــ الترشيح : إن باب ترشيح أعمال للفوز بجائزة فلسطين مفتوح أمام جميع المواطنات والمواطنين المغاربة.

ب ــ تاريخ الجائزة : يعلن عن تنظيم الجائزة في غضون شهر مايو من كل سنة وتبعث الاسهامات إلى عنوان الجمعية.

مع هذه الاضافة : «لجنة جائزة فلسطين»، وذلك قبل فاتح أكتوبر وستعلن النتائج خلال شهر دجنبر.

ج ــ لجنة التحكيم : تتكون هذه اللجنة من سبعة أعضاء تعينهم الجمعية من بين أعضائها أو خارجهم حسب المؤهلات والكفاءات.

د ــ المكافآت : ستحدد المكافآت حسب إمكانيات الجمعية وحسب الهبات التي سيقدمها المواطنون المهتمون بهذا المشروع للجمعية.

هـ ــ التعريف بالاعمال الفائزة : تلتزم الجمعية بالتعريف بهذه الاعمال بجميع الوسائل.

إن الجمعية تهيب بجميع المبدعين والمثقفين وكل المناصرين لقضية شعبنا الفلسطيني الباسل للعمل على أنجاح هذا المشروع وذلك ليصبح أداه فعاله لنصرة فلسطين ومظهرا مشرقا من مظاهر وعي الشعب المغربي والتزامه بقضيته القومية المركزية.

اقتـراح ــ دعـوة

وجهت «الثقافة الجديدة» في بداية غشت رسالة تتضمن اقتراحاً ــ دعوة لمجموعة من المثقفين والمجلات المغربية هذا نصها :

الاخوة اعضاء هيئة الادارة وتحرير مجلة :

تحية نضالية عربية،

تتعرض قضيتنا القومية الاولى فلسطين ولبنان، من خلال شعبيهما وحركاتهما الوطنية، لمحاصرة مستديمة وهجوم بلغ أقصى درجات العنف بهدف تصفية الثورة.

ان المثقفين الفلسطينيين واللبنانيين، ومن التحق من بقية البلاد العربية بالجبهة للوقوف الى جانب الشعبين الفلسطيني واللبناني، قد جسدوا في الميدان فاعلية اختياراتهم وارتقوا بجدلية الكلمة ــ الفعل الى مستويات يحق لنا جميعا أن نعتز بها كما هي في الوقت نفسه مقياس لقصور مواقفنا وتعبئتنا واحوالنا.

يجري كل هذا ونحن نتأكد يوميا ان ليس للمقاومين الوطنيين، فلسطينيين ولبنانيين من حليف غير الشعوب، وفي مقدمتها الشعوب العربية وطلائعها، أما الانظمة فمواقفها الصامتة والمستسلمة دليل على رغبتها في الانهاء السريع لقضية لا حل لها خارج انتصارها.

فهل نستطيع ايها الاخوة انجاز عمل ما مهما كان بسيطا في سبيل القضية وفي هذا الظرف بالذات، لانه سيساهم ولو رمزيا في دعم اخواننا وشرفائنا وشهدائنا ؟

ان جواب اخوانكم «بالثقافة الجديدة» لا يمكن ان يكون الا بالايجاب، خصوصا على مستوى التنسيق بيننا وكمثقفين وكمجلات لها مواقعها في الساحة الثقافية المغربية، لهذا الغرض، وبالنظر لهذه الدوافع والمبررات، بادرنا من جهتنا بتوجيه هذا الاقتراح ــ الدعوة لكم ولأسماء مجلات مغربية تجدون (الاسماء أدناه) بغية لقاء مشترك عملي بالاساس نقترح له ان يناقش جدول عمل مصاغ بصيغة برنامج اولي قابل لكل الاحتمالات وهذا هو جدول العمل :

1 ـ اصدار بيان مشترك ينشر في المجلات المشتركة.

2 ـ تنظيم مهرجان خطابي ومعرض مشترك للاعداد السابقة من المجلات (يتفق على الكمية) وللكتب التي يمكن ان يتطوع بها الكتاب المغاربة، ويعود ايراد المعرض لمنظمة التحرير الفلسطينية (نقترح البيضاء أو الرباط أو هما معا) وينظم معرض لصور الغزو الاسرائيلي ضمن هذا المعرض.

3 ـ اصدار كتاب بعنوان فلسطين نساهم جميعا في تمويله، وننظم له من بيننا لجنتين للاشراف على انجازه واصداره، على ان يعرض للبيع في اسرع وقت ممكن وباثمنة رمزية يعود مردودها للمنظمة.

4 ـ بعث عضوين الى المنطقة تعبيرا عن مساندتنا للقوات المشتركة، وللتعرف على احوال المثقفين هناك.

في 2 ـ 8 ـ 1982
عن الثقافة الجديدة

1 ـ المجلات المدعوة للقاء

المبادىء	
المشروع	الزمن المغربي
آفـاق	الجسـور
لا	البديل
أقـلام	المقدمة

2 ـ الاشخاص المدعوون.

ـ الاستاذ عبد الله العروي
ـ الاستاذ عبد الكبير الخطيبي
ـ الاستاذ علي أومليل
ـ الاستاذ عبد اللطيف اللعبي
ـ طالب محمد الحبيب
ـ محمد القاسمي
ـ عبد الصمد بلكبير

ملاحظـــة :

كانت العطلة الصيفية حائلا دون الاتصال بجميع من وجهت لهم الدعوة، ولم يمنع هذا العائق من حصول اجتماع في تاريخ 17 — 8 — 1982 بمقر الجمعية المغربية لحقوق الانسان، حضره حميد عقار (مجلة الجسور)، عبد اللطيف اللعبي، عبد الكبير الخطيبي، علي أومليل، محمد القاسمي، عبد الصمد بلكبير، ومحمد بنيس، (الثقافة الجديدة).

وقد تم الاتفاق على عقد اجتماع آخر في 13 — 9 — 82 بمقر الجمعية نفسها، وتوسيع لائحة المدعويين التي أصبحت تضم كلا من **محمد الجابري، والحبيب المالكي، وعبد الجبار السحيمي، وابراهيم أخياط**، كما كلف الحاضرون «الثقافة الجديدة» بالاستمرار في تحضير اللقاء القادم مع تبليغ المدعويين رجاء التفكير في نوعية الكتاب والبيان المقترح اصدارهما وصيغة العمل ذي البعد الاستراتيجي بخصوص الثقافة الفلسطينية.

أحمد أوبلحاج

سلطتان : البادية/المدينة

(مغرب : 1955ـ1960)

البادية المغربية في العصر الحديث

في شروط التبعية التي تتميز باستيلاء الاستعمار على المرافق الحيوية في الاقتصاد كالصناعة والمال والانتاج المعدني، في هذه الشروط يتخلى الاستعمار عن البادية لحلفائه المحليين غالبا لتشكل مجال استغلالهم، غير أن هذه الطبقات الطفيلية تتميز برغبة جامحة في الاثراء بشكل لا يتناسب مع امكانيات محراث عمره عشرة آلاف سنة فتجد نفسها مضطرة من أجل إشباع هذه الرغبة لأن تغرس اظافرها في جسم البادية. وتقود عملية التبادل اللا متكافىء في التجارة الدولية بين الدول الاستعمارية والمستعمرات القديمة لتنعكس بدورها على الوضعية بشكل عميق.

إن البادية في العالم الثالث، الذي تشكل فيه المصدر الرئيسي، للانتاج وتضم القسم الاعظم من السكان، تتحول في ظل التبعية الاستعمارية الى متنفس للرأسمالية الدولية تلتمس فيه حلولا لأزماتها المتفاقمة، والى مجال للطبقات الطفيلية للاثراء الفاحش، وهذا ما يُفسر صور القهر والفاقة والجهل... التي تكاد تكون ظاهرة ملازمة لهذه البوادي، كنتيجة منطقية لاوضاع التبعية.

ولا تشذ بادية المغرب عن هذه القاعدة العامة. اذ لم تقف الاوضاع المادية في البادية عند الحال الذي كانت عليه قبل 1956، بل مالت، على النقيض، نحو الانحدار والتدهور أكثر، بحيث لا يشكل الانخفاض المستمر للقوة الشرائية للفلاحين، وحرمانهم من الخدمات العامة كالتعليم والتطبيب والكهرباء... الخ غير مؤشرات دالة. إن مصدر الاوضاع السيئة في البادية ليس هيمنة الاستعمار الجديد على مقدرات الامة فقط، بل راجع ايضا وبالاساس الى مشاركة قوى اجتماعية طفيلية للاستعمار في عملية النهب الممنهج. إن الاستعمار الذي كان يشاطره الاقطاع وحده في استغلال البادية قبل (56)، اضاف بعدها حليفا جديداً كان قبل مبعداً بشكل عام هو البورجوازية. ومنذ ذلك الحين شكل هذا الثلاثي ترسانة لاستغلال واضطهاد البادية.

ان تحالف قوى الاستغلال ليس بالامر الجديد في المرحلة الجديدة، فقد تحالف من قبل وعلى امتداد المرحلة الاستعمارية كل من الاستعمار والاقطاع من أجل تحويل البادية الى بُؤرة للاستغلال. لقد استمد هذا التحالف مبرر وجوده من توافق مصالح الاستعمار والمخزن تاريخيا، فقد أبقى الاستعمار لحليفه على بعض الاراضي التي لم تكن له رغبة فيها، بالإضافة الى أن الاستعمار كان في حاجة الى حليف يناصره على ضرب الثورة في البادية، فجسد الاقطاع

في ذاته بعدائه للامة مواصفات هذا الحليف وقد انعكس هذا التحالف المصلحي في البنية الفوقية للطرفين التي اتخذت صورة تعايش بين جهازيهما الاداري في البادية. اما كيف استطاع الطرفان حل التناقض بينهما باستمرار والحيلولة دون أن يؤدي الى التفكك حتى سنة (56) فهذا موضوع يحتاج الى دراسة مستقلة، ومع ذلك يمكن الاشارة بصفة عامة الى الدور الخاص الذي لعبته الحركات الشعبية التي كانت تهدد مصالح الطرفين معا، في الحفاظ للتحالف على تماسكه النسبي على امتداد المرحلة الاستعمارية.

ولم يكلف التحالف نفسه مشقة تبرير هذا الازدواج الغريب، بحيث كان واضحا ان البادية تابعة لادارتين، وعليها أن تخضع بالتالي لاستغلال مضاعف، على العكس من المدينة التي كان تناسب هذا الازدواج فيها يميل بصورة قوية لصالح الادارة الاستعمارية. هل كانت المرحلة الاستعمارية شيئا آخر غير تراكم للاستغلال؟ وهل تعني المرحلة الجديدة غير زيادة في هذا التراكم ؟ لقد عدلت المرحلة الجديدة من صيغة واطراف تحالف الامس، فبدل التحالف القديم الذي اتخذت منه البورجوازية، بسبب اقصائها من اقتسام الغنيمة، موقف المُعارضَةِ، تشكَّل تحالفٌ جديد يُفردُ لها مكانا، ويعترف لها بنصيب في العملية الاستغلالية، وهذا هو السبب في مؤامرة الصمت التي ضربت على ما جرى في البادية (سنوات 56 ــ 59) وهو ما يفسر لنا حرص الاطراف على تجميد تناقضاتهم فيها. وتجدر الاشارة الى أن التحالف لم يكن بامكانه أن يطلق يده في البادية بمثل تلك الحرية، لولا نجاحه في تكميم أفواه الطبقة العاملة في المدينة، وضمان حيادها بفضل ارصاعات مادية تساهم في تثبيت الوضع الاستعماري الجديد، فضلا عن أن المخزن لم يخسر مقابلها شيئا، فلكي يتم احكام الطوق على البادية لابد من مهادنة الطبقة العاملة وإلا فقد كان بمقدور العمال أن يفسدوا أي خطة ترمي الى عزلهم عن حلفائهم الموضوعيين، اي الفلاحين، لقد كشفت قيادة الاتحاد المغربي للشغل (أ.م.ش)، بقبولها مبدأ المساومة مع التحالف، عن مواقف مغرقة في الانتهازية وعن حنكة لا تضاهى في تضليل الطبقة العاملة مؤقتا، بتحويل انظار العمال عن قضاياهم الوطنية والمصيرية.

هكذا جاءت المرحلة الجديدة مخيبة لامال الجماهير، لا لترفع كابوس الاستعمال عن كاهلها وانما على العكس من ذلك، لتوسعه وتمنهجه وتزيد من وطأته.

بعد أن احتلت الجيوش الاستعمارية، منذ أوائل القرن بعض المدن الشاطئية والمتاخمة واتخذتها مراكز لتسيير عملياتها العسكرية، بدأت تتحرك داخليا لتحقيق مزيد من التوسع فاصطدمت بمقاومة البوادي، ورغم ضعف وسائل المقاومة لدى الفلاحين فقد هبوا للتصدي للهجوم العسكري الاستعماري بروح معنوية عالية، واذا كان الاستعمار لم يجد المقاومة الحازمة من قبل بعض المدن التي أخضعت بسرعة فانه وجد في البادية الصخرة التي لا تلين: تضامن وتكاتف شعبي لمقاومة الغزو وروح نضالية عالية. لذلك عمد الاستعمار الى استخدام كل

الاساليب الوحشية ضدها ليحطم صمودها، لكن بقدر ما تصاعدت شراسة الهجمة بقدر ما ازدادت مقاومة الفلاحين صلابة، ولم تكن الحملة لتخضع منطقة الا و تجد نفسها امام مقاومة أشد وأعنف في المنطقة التالية، وهكذا خاضت البادية حرب استنزاف ضدا على العدو فرضت عليه دفع ثمن باهض مقابل كل تقدم صغير يُحرزه، ونبهت الشعب الفرنسي الى ما تلحقه المغامرة العسكرية الفرنسية في المغرب من أضرار بالفائض الاقتصادي المستخلص من عرق الكادحين الفرنسيين، ولم تكن هزيمة حملة الاطلس في خنيفرة غير واحدة من الانتصارات التي أثبتت قدرة جماهير الفلاحين على الحاق الهزيمة بالعدو ولو بوسائل دفاعية بسيطة ان لم تكن بدائية. اما الحملة الاسبانية على الشمال فقد وقفت عاجزة لاتطيق حراكا امام فلاحي منطقة الريف ـــ اجبالة، ولم تحصد من محاولاتها اليائسة لاخضاع المنطقة غير الهزائم التي كان لها صدى دولي، فضلا عن تأثيرها المباشر في تفجير الوضع الداخلي باسبانيا، ولولا أن هرع الاستعمار الفرنسي لنجدة حليفه من المأزق الحرج لرجح ميزان القوى نهائيا في المغرب كله لصالح الثورة، لقد فُرض على فلاحي الشمال أن يخوضوا حربا غير متكافئة تحالفت فيها جيوش امبرياليتين و استعملت فيها كل ادوات الدمار التي اثبتت للاستعمار أن الطريق الى البادية ليست سهلة. ولم تسكن المدافع في الريف لبضع سنوات الا لتتجه الى الجنوب حيث شنت جبال الاطلس الصغير والصحراء حرب مقاومة شعبية استطاعت أن تجمد آلة الحرب الاستعمارية لفترة غير وجيزة، وبسقوط جبل صغرو آخر قلعة للمقاومة في سنة 1934، تمكن الاستعمار في الاخير من أن يخضع البلاد ولكن بعد أن كلفته الحرب أزيد من ربع قرن لم ينعم فيها بطعم الراحة.

وبعد (1934) دخلت البادية في مرحلة من الهدوء النسبي جاء معها دور المدن التي تميزت ببروز ونمو «الحركة الوطنية» التي قادتها البورجوازية المغربية، وفي الوقت الذي استنفذت فيه مرحلة الاحتجاج المدينية كل امكانياتها، وطرح اختيار المقاومة المسلحة من جديد، بدأت تتشكل خلايا للمقاومة من العناصر القاعدية لحزب الاستقلال وباستقلال عنه، ولم تسر المقاومة في هذا الدرب طويلا حتى أحست بالاختناق، وأصبح واضحا انها لن تستطيع الاستمرار بدون مشاركة البادية. لقد شكلت البادية الذراع اليمنى بالنسبة للمدينة، فكما أنه لا يمكن تصور محارب بذراع واحدة كذلك لم يكن من الممكن للمدينة أن تستمر بدون ذراعها الثانية (أي البادية)، فقررت المقاومة فتح جبهة البادية وذلك بنقل بعض خلاياها إليها لتأسيس جيش التحرير، ومنذ (1953)، وبعد تأسيس جيش التحرير، شكلت البادية حجر الزاوية في المقاومة. وهكذا وجد نضال المدينة نفسه، لكي يخرج من الطوق مضطرا للانفتاح على البادية وربط مصيره بها، وطيلة هذه الفترة أبدت جماهير البادية استعدادها للسير في طريق التحرير حتى النهاية، وتحمل كل التضحيات التي يفرضها هذا الاختيار، وقد قدمت نماذج رائعة من التضحية ، ليست احداث وادي زم (1955) التي سقط فيها (5000) خمسة آلاف شهيد غير واحد منها.

أخذت الازمة العامة التي بات النظام الاستعماري يتخبط فيها منذ نهاية الحرب الكبرى الثانية، تتفاقم بصورة لم يسبق لها مثيل، نتيجة النهوض الجماهيري العارم الذي بدأ يجتاح المستعمرات ويهدد الوجود الاستعماري في الصميم، ونتيجة امتداد التناقض داخل الامبرياليات بين اتجاهين في الاستعمار القديم والجديد.

أما في المغرب فقد اخذت الازمة تنعكس على النظام الاستعماري في صورة انحلال أصاب سلطتي الاستعمار والاقطاع، وبدأت اعراض هذا الانحلال تتفاقم بالخصوص مع السنوات الاولى من الخمسينيات، ومقابل هذا الكسوف في السلطة الاستعمارية وبموازاة جدلية معه انبثقت في الجهة الاخرى براعم سلطة جديدة أخذت تشق طريقها كبديل للسلطة الاقطاعية من خلال زحزحتها اياها، وارغامها على التراجع. لقد بدأت السلطة الاستعمارية تنحسر أمام المد الشعبي فأخذت النواة الجديدة تبني سلطتها مكان السلطة القديمة مستفيدة من: الطاقات الثورية للجماهير الكادحة التي عقدت العزم على التخلص من النير الاستعماري، ومن تناقضات الامبرياليات، وعلى النقيض من وضعية الاستعمار المتأزمة، أصبح عامل الزمن يلعب دوراً ايجابيا لا في تصليب الحركة وتنمية خبرتها وإكسابها مزيداً من الفهم الصحيح للواقع الذي تتحرك على أرضه فحسب ، بل وفي تشكيل ملامح المستقبل كذلك. لكن الاستعمار لم يمهل الحركة، ولم يدعها تستفيد من تحويل عنصر الزمن الى سلاح تستخدمه ضده، فبادر الى سرقته من يدها في الوقت الذي كانت في أمس الحاجة اليه، وفاجأها بمناورة (1956) التي كان لها وقع الصاعقة، فاربكت مسيرتها ووضعتها أمام تحديات لم تكن قد تهيأت بعد لمواجهتها وعجزت عن استيعابها والرد عليها، فاثر ذلك بشكل سلبي على نموها، وهكذا اجهضت المقاومة المسلحة واجضهت معها الحركة الشعبية التي كانت تشهد نمواً متعاظما، ومنحت مناورة (1956) فرصة للاستعمار وحليفه لالتقاط أنفاسهما والانتعاش من جديد وهيأت للاستعمار شروط اعادة ترتيب اوضاعه للدخول في شوط جديد، بعد أن غير اساليب سيطرته وطرق استغلاله بشكل كبير، وفتح بذلك عهداً جديداً من الهيمنة والتحكم ملقيا على كاهل الامة تحديات ومهمات جديدة.

ويجب الا ننسى ان المناورة لم تكن لتكتسي كل مظاهر الضخامة تلك، لولا تواطؤ اطراف متعددة من استعمار وبورجوازية واقطاع على نسج خيوطها. ان البورجوازية التي قادت بالامس حركة النضال الوطني في المدن خاصة ضدا على الاستعمار طيلة عقود من الزمن قد ارتدت عن مواقعها الوطنية واختارت من أجل تحقيق مصالحها طريق المساومة مع الاستعمار، وشكلت منذ ذلك الوقت طرفاً في التحالف الثلاثي الرجعي للمشاركة في اقتسام الغنيمة. ولا يمكن لهذه الردة الوطنية أن تجد تفسيرها خارج الواقع الاقتصادي الاجتماعي الذي استمدت منه موقف المعارضة للاستعمار، وتستمد منه اليوم موقف المهادنة والمساومة، لقد كانت مصلحتها لا تجد تحقيقها كاملا في المشروع الاستعماري القديم ولذلك ظلت تمارس عليه

صنوف الضغط ليفسح لها مزيداً من المجال، أما اليوم فان المشروع الاستعماري الجديد أصبح قادراً نسبيا على استيعاب هذه المصلحة وإزالة بعض الغبن الذي لحقها، بالاخص وأنها بمسايرتها للمد الشعبي ستخسر كل شيء، وشبيه بهذا موقف البورجوازية الصغيرة في المانيا (1849) حيث يصفها انجلز بقوله «ألم يكن من المنتظر منهم أن يخاطروا بـ «الحياة والملكية» كما كانوا يقولون لاجل قضية الانتفاضة؟ ألم يكونوا مجبرين على تسلم مواقع مسؤولة في الانتفاضة والتي وفقا لها خاطروا في حال الهزيمة بخسارة رأسمالهم؟ وفي حال الانتصار، ألم يكونوا واثقين من أنهم سيطردون من مراكزهم في الحال وأن يشاهدوا كامل سياستهم تتحطم على يد البروليتاريين المنتصرين الذين كانوا يشكلون القسم الاساسي من جيشهم المقاتل؟ وهكذا لوقوعها بين نارين، لم تستطيع البورجوازية الصغيرة أن تستخدم سلطتها الا لترك الامور تسير نحو الاسوأ، وهذا ما أفقدها حظها الضئيل في النجاح، ودمر الانتفاضة كليا، لقد كان تكتيكها، أو بالاحرى افتقارها الى التكتيك في كل مكان مماثلا لنفسه ولذا فان انتفاضة مايو 1849 في كل انحاء البلاد قد فصلت على نفس النموذج» (الثورة والثورة المضادة ص 150) لذلك لم تتردد البورجوازية امام التبدل الطارىء في أن تغير مواقفها لتنسجم مع المصلحة الجديدة حيث لم يعد ما يبرر استمرار موقف الامس.

إن تراجع البورجوازية هذا عموما لم يكن ليكتسي ذلك الحجم الضخم، ويؤثر تأثيراً سلبيا خطيرا على جيش التحرير لو توفر لهذه الحركة الاطار والتوجيه الصحيحان. لقد شكل جيش التحرير طليعة هذه الحركة، وجسد منذ البدء في اختياره للكفاح المسلح، الاسلوب الثوري الصحيح الكفيل بالسير بالامة على درب تحررها، واعطت تجربته، رغم قصر عمرها، فرصة للامة، للاطلال على شكل ومضمون تحررها بعيداً عن الادعاءات البورجوازية في امكانية ارغام الاستعمار على التراجع باستعمال اساليب الضغط والاحتجاج فقط، كاشفة بالملموس زيف هذه الادعاءات. لكن مناورة (56) جاءت لتجهض هذه الحركة قبل أن يشتد عودها. لقد انتبه الاستعمار الى التهديد الذي تشكله على مصالحه فأسرع بطبخ المعاهدة، وتشييد صرح التحالف البورجوازي الاقطاعي الرجعي تحت رعايته لينهض بدور الحارس لمصالحه، وليشكل ايضا وبالاساس سداً في وجه جيش التحرير والمقاومة، يبعد عنه خطر الاجتثاث الذي أصبح يتهدده مع بروز تنامي هذه الحركة في زمن وجيز جداً. لقد جسد الحفاظ على السلطة، واعادة بنائها حتى تنسجم مع شروط الوضع الجديد، التناقض الرئيس الذي كان يعيشه التحالف طيلة الثلاث سنوات الاولى من الاستقلال.

إن السمة البارزة التي طبعت الاوضاع في البادية منذ 1956، هي ازدواج السلطة: فقد استطاعت الامة قبل (56) تنمية وتوسيع سلطتها حتى جاءت دولة الاستعمار الجديد لتعلن الحرب على هذه السلطة مستهدفة تصفيتها. لقد كان التناقض إذا بين شكلين للسلطة، الشكل الذي مارسته الجماهير وتشبثت به وهو الادارة الذاتية، والشكل المركزي التسلطي،

للدولة الجديدة، وقد كان التناقض الرئيسي والمتحرك طيلة الثلاث سنوات التي كان فيها ميزان القوى بين الدولة والجماهير في حالة مد وجزر قبل أن يحسم نهائيا لصالح الدولة، اما التناقضات الاخرى التي طفحت بها البادية والتي كانت تدفع بها وتساهم في تعميق التناقض الرئيسي فيها فهي:

1 ــ مشكلة الملكية:

ارتبطت مشكلة الملكية في البادية تاريخيا، بالاستعمار الذي لم يكن دخوله يعني غير دخول علاقات ملكية جديدة، وفعلا انخرطت العلاقات الوافدة في صراع ضد العلاقات القديمة، هذه العلاقات التي كانت تعتمد أساسا على التملك الجماعي والى جانبها بعض اشكال التملك الفردي الهامشية. ونظرا الى أن العلاقات الجديدة هي وليدة الشروط الرأسمالية المتقدمة فقد كان انتصارها أمراً حتميا على علاقات تستند الى وسائل انتاج تنتمي الى عصور ما قبل الرأسمالية رغم جماعيتها التي كانت تشكل لها عنصر قوة، ولقد نتج عن هذا الانتصار تفتيت علاقات التملك الجماعي التي ظلت ترمز الى كل معاني التضامن والتعاون بين جماهير البادية، وترتب عن هذا التفتيت توسع نمطين من الملكية:

أ ــ الملكية الفردية الرأسمالية التي استفاد منها المعمرون أساسا في استيلائهم على الاراضي الخصبة، وبنائهم للمزارع الحديثة بها المعتمدة على الوسائل الانتاجية المتقدمة، ولقد بلغ مقدار الأراضي التي كانت من حوزة هؤلاء والدولة أكثر من مليون هكتار.

ب ــ الملكية الاقطاعية التي عرفت توسعا في اطار التحالف الاستعماري الاقطاعي حيث لم يجد الاستعمار حرجا في أن يكون بعض ثمن هذا التحالف مزيداً من ذلك التوسع، خاصة اذا تعلق الامر بالاراضي التي لم يكن يرغب فيها الاستعمار، بل على العكس يمكن أن يفيده هذا التوسع سياسيا لانه يربط قسما من الجماهير بارادة المخزن، ويجعلها تحت مراقبته الدائمة. اما لماذا انصب اهتمام الاستعمار على الارض أساسا قبل غيرها، ولماذا شغله مشكل الملكية حتى درجة اصداره مجموعة من أولى ما شرع من قوانين في فترات متفاوتة تستهدف جميعا الغاء علاقة التملك الجماعي، واقامة علاقات التملك الفردي على انقاضها؟ فهذا راجع الى شروط المرحلة التي من أهم مميزاتها: استمرار ارتباط الرأسمالية بالارض كمصدر أساس لتجميع رأسمال، إذ استمرت الفلاحة تلعب هذا الدور في وقت لم تكن الصناعة قد شهدت بعد انطلاقتها في المغرب. وفي مرحلة الاستعمار الاولى كان الاتجاه الى الانتاج الفلاحي والمعدني هو الاساس، وحتى عندما بدأ الاستعمار يتجه نحو الصناعة بشكل قوى قبيل الحرب الكبرى الثانية، فان الارض احتفظت مع ذلك بمكانتها في المشروع الاستثماري، وقد كان توسع ملكية المعمرين دائما على حساب مالكيها من المواطنين الذين تحولوا الى عمال زراعيين أو الى بروليتاريا تبيع قوة عملها في المدن. وورثت مرحلة الاستعمار الجديد هذه

الوضعية بكل سلبياتها واستمر مشكل الملكية قائما، واضيف الى المعمرين القدامى، معمرين جدداً استعملوا نفس اساليب اساتذتهم للاستحواذ على اراضي الفلاحين، او عبر طريق التفويت.

2 ــ المغرب النافع وغير النافع:

من النادر أن تجد بلداً رأسماليا تخضع عملية التطور في أقاليمه المختلفة لنغمة واحدة، بل إن القانون الذي يحكم هذه المجتمعات هو التطور اللامتوازن، تعرف فيه بعض الاقاليم نمواً سريعا بل ومذهلا في بعض الاحيان، في حين تتطور باقي الاقاليم ببطء وتعثر في الغالب. إن هذه الوضعية الشاذة تطرح المفهوم الذي ياخذه **الوطن** عند الرأسمالية، انها لا ترى فيه الا تلك الاقاليم المحظوظة التي تمكنها بسبب غناها من تنمية ارباحها، اما الاجزاء الفقيرة التي لا تتوفر على امكانيات مادية وفيرة، فان نصيبها من الرأسمالية يكون هو الاهمال، ولاتشكل في نظر الرأسمالي ــ مادامت كذلك ــ جزءا من«الوطن». إن الرأسمالي حين يتكلم عن (الوطن) لايقصد في الحقيقة الا اجزاء معينة منه، هي تلك التي تستطيع،اذا استثمر فيها رأسماله، أن تدر عليه ارباحا طائلة، وبذلك يتحول التقدم الذي تعرفه بعض الاقاليم في ظل الرأسمالية الى تقهقر في الاقاليم الاخرى،

اما الطبقة العاملة،ومعها بقية الشعب، فان الوطن عندها لايناله هذا التمزيق، بل ينظر اليه كوحدة لاتتجزأ، بعيدا عن أي تقييم ربحي ضيق يؤدي الى تمييز الأقاليم الغنية عن اختها الفقيرة. فهذا التناقض يجد حله الصحيح في البرنامج العمالي الذي يحرص على أن تسير عملية التنمية بشكل متكافيء،يلعب فيها الاقليم الغني دوراً في الاسراع بتنمية الفقير، وهذه النظرة التكاملية هي التي تعطي لعملية التنمية الاشتراكية بعدها الاجتماعي الذي تفتقده في المشروع الاستعماري.

أما في مجتمع مستعمر، فان قانون التطور اللا متكافيء يصبح أكثر شفافية، ذلك أن الرأسمالي في وطنه القومي يحاول أن يحقق على الاقل، نسبة ولو ضئيلة من التكافؤ، اما وهو في بلد «غير متمدن» فلا يهمه الا نهب خيراته. ففي مناطق غنية بالمعادن مثلا يهتم الاستعمار ببناء الطرق والمرافيء... وادخال الكهرباء واحداث المباني... الخ لتسهيل عملية الاستغلال، أما في الاقاليم الفقيرة فلا يحدث شيء من هذا اطلاقا، ولا يهتم الاستعمار بتغيير أي شيء من واقعها، لقد ظلت، مثلا، مناطق جبلية في المغرب مجهولة من طرف الاستعمار، ويمكن التمثيل على التفاوت الخيالي الذي حدثته المرحلة الاستعمارية بين مدن وسهول الغرب من جهة والمناطق الجنوبية أو الشمالية من ناحية أخرى، ففيما كانت عملية البناء والتشييد تجري في المنطقة الاولى، ظلت مرافق الحياة في الجنوب والشمال على ما كانت عليه من أساليب بدائية في الانتاج والتبادل والنقل، ولقد لعبت هذه الاقاليم الفقيرة دوراً طليعيا في النضال الوطني، ولم

توقف لحظة عن مناهضة الاستعمار، وحين انطلقت حركة جيش التحرير شكلت هذه المناطق الرافد الاساسي لها، ولما حلت المرحلة الاستعمارية الجديدة ازدادت ملامح التفاوت بروزاً، فمع التوسع الهائل والممنهج الذي ميز المرحلة في نهب خيرات البلاد المعدنية منها والزراعية. ازدادت بعض الاقاليم غنى ودينامية، أو ظهرت الى الوجود مراكز مدنية جديدة، ولا أدل على ذلك اكثر من الدور الاستقطابي الاستحواذي الذي اصبحت تلعبه الدار البيضاء في العملية الانتاجية لمجموع البلاد، بينما بقيت مناطق بأتمها مبعدة لا تلعب في هذه العملية غير دور هامشي. لقد كانت النتائج الاولى لهذه الوضعية عقب الاستقلال مباشرة، تلك الهبات الشعبية التي كانت الاقاليم الافقر مسرحا لها، فقد ثارت منطقة والماس في الاطلس المتوسط والتحقت بها مناطق من تازة واستمرت انتفاضتهما دون أن تقوى الدولة على قمعها وفي نفس الوقت، أي في أواخر (1958) اندلعت حركة الريف بكل زخمها الشعبي، ولم يهدأ أقليم وجدة لحظة، الشيء الذي كان يثير قلق الاستعمار. وثار القائد البشير في بني ملال. أما في الجنوب فقد اعلنت الريش العصيان، واستغل عدى أوبيهي الشرط الثوري عند سكان ورزازات في حركته المسرحية واعتصم الشافعي بالجبال قرب مراكش.

هل يمكن القول إن التناقض بين المغرب النافع وغير النافع قد امحى بعد أن استقرت الاوضاع نسبيا لصالح السلطة ؟ هذا ما يمكن أن يوحي به ظاهر الأشياء. أما حقيقة الامر فهي أن التفاوت الصارخ الذي أمسى يميز أوضاع الاقاليم، والناجم عن عملية النهب المفرط لخيرات البلاد، والتمييز بين الاقاليم، لن يتوقف عن ممارسة فعله، بل سيزيد الوضع تأزما، وإذا ما أصبحت انتفاضات السنوات الاولى من الاستقلال غير ممكنة التكرار بنفس الملامح في شروط الوضع الراهن، فإن هذه الاقاليم المنتفضة بالامس، أصبحت تشكل اليوم رأس الرمح من واقع الصراع الطبقي الذي تخوضه جماهير المغرب ضد شروط التبعية الاستعمارية.

3 ــ شمال وجنوب :

إن من جملة المعضلات التي خلفتها المرحلة الاستعمارية، معضلة التفاوت في درجة النمو الاقتصادي بين الشمال والجنوب، ومهما حاولنا التماس مبرر لهذا التفاوت من غنى الامكانيات الطبيعية التي تميز الجنوب عن الشمال، فإن هذا المبرر يبقى جزئيا رغم وجود ما يرجحه في الواقع الموضوعي، ذلك لان تفاقم التفاوت، بالاساس، يرجع إلى أسباب تاريخية جعلت المنطقتين تنفصلان عن بعضهما وترتبط كل منهماً بإحدى الدولتين الاستعماريتين : فرنسا واسبانيا حوالي نصف قرن.

لقد كان المغرب مطمع عدد من الدول الاستعمارية، خلت تناقضاتها فيما بعد بانتهاء المغرب نصيبا لفرنسا واسبانيا، ولما كانت العلاقات اللامتساوية الناجمة عن التطور اللامتكافيء هي السائدة بين الرأسماليات فيما بينها، فقد كان طبيعيا أن تستأثر فرنسا بالمنطقة الخصبة على حساب اسبانيا الضعيفة. غير أن الذي يحصد النتائج السلبية لهذه (اللامساواة) هو المغرب، فقد عجز الاستعمار الاسباني عن إحداث أي تحول يذكر في البنيات الاقتصادية

والاجتماعية للمنطقة، نظرا لتخلفّ التكنولوجي وضعف امكانياته المادية، وبدل أن يشكل دخوله عنصر صرح لهذه البنيات وللعلاقات القائمة عليها وجد نفسه مرغما على الابقاء عليها والتعايش معها في أساسياتها ومن ثم فليس من قبيل المصادفة أن يشكل الشمال الفقير المركز الاساسي لتواجد جيش التحرير، فبالاضافة إلى الدور البارز الذي لعبته تناقضات الامبرياليات في الاسراع بنمو وتعاظم الكفاح الوطني، شكلت أوضاع المنطقة مناخاً ملائماً هيأها لتحتل موقعا طليعيا في الكفاح المسلح ضد الاستعمار. أما في المنطقة الجنوبية فقد حدث عكس ذلك تماما، إذ استطاع الاستعمار الفرنسي، بحكم مستواه التكنولوجي المتطور، والخلفية المادية والحضارية الضخمة التي يستند إليها أن يقلب كثيرا من البنيات والعلاقات التقليدية ويفرض بدلها بالاساليب التقنية الحديثة بنيات وعلاقات جديدة، لاستغلال الطاقات والموارد والسوق، ويشيع فضلا عن ذلك نمط حياته وقيمه الثقافية.

ولما جاءت سنة (1956) وجد المغرب نفسه وجها لوجه أمام هذا الارث : جنوب متقدم نسبيا يستخدم الطرق التقنية الحديثة في الانتاج ويتوفر على بنية تحتية مهمة؛ وشمال فقير ومتخلف لم ينل من المرحلة الاستعمارية غير حظ متواضع جداً من هذه التقنية. فما السبيل لحل المشكل ؟ إن المغرب الذي نهج الطريق الرأسمالي ليس عاجزاً عن حل المشكل وحسب، (إذ كيف يمكن لرأسماليتنا أن تحل تناقضا هي نتيجته ؟) بل الادهى أن وضعية التفاوت لم تزد على يدها إلا تفاحشاً، إن الدور الذي لعبه الاستعمار في تكريس هذا الاختلال، قد ذهبت فيه مغرب ما بعد 56 شوطاً بعيداً. أخذ في بعض مظاهره ما يشبه استعمار الجنوب للشمال.

4 ـ المدينة /البادية :

مع دخول الاستعمار ازداد التناقض بين أوضاع المدينة والبادية حدة فبعد أن كانت البورجوازية المغربية في أواخر القرن التاسع عشر 19 تتلمس طريق نهضتها وتحاول الخروج من شرنقة المدينة وربط البادية بمصالحها أكثر فاكثر، فاجأها الاستعمار بهجوم مشروعه الاقتصادي المتفوق الذي أحال طموحاتها إلى دخان، وحكم عليها بالتبعية له، وهكذا انتكست البورجوازية ووجدت نفسها مرغمة على التكيف مع شروط النظام الاستعماري، ومن أبرز مظاهر هذا التكيف الانكماش الذي فرض عليها حتى تتلاءم مع المصالح الاقتصادية للاستعمار، ومنذ ذلك الوقت ازدادت عزلة البادية سياسيا عن المدينة، وانكمشت كل منها على نفسها وحرص الاستعمار على تكريس هذه الوضعية، فحافظ على نقاط المراقبة على مداخل المدن، وقلل إلى درجة كبيرة من فرص الاتصال السياسي بين المدينة والبادية، وقد ازدادت هذه الاجراءات شدة طيلة فترة المقاومة الباسلة، التي واجهت بها البوادي الجيش الاستعماري خوفاً من تسرب اخبار العمليات العسكرية الذي قد يؤدى إلى انتفاضة المدن تضامنا مع البادية. ولم يتوقف الحصار السياسي المضروب حتى مع سكوت المدافع (1935) بل استمرت حالة الحصار هذه طيلة الفترة الاستعمارية بكاملها.

أما على الصعيد الاقتصادي فقد عرفت العلاقات بينهما توسعاً شكلت فيه البادية سوقا رائجة يصرف فيها الاستعمار سلعه، ومصدراً للطاقة البشرية التي يحتاجها للصناعة في مدن المغرب والمركز. ولقد انعكست هذه الوضعية على البادية بالخصوص، بشكل خطير، فلم تنته المرحلة الاستعمارية حتى تحولت إلى كيان محطم وشائخ اقتصاديا واجتماعيا، أما المدينة فكانت محنتها بالقياس إلى ما عانته البادية أقل بكثير.

ونظرا إلى أن البادية كانت ضحية اضطهاد مزدوج شارك فيه الاقطاع إلى جانب الاستعمار ومنذ، المرحلة الاستعمارية، انحصر نشاط البورجوازية المغربية في المجالات التي كان الاستعمار يسمح لها بها داخل نطاق المدينة، الشيء الذي جعلها تعرف تحولات اقتصادية واجتماعية وتصيب بنتيجة ذلك حظا من الخدمات العامة، ومقابل هذا الانتعاش في المدينة ظلت البادية ترسف في أغلال الاضطهاد والفاقة والجهل. فماذا حدث في مرحلة الاستعمار الجديد ؟

ازدادت الهوة بين المدينة والبادية عمقا فقد عكفت الدولة على حل نسبي لمشاكل المدينة فشيدت المدراس والمستشفيات وأصبح ساكن المدينة يتمتع بعدد من «الامتيازات» بالمقارنة مع البادية، وقد لعبت البورجوازية المتمركزة بالمدن بخبرتها دوراً بارزاً في الدفع بحركة التغيير في المدينة خطوات. أما البادية فلم يمسها شيء من هذا كله، ولولا مبادرة جماهيرها في حملة مشاريعها الجماعية كبناء الطرق والتشجير وبالخصوص حملة بناء المدارس وإلحاحها في طلب المدرسين، لظلت في جهل أكثر مما هي عليه، وكيف يمكن للدولة أن تبني المدارس لها، وهي التي عملت فيما بعد على انتزاع هذا المكسب من الجماهير بعد أن تبدلت الظروف لصالحها. إن البورجوازية التي ظلت مشروطة بنشاطها في المدينة، لم تقم بأي دور من أجل تغيير شروط التخلف في البادية، وإن قبولها تقمص الدور الذي حددته لها المرحلة الجديدة قد ساهم في تعميق الهوة بين المدينة والبادية التي لم تزدد مع مر الايام الا تفاقما، الشيء الذي يؤكد أن أي محاولة للتخفيف من حدة هذا التناقض في ظل الوضع الاقتصادي الاجتماعي القائم محكوم عليها بالفشل سلفا.

ت ـــ مواقف القوى الاجتماعية :

تباينت مواقف مختلف الأطراف من البادية تبعا لتباين مصالحها وأهدافها فيها :

أولا ـــ الاستعمار : كان يهمه الحفاظ على مصالحه بها في الدرجة الاولى، فقد بقي في يد الاستمعارين بعد الاستقلال حوالي مليون هكتار، ولذلك ظل يرقب البادية بعين ساهرة. استمر على الوفاء لحليفه القديم : الاقطاع الجهوي، وعمل على تقويته ليلعب دور حارس أمين لمصالح سيده في البادية وفي الوطن عموما. وأيد طموحات الاقطاع المركزية، وقدم له المساعدة الضرورية (بناء مدرسة لاطر الداخلية، مثلا، بمساعدة فرنسية) وأعاره قسما من ضباطه ليشرفوا على تدريب الجيش، وطيلة الفترة التي كانت فيها الدولة منهمكة في بناء جهازها السلطوي، استمر الجيش الاستعماري يؤدى مهمة القمع، والامثلة على تدخل الجيش

الفرنسي لقمع تحركات الجماهير كثيرة : تدخله في مراكش لايقاف عمليات التطهير التي استهدفت لها عناصر من عملاء الاستعمار من طرف الجماهير/ تدخله لقمع جماهير مكناس التي خرجت تستنكر حادثة اختطاف الزعماء الجزائريين الخمسة/هجوماته المتكررة على وجدة والاقليم / التنسيق بين الجيشين الفرنسي والمغربي بأكادير في مواجهة جيش التحرير المتجه إلى الصحراء لمواجهة احتمالات الموقف. وساهم الاستعمار الاسباني بدوره في تقديم العون إلى الدولة بتدريب عشرات الضباط.

أما موقف الاستعمار من جيش التحرير فلم يلحقه أي تغيير من حيث المبدأ، فقد احتفظ بعدائه المطلق له، وظل يتربص الفرصة لتصفيته، وكانت مؤامرة (56) تستهدف جيش التحرير بشكل مباشر، وحين قرر جيش التحرير مواصلة الكفاح المسلح في الجنوب، فزع الاستعمار الفرنسي، وحشد جيشه على الحدود الجنوبية ـ الجزائرية، وظل يرقب تحركاته بقلق.

لقد ظل الاستعمار سيد الموقف بلا منازع، والساهر على سير الأوضاع وفق ما خطط له، و وفق بكل ثقله وقوته إلى جانب السلطة، ومحضها ثقته، واهتم بتوفير الظروف الضرورية حتى تتم الولادة في أحسن الشروط : ولادة مرحلة الاستعمار الجديد، التي لم يفتأ يتعهدها بحدبه ورعايته حتى ترشد وتصبح قادرة على إرساء سلطتها.

ثانيا ـ الاقطاع المركزي : ارتبط بالاستعمار واتكأ على دعمه، وظل السند الاساسي الذي يستمد منه قوته، كان هدفه الاول من البادية : اخضاعها لسلطته وتحقيق الحكم المركزي. ولكن يقف في وجه هذه الرغبة قوتان : الاقطاع الجهوي : الذي لن تتحقق المركزية إلا على حسابه، والذي ظل يتمتع بنوع من الاستقلال في كنف الاستعمار. طرح الاستعمار صيغة لحل هذا التناقض بين حليفيه : أن يقدم الاقطاع الجهوي تنازلا سياسيا للمركزي، على أن يحتفظ بامتيازاته الاخرى كاملة، وكانت هي الصيغة التي قبل بها المركز، والتي استطاع ضمنها وطبقا لقانون القوة أن يصفي بعض رجال الاقطاع المحليين، وأن يسطو على جزء من ممتلكات البعض منهم، وأن يتحالف مع من هم أقل خطرا، والذين قبلوا الانضواء تحت مظلته.

أما العقبة الكأداء في وجه توسع المركزي فهي تلك التي شكلها جيش التحرير، وهو قد كان مستعدا للمساومة مع القوى الاخرى، ولكنه لم يكن مستعدا لتقديم أي تنازل لهذا الاخير (أي جيش التحرير). ولذلك ارتبطت مهمة تصفيته بتحقيق هدفه الرئيسي، وحسم مسألة السلطة لصالحه وبواسطته هو نفسه بشكل نهائي. فلم يتردد لحظة في نصب الشراك له، وقد مرت عملية التصفية بمراحل : رفع في أولها شعار الالتحاق بالجيش النظامي، واستعملت أساليب متعددة لاجتذاب قادته، وفي هذا الاطار جرى تعيين بعضهم في مناصب ادارية عالية، وحين نزل جيش التحرير إلى الجنوب لمواجهة مهمة التحرير، ازداد قلق الاقطاع، ودخل في تكتيك تصفوي جديد يقوم على امداد الحكومة لجيش التحرير بمساعدة شبه رسمية ودائمة حتى إذا أمن ارتباطه بها واعتماده عليها لم يقو على الصمود بعد قطعها بشكل مفاجىء فيؤدي

ذلك إلى ارباكه واضعافه، وقد نجحت الخطة نسبيا، حتى وجد جيش التحرير نفسه من أجل تأمين المؤن الضرورية لاستمراره يتعارض مع جماهير المنطقة التي لم يهيئها سياسيا لادراك طبيعة المرحلة، وللمبادرة بالتالي لدعمه عن وعي واقتناع، بدل لجوئه هو مضطرا إلى انتزاع هذا الدعم كرها، وطيلة هذه الفترة التي تميزت بمواجهة مكشوفة بين السلطة والجيش.

كانت البورجوازية تقف إلى جانب السلطة في هذا الصراع، باستثناء محمد علال (الفاسي)، غالبا، الذي كان نغمة ناشزة في الموقف البورجوازي، فقد دعم الجيش في الجنوب وساهم في قيادته السياسية.

أما الهدف الثاني للاقطاع المركزي فهو التوسع الاقتصادي. لقد ظل يعاني من ضعف تواجده الاقتصادي في البادية، وأن نجاحه في تثبيت سلطته هو الخطوة الاساسية على طريق خلق مصالح اقتصادية هنالك. ولقد أيد، من طرف خفي، قرارات المجلس الحكومي الهادفة إلى مصادرة ممتلكات الاقطاع المحلي من الذين تعاونوا مع الاستعمار، فهذا أقرب سبيل يمكنه من وضع اليد على بعض هذه الممتلكات التي تثير شهيته. غير أنه لم يكن يؤيد الصيغة البورجوازية التي تميزت بالتطرف والشمول، لقد أراد أن تتحقق المصادرة ولكن بشكل جزئي لا يثير حفيظة باقي الاقطاع. أو تنبه الاستعمار.

يضاف الى ذلك قمع الفلاحين وفي مقدمته ضرب حركة الريف الذي كشف للجماهير طبيعته (الاقطاع المركزي). ثم الوقوف في وجه توسع (حزب الاستقلال)، وفي هذا الاطار تأسست (الحركة الشعبية) التي ظهرت إلى الوجود كتوسع سياسي مركزه البادية في اطار الصراع الدائر بين الاقطاع والبورجوازية حول مسألة السلطة، وقد كان واضحا للطرفين معا، أو على الاقل للبورجوازية، أن الطريق إلى السلطة يمر من البادية، وأن الذي يستطيع الفوز في الرهان، هو من يملك القدرة على انتزاع ورقة البادية واستعمالها في الوقت المناسب، وهذا يطرح ضرورة تنظيمها كمهمة أولية. وفي هذ السياق يمكن فهم التحركات المكثفة التي شرع فيها اليوسي منذ 1956 في الاطلس المتوسط (موطن قبيلته) التي شكلت الارهاصات الاولى المترجمة لرغبة الاقطاع في ايجاد هذا الاطار السياسي. لكن المشكل القانوني طرح نفسه على الاقطاع بحدة خصوصا بعد رفض المجلس الحكومي الذي كانت تسيطر عليه أغلبية استقلالية، اصدار لائحة الحريات العامة التي ليست سوى مظهر خارجي لصراع سياسي في العمق، ادراكا منها لمقاصد الاقطاع في توقيت صدورها في ذلك الحين. ولما كان الاقطاع يهمه تأمين الغطاء القانوني لتصرفاته، فقد سلك من أجل أن تأخذ اللائحة طريقها إلى النور درب المساومات وتقديم العروض السخية التي توجت بصفقة التحالف المصلحي مع الجناح البورجوازي العقاري، الذي كان يتسنم ذروة المجلس. وبموافقة المجلس على صدور اللائحة كان الاقطاع قد ربح خطوة ضد البورجوازية. ومن المفارقات التاريخية العجيبة، تبادل الادوار بين الطبقتين فأصبح الاقطاع يدافع عن (الليبرالية) ويطالب بصدور اللائحة من أجل فرض نفوذه فيما بعد، وأصبحت البورجوازية تناهض الليبرالية وتتنكر لها.

أما الاهداف التي توخاها الاقطاع من وراء تأسيس (الحركة) فيمكن تلخيصها في :

1 ـــ منافسة (حزب الاستقلال) في السبق إلى البادية، والاسراع بايجاد الاطار التنظيمي الذي يمكن الاعتماد عليه من دعم مواقفه، والوقوف في نفس الوقت في وجه تقدم (الحزب). لقد بدأ النشاط المتزايد (الحزب) يهز مواقع الاقطاع الجهوي في البادية، بعد أن حطمت سنة (56) الجدار الذي كان يحول بينه وبين البادية. إن البادية التي لم تعرف غير النهب والاستغلال والقهر الأيديولوجي، تفتح الآن أبوابها لرياح السياسة وهي إذ تفعل، تخطو بذلك خطوة واسعة على طريق امتلاك أداة تحررها، لقد كان الاقطاع يعي أن أي نجاح تحرزه جماهير البادية في هذا الاتجاه، يعرض نفوذه المادي والايديولوجي للزوال، ويحول البادية إلى أرض معادية، لهذا انصب اهتمامه منذ زمن مبكر على ايجاد الاطار السياسي القادر على التصدى لهذا المد السياسي الذي بدأ يجتاز البادية، وليشكل في الوقت نفسه اداته لنشر ايديولوجيته وللدفاع عن سياسته. إن الادارة رغم طابعها المركزي والمنظم لم تكن مؤهلة بعد لتلعب هذا الدور على الوجه المطلوب لما تنطوي عليه من أخطار أي محاولة للزج بها في صراع سياسي مباشر في وقت لم تأخذ فيه السلطة وضعها الطبيعي بعد، أضف إلى هذا عدم رغبة الاقطاع في التنازل عن بعض مظاهر الحياة، ناهيك عن وجود نسبة عالية من الاطر الادارية ذات الانتماء السياسي المحدد التي لا يمكن الاطمئنان إليها، لكنها يمكن أن تفيد مع ذلك ببعض الادوار الصغيرة التي لا تتعدى العرقلة أو التضييق على بعض النشاطات السياسية. لهذا شكلت معضلة ايجاد الاطار السياسي، الذي يستطيع النهوض بهذا الدور، ويؤمن للاقطاع ظاهريا بقاءه في الظل بعيدا عن حلبة الصراع، احدى المهمات التي طرحت نفسها عليه بحدة، وقد وجد في احرضان والخطيب ظالته المنشودة، فبالاضافة إلى ما يتمتعان به من شعبية نتيجة ماضيهما في جيش التحرير يستندان فوق ذلك إلى ولاء قبيلتيهما الذي يُشكل مصدر قوة يستمدان منه نفوذهما السياسي، وهكذا استطاع الاقطاع، باستغلال لامكانيات أحرضان، أن يستفيد، لا فقط، من بناء أداة سياسية يمكنه الاعتماد عليها في البادية، بل استطاع أيضا، عن طريق هذا التوجيه أن يخلق مهمة يبعده بها عن التفكير في اللاالتحاق بالجيش النظامي، تخوفا من عصبيته التي يمكنها أن تشكل داخله مركز قوة لا يضاهي في ممارسة التأثير وفي النفوذ. وجد الاقطاع نفسه، أمام غياب الطبقة الاجتماعية التي يمكنها أن تشكل الاساس المادي والسياسي لسلطته في البادية، مضطرا إلى الاتكاء على عنصر العصبية لمواجهة نشاط (الحزب) ولسد الفراغ الذي تعاني منه الدعاية الاقطاعية.

2 ـــ أن تشكل (الحركة الشعبية) أداة الاقطاع في البادية للتعبير عن ايديولوجيته، بعد أن وجد نفسه في حاجة ماسة إلى مثل هذه الاداة، ليس فقط لمواجهة القيم الايديولوجية الجديدة التي أصبحت تهب على البادية، وإنما أيضا وبالاساس ، لتقوم بتبرير واقع الاستغلال المضاعف الذي تعاني منه جماهير البادية.

3 ـــ أن تساهم كذلك في تحريف التوجيه السياسي في البادية عن مساره الصحيح، وطمس حقيقة الصراع، وتزييف مطامح البادية في الانعتاق، وأن تشكل الاطار الذي يتلاءم

والأوضاع السياسية السائدة، وتكون في نفس الوقت مركزا لتجمع اليمين وأداة في يد الثورة المضادة.

ثالثا ــ الاقطاع الجهوي : يمكن القول أنه كان أكثر أطراف التحالف الاربعة تضرراً من مجيء الاستقلال، فقد انتزع منه في المرحلة الجديدة النفوذ السياسي الذي ظل يتمتع به في المرحلة السابقة، لتركز مصالحه بالبادية أساسا، ولصعوبة وضعه في الشروط الجديدة، شكل الحلقة الضعيفة في التحالف الجديد. أما أهدافه فتتلخص في :

1 ــ الحفاظ على مصالحه، فقد استطاع أن يبني مصالح واسعة في المرحلة الاستعمارية، مستفيداً في ذلك من التحالف مع الاستعمار ومن نفوذه في البادية، وامسى همه في المرحلة الجديدة هو الحفاظ على تلك المصالح، ومن أجل ذلك ارتبط بالاستعمار، القوة الوحيدة التي يستطيع أن يمحضها ثقته

2 ــ ولانه لا يمكن أن يعيش بدون سند خارجي، فقد جسد هذه الحاجة في رغبته في الحفاظ على تحالفه مع الاستعمار.

3 ــ ضرب سلطة الجماهير : لقد كشف الاقطاع الجهوي عن عدائه السافر لجماهير البادية في عدة مناسبات، وفي هذا يلتقي مع حليفه : الاستعمار والاقطاع المركزي، بل وقد يبزهم فيه، وفي اطار التنافس بين الاقطاع و(الحزب) حول البادية، وقف الاقطاع الجهوي إلى جانب شقيقه في خلق عراقيل للمجهودات التنظيمية لحزب الاستقلال.

• أما عن التناقض بين الاقطاعين (المركزي والجهوي) فقد تركز حول مسألة النفوذ السياسي الذي أصر الاول على تجريد الثاني منه : لقد تنازل الاقطاع الجهوي رسميا عن هذا الامتياز في مسرحية «التوبة» (1955). غير أن عددا من أفراده استمروا عمليا في ممارسة امتيازاتهم القديمة، مما أدى إلى أنفجار هذا التناقض أحيانا في أشكال عنيفة (حركة «عدي أو بيهي» مثلا، والتي كانت مناسبة أعطى فيها المركز درسا عن المصير الذي ينتظر كل من يفكر في الخروج عن طاعته منهم.) ومن التناقضات التي واجهها هذا الاقطاع كذلك، اضطرار. لكي ينسجم مع التعديلات التي أصبحت تتطلبها الادارة الجديدة، إلى التكيف مع الشرط الجديد.

رابعا ــ البورجوازية الوسطى : وقد مثلها سياسيا كل من (حزب الاستقلال) و(حزب الشورى والاستقلال) :

1 ــ **حزب الاستقلال** : تركز نشاطه التنظيمي والسياسي طيلة المرحلة الاستعمارية في المدينة، لذلك وجدّ نفسه مع حلول المرحلة الجديدة، وفي اطار الصراع على السلطة، يتجه إلى البادية لتدارك هذا النقص. وكان هدفه من التوسع في البادية : أ ــ تحقيق نفوذ إداري عن طريق تشجيع أطره للالتحاق بالوظائف في البادية، وقد التقى مع الاقطاع، الذي كان يعاني فقراً في الاطر، حول هذه النقطة. وكانت الخلفية الفكرية وراء هذا التوجيه. هي مساهمة (الحزب) في بناء السلطة على أساس أنها ستؤول إليه عندما يحسمها لصالحه في المركز؛ ب ــ لادرتوسع سياسي وتنظيمي حتى يستطيع كسب البادية إلى جانبه في صراعه مع الاقطاع،

وحتى لا يدع هذا الاخير يستخدمها ضده. واعتمد في الاتصال بالجماهير على موظفي الادارة، وكثيرا ما كانت طرقه في الاتصال تتداخل مع أساليب الادارة، ولأن المهمتين تتنافيان بطبيعتهما فقد أوقع أطره في البادية في تناقض ذاتي بين مهمتي الحزب والسلطة الادارية. وبنى تنظيماته على أساس التقسيمات القبلية القائمة. على أن مجهوداته التنظيمية اصطدمت بعوائق وضعها الاقطاع الجهوي في طريقه في عدة أقاليم، فارتفعت شكاوى هذه الاطر احتجاجا على التعسفات. وردت صحف آنذاك بسياط من النقد مشهر بـ : العقلية الاستعمارية التي من وراء هذه الاجراءات. ولم يكن هذا النقد يهدف إلى أكثر من إثارة ضجة تجعل القواد يكفون عن اجراءاتهم، وليس صادراً عن موقف مبدئي عام. تـ ـــ أما طموحاته الاقتصادية من وراء هذا التوسع فهي ضعيفة لا تتعدى المردود المادي الذي كانت تجنيه أطره من مناصبهم الادارية. ما هي نتائج مجهودات (الحزب) في البادية ؟ ان الذي حصد نتائج هذه المجهودات هو السلطة المركزية، حيث ابتلع جهازها الاداري أطر الحزب، فاستحال إلى هياكل فارغة، واستفاد الاقطاع من تخلي البورجوازية عن الامة لتعميق الهوة بينهما، وضربهما ببعضهما حتى يتمكن من البقاء في الحياد بعيداً عن الصراعات، وعرف أخيراً كيف يحول مجهودات البورجوازية لتصب في قناته وتخدم أهدافه وترتد ضد الاهداف التي جاءت لخدمتها أصلا.

2 ـــ **حزب الشورى والاستقلال** : خرج إلى البادية بحثا عن متنفس تنظيمي أمام ضغط وملاحقة حزب الاستقلال له في المدينة، ووجد في موجة التوسع الاداري مناسبة لتحقيق نوع من التواجد عن طريق بعث بعض أطرٍ إلى شغل وظائف في البادية، ونظرا لسيادة (الحزب) شبه المطلقة في المدينة،فقد كان من جملة الاهداف التي توخاها في الانفتاح على البادية، البحث عن حلفاء، فلم يكن ضعفه يمكنه من الصمود في وجه (الحزب) عدوه التقليدي. ولأن بعض مناطق البادية كانت آنذاك مسرحا للدعاية الاقطاعية التي افتتحها (الحسن اليوسي) بالتشهير (بحزب الاستقلال) فقد تسارعت صحف (حزب الشورى) إلى نشر بعض تصريحاته تعبيراً عن تأييدها الضمني له، وانتقل الصراع بين الحزبين (الشورى والاستقلال) وحزب الاستقلال، إلى البادية، فأصبح الموظفون المنتمون لحزب الشورى يتعرضون للمضايقات والاختطافات بل حتى الاغتيال، ومنع بعض الموالين لحزب الاستقلال نشاطات (حزب الشورى) في مناطق قيادتهم. والنتيجة، أن (حزب الشورى) حاول الخروج من الازمة الخانقة التي كان يتخبط فيها، عن طريق البادية، فأخفق، ولم يتجاوز تمثيله داخل الادارة نسبة ضئيلة جداً، ولم يفلح في ايجاد حليف هناك يمكن الاعتماد عليه، كما أن تواجده التنظيمي ظل ضعيفا جداً ومقتصراً على بعض المناطق فقط (كالرباط والشاوية وتازة).

خامساً ـــ البورجوازية الكبرى : ارتبط الجناح المالي منها بالاستعمار وتقدم حادثة المسمى بـ (العياشي) مثالا بارزاً. فقد حاول فتح فروع لابناك فرنسية في أكادير. فتصدى (علال الفاسي) لهذه المحاولة، وأثار حملة ضد المشروع باعتباره مشروعا استعماريا جديداً. أما الجناح العقاري فقد قبل المخطط المخزني وربط به مصالحه، وانشق عن (حزب الاستقلال) الذي كان من قبل أداته السياسية، ولم يكن للجناحين معا، المالي والعقاري، أي مطمح آني في البادية.

سادسا ــ البورجوازية الصغيرة : تنوعت مواقفها من البادية، حسب تنوع الفئات المكونة لها، ومن ذلك موقف :

أ ــ الجناح التكنوقراطي : كانت الصيغة التي عبر فيها عن موقفه في تلك المرحلة من مشاكل البادية والحلول التي ارتآها هي (التصميم الخماسي)، وبالرغم من الطموحات الوطنية والتقدمية للتصميم فإنه لم يول الاهتمام المطلوب للمسألة الفلاحية. وقد وجد نفسه، من أجل تلبية حاجات الصناعة التي أعطى لها (التصميم) الاولوية، يتخذ موقفاً خجولاً من أوضاع البادية، ويعمل على تكريس شروط الاستغلال، مهادنا بذلك مصالح الاستعمار والسلطة المركزية، لان أي مساس بهذه المصالح يعرض اختيار (التصنيع) للفشل، مبررا هذا التوجه بكون تمويل المشاريع الصناعية يعتمد (في التصميم) على عائدات الانتاج الفلاحي؛ الخاص بالتصدير، من العملة الصعبة، الذي هو في أغلبه بيد المعمرين. وخوفا من مضاعفات موقف الدولة الفرنسية، آثر التصميم السكوت والتواطؤ عمليا مع الاستعمار والسلطة المركزية، واكتفت أهدافه بمحاولة تحديث الفلاحة مع الحفاظ في نفس الوقت على البنيات القائمة، وفي هذا الصدد تقرر انشاء مدارس لتكوين مهندسين وتقنيين فلاحيين، وبناء معمل للجرارات انتهى إلى الفشل، وانشاء القرض الفلاحي وتوفير الاسمدة للفلاحين وتبنى تطبيق عملية الحرث الجماعي وهو يقوم على ضم مجموعة قطع أرضية إلى بعضها في عملية حرث واحدة) الذي فشل هو الآخر، لان لم يهتم بتهييء الفلاحين لقبوله، ولم يكن مهتما بمشاركتهم الفعلية في التقرير والتنفيذ، وأكثر من ذلك كان المشروع حلا جزئيا يتهرب من المشاكل في الفلاحة.

هل كان بإمكان أي برنامج اصلاحي (بورجوازي أو بورجوازي صغير) أن يحل المشاكل الاساسية للبادية المغربية ؟ إن تجربة عدد من بلدان العالم الثالث التي طبقت فيها مثل هذه البرامج اثبتت خطأً مثل هذا التصور. لقد استطاعت بعضها فعلا أن تعدل من بعض شروط الاستغلال، بالتخفيف منها أو تجميدها لفترة على الاكثر، ولكنها لم تستطع الغاءها، لانها بدل أن تتجه إلى جذور الظاهرة (الاستغلال) فتقطع دابرها، تكتفي بإزالة الاعراض فقط، مما لا يتعارض مع (جوهر) الاستغلال وإن تبدلت اشكاله. ليس معنى هذا أن الاستغلال هو قدر البادية الابدي، لان برامج الاصلاح عبرت عن فشلها ليس فقط في حل مشكل البادية، وانما ايضا في حل المشكل العام أي مشكل : التبعية. وقد اثبتت التجربة عجز جميع هذه البرامج عن مناهضة الامبريالية وانجاز ثورة ديمقراطية شعبية، وذلك راجع إلى الطبيعة الطبقية لاصحاب هذه البرامج وإلى الشرط التاريخي الذي أصبح يفرض تحديات لا تستطيع أن تجابهها غير طبقات أخرى اكثر جذرية في مواقفها. وأثبتت التجربة كذلك أن مهمة التصدي لجذور الاستغلال خارج نمط الشعب (وفي مقدمته الطبقة العاملة) هو وهم خالص، لأنه الاختيار الوحيد المؤهل تاريخيا للقضاء على جذور الاستغلال وانجاز التحول الاشتراكي.

ب ــ الجناح السياسي: كان أكثر قربا الى تجسيد مطامح الجماهير من الاول. إذ ادرك حاجتها الى الاطار الذي ينظم نضالها، فعكف على تأسيسه، فكانت (طريق الوحدة) هي الصيغة التي عبر فيها عن نفسه.

طريق الوحدة : واجهت المغرب مشكلة اعادة توحيد شطري الشمال والجنوب، كواحدة من أهم المعضلات التي أورثها له الاستعمار. واحتلت حيزاً مهما من تفكير الاطراف المختلفة التي ارتبطت مصالحها بانجاز التوحيد في اسرع وقت .ف (الدولة) التي كان يهمها قبل كل شيء بناء سلطتها، كانت ترى فيه (التوحيد) خطوة أساسية في توسيع وتعزيز هذه السلطة، وقد شاركتها البورجوازية نفس الاهتمام انطلاقا من رغبتها في ان تكون السوق الوطنية رحبة بقدر رحابة طموحاتها. أما البورجوازية الصغرى فيمكن قياس مصلحتها في التوحيد بمقدار حماسها له ذلك انها نصبت نفسها وكيلا هاتين الطبقتين ــ حيث لم يكن بامكان أي منهما حل مشكل من هذا المستوى بمفرده ــ في تقديم صيغة التوحيد، والقيام في نفس الوقت بمهمة الاشراف والتوجيه

أخذت الصيغة شكل طريق اطلق عليها (طريق الوحدة) يتم شقها بين المنطقتين بالاعتماد على العمل التطوعي للشباب، وفعلا سارع الشباب من مختلف الاقاليم استجابة للنداء، لكن السؤال الاساسي الذي يجب طرحه هو: في أي اطار سياسي وظفت البورجوازية الصغيرة هذه المبادرة؟ هذا السؤال يكتسي أهمية خاصة اذا نظرنا الى خلفية المشهد، حيث نجد (جيش التحرير) يقاوم في ظروف جد صعبة محاولات السلطة الرامية الى تصفيته، فإذا كان الشمال هو منطقة التواجد الاساسية لجيش التحرير سابقا، فان عملية ضرب تراثه بالمنطقة يقتضي شق «طريق».... هكذا وجدت البورجوازية الصغيرة نفسها في غياب الرؤية السياسية للمشكل تقدم خدمة «تاريخية» للسلطة وتشارك موضوعيا الى جانب «الردة» حين وقفت عند الوجه الجغرافي ــ الاقتصادي للمشروع. وبذلك لم تدخل في حسابها حقيقة الصراع الدائر بين الطرفين الرئيسيين في التناقض الوطني، ولم تنتبه الى امكانية استغلال السلطة للمشروع في تحقيق أهدافها... / وبالرغم من السلبية العامة التي طبعت المشروع، فانه لم يخل مع ذلك من بعض الايجابيات تشهد على ما تملكه هذه الطبقة من طموحات وطنية ذات مضمون اقتصادي وما تكشف عنه، في كثير من الاحيان من مؤهلات بارعة في حل بعض المشاكل المعقدة بالاعتماد على الشعب دونما لجوء الى الاسلوب البيروقراطي. اما ايجابيات المشروع فيمكن تلخيصها في التالي:

ــ ان المشروع انجز في اطار نضالي معتمدا على مبادرة وحماس الجماهير، وقد عرف هذا الجناح كيف يوظف هذا الاستعداد عن طريق تعبئة الشعب والاعتماد عليه.

ــ طموح هذا الجناح لحل تناقضات الشعب من خلال مشاريع عمل أساسا وفي هذا الصدد لعب المشروع دوراً عظيما في خلق روابط تعارف بين ابناء الاقاليم المختلفة وفي محو مظاهر الاحتقار الناجمة عن فروقات ذات طبيعة اقليمية أو لُغوية (طبقية في العمق)

ــ الاعمال التثقيفية اليومية التي تخللت المشروع، تؤكد مدى اهتمام البورجوازية الصغيرة بتوفير حد ادنى التربية السياسية للشعب وحرصها على ان تكون مرتبطة بالممارسة.

ــ اعتماد بعض اساليب الانضباط المستمدة من السلوك العسكري، بهدف تربية الشباب على العمل المنضبط والمنظم.

ــ كانت (الطريق) من أهم بوادر تميز االبورجوازية الصغرى من حزب الاستقلال عن قيادته التقليدية، وبهذا الحدث بدأ تفجير التناقضات الوطنية داخل (الحزب) التي كانت محجوبة في مرحلة الصراع الوطني السابقة وكان أداة من أهم أدوات الاستقلال التنظيمي والسياسي للفئات الشعبية الكادحة بقيادة البورجوازية الصغرى عن قيادته البورجوازية، هذا الاستقلال الذي جسده (الاتحاد الوطني للقوات الشعبية) فيما بعد.

لقد مثلت نضالات الفلاحين على امتداد ثلاث سنوات رافعة حركت مجمل الأوضاع، ودفعت بمختلف التناقضات نحو مزيد من الاستقطاب، وعجلت باستجلاء ملامح الصورة لكي تأخذ وضعها القار والطبيعي. لقد كانت البورجوازية أكثر حساسية بهذه الاحداث، التي دفعت بالتناقض الطبقي داخلها سريعا نحو الصدارة ثم الانفجار، وعجز (حزب الاستقلال) عن تحمل سقف الهزات التي أصبحت تعتمل داخله، ولم يعد بمقدوره الاستمرار في اداء دوره التقليدي كجبهة تتعايش داخله مختلف الطبقات الوطنية فانفرط العقد، ولم تات سنة 1954 حتى تلاشت آخر الخيوط الواهية التي ظلت تربط الطبقتين الى بعضهما، واعلنت البورجوازية الصغرى تأسيس اطارها السياسي والتنظيمي المستقل. حدث هذا بشكل متزامن مع ما كان يجري بالبادية، وانعكس بشكل قوي على تطور الصراع داخل (حزب الاستقلال) بحيث سارت الاحداث وانعكاساتها في خط متوازن ومتلازم تقريباً.

جـ ــ **جناح العنف**..: ظل بحكم طبيعة ممارسته التقنية الصرف بعيداً عن تجسيد آمال جماهير البادية، وبعيدا عن أن يمارس أي تأثير عليها. ان عناصر هذا الجناح الذين (انتبهوا)، ولكن بعد فوات فرص لا تعوض، لفرض ما أمسى بالنسبة لهم ضرورة ملحة: سيادة اختياراتهم في الدولة، كانوا قبل ذلك قد وقفوا ومارسوا ممارسات لا تمت الى ما اكتشفوا فيه مصلحتهم الطبقية بصلة، ففي ابان المؤامرة الاستعمارية في (اكس ليبان) وفي الوقت الذي رفضت فيه عدة فصائل من المقاومة وجيش التحرير الانصياع للعبة واستمرت في مناهضتها، ومناهضة الاطراف المسؤولة عنها (ولو بغموض واحتشام مرتبك) كان موقف هؤلاء الذين استفاقوا عصراً، ليس هو فقط، الدفاع عن اطراف التحالف الرجعي عمليا وقبول العمل في الوضع «الجديد» بل واكثر من ذلك لمساهمة في التصفية العنيفة للعناصر الثورية في ذلك الحين، اي أنهم هدموا بالضبط القاعدة الوحيدة والاساسية التي يمكنهم بالرجوع اليها ضمان مصالحهم الطبقية، وبالتالي ضمان الانتصار على نفس القوى اليمينية، التي اكتشفوا متأخرين، تناقض مصالحهم معها، وبدلا من اجراء عملية نقد ونقد ذاتي لماضي التجربة المغربية القريب وتجربتهم الخاصة نفسها، واستخلاص ما يلزمهم استخلاصه من ذلك، ومن ثم تلافي ما كان مجال تلافيه ممكنا بعد، استمروا في نفس اختيارهم بالابتعاد عن خط الجماهير واشكال ممارساتها الجماعية

والديمقراطية، هذا الاستمرار لم يتمثل فعلاً هذه المرة على سبيل «التصفية» الداخلية للاطر المناضلة (الناشزة)، وانما بممارسة العنف المعزول والفردي البدون أفق.

ان المواقف والممارسات الطبقية التي لا تعتمد ثقة الشعب والثقة فيه خلال تحركها، مصيرها، اذا لم تمارس العنف على الجماهير نفسها، أن تعمل بمعزل عنها بعيداً عن خطها وفي كلتا الحالتين فالمضمون واحد والنتيجة واحدة، هي الفشل في انجاز أي شيء خارج ما يستفيده الخصم من مثل هذه الخطوط البورجوازية الصغيرة الفاسدة.

د ـ جناح الاندماج (في السلطة) : لقد كان لظروف النشأة في الظل والاستثنائية التي تربى عليها جيش التحرير، مفعول حاسم في تسريب العديد من العناصر ذات المصدر الاجتماعي الاقطاعي أو البورجوازي. وبالاضافة الى التأثيرات السلبية التي لابد سيكون جيش التحرير قد عانى منها نتيجة هذا التسرب، خاصة وأن مثل هذه العناصر كانت مؤهلة أكثر من غيرها لتسنم مناصب القيادة والتي لم يتح من الزمن لجيش التحرير ما يمكنه خلال الممارسة الثورية واليومية للفظها او تغيير مواقعها داخله أو تحويلها ذاتيا. وحين المؤامرة، لم يكن من المنتظر من مثل هذه العناصر، أو الجزء الأكبر منها على الاصح، أن تقف الى جانب الشعب في محنته الطارئة، لقد كان أقصى ما طمحت وتطمح له هذه العناصر خلال تحركها السياسي ـ العسكري رفع الحيف أو بعض الحيف، الذي فرضه الوضع الاستعماري على تطلعاتها، أما وقد تغيرت الظروف الى الحد الذي سيسمح لها فيها بأخذ مكاسب أو مناصب، فليس ما يبرر اذن ـ في منطقها ـ استمرار ما أصبح يشكل لديها «فوضى» لا معنى لها ولا مسوغ، فعلى الجميع أن يهدأ وعلى الدنيا أن تستقر، ما دامت هي قد تمكنت من اقتعاد مقاعد من حجمها واحيانا اكبر، فلم الخصام إذن ؟

ان عقدة المشكل بالنسبة للبورجوازية الصغيرة هي أنها لم تكن ترى في المشاكل المختلفة وجهها السياسي والاجتماعي بقدر ما كانت تقف عند الوجه التقني فلا تتعداه، ولهذا ظلت رؤيتها للامور أسيرة النظرة الجزئية التي تعجز عن رؤية العلل العميقة للاشياء والظواهر، وفشل هذه الطبقة من امتلاك رؤية علمية للواقع هو انعكاس لفشلها كطبقة ضمن المجتمع في العثور على مواقع اقدام ثابتة تخرج بها من دوامة التذبذب وعدم الاستقرار وهي صفة ملازمة لها ولا حيلة لها في التحرر منها في ظل الشروط الاقتصادية ـ الاجتماعية لهذه الطبقة والتي تتميز بعدم الاستقرار، اذ ليس لها مصالح ثابتة في المجتمع يمكنها أن ترجع اليها في بناء مواقف ثابتة، فمصلحتها ليست مستقلة، وانما مرتبطة باحدى الطبقات الاخرى، وهذه الاخيرة اما ان تكون بورجوازية أو اقطاعية او بروليتاريا، ولكن كيف تستطيع أن تحدد بأن مصلحتها توجد هنا أو هناك؟ بمؤشر بسيط هو مدى رجحان كفة الصراع بينهما لصالح هذه الطبقة او تلك، وما دام ميزان القوى في مد وجزر قبل أن يحسم نهائيا لصالح الشعب (العمال أساسا) فان

البورجوازية الصغيرة، تتأرجح بعدد تأرجحات ميزان القوى بين الطبقتين الراسختي الاقدام والمصالح. وهذا هو المصدر الاساسي لكل المواقف المتذبذبة لهذه الطبقة، ولكن مصيبتها هي انها مالكة خبرة ولا تني تبحث لها عن منفذ لتصريفها، ولا يهدأ لها بال الا اذا أمنت هذا المنفذ، انها كالبقرة الحلوب التي حالما يمتلىء ضرعها لبنا تستغرقها حالة عصبية لا تخلد بعدها الى الراحة الا اذا تخلصت من حمولتها، وهي مستعدة دائما لتقديم خبرتها وخدماتها لمن يريدها، مادامت هي لا تملك وسائل ومجالات تصريفها، وبما ان الطبقة القادرة على شراء هذه الخبرة هي تلك التي بيدها السلطة، فالبورجوازية الصغرى مستعدة لتقديمها إياها بدون شروط حتى ولو كانت ستستخدم في اتجاه مضاد للشعب. وقد عبرت البورجوازية الصغرى عن مدى استخفافها بمكاسب الجماهير في عدة مناسبات فهي التي عملت على تصفية بعض فصائل المقاومة، وتحالفت مع السلطة لضرب جيش التحرير، وبلغ ضيق الأفق بقادتها حداً لم يخطر ببالهم انهم لن يسلموا يوما من أن ترتد ضدهم السلطة نفسها التي تفانوا في تدعيمها، وان الحكم سيقلب لهم ظهر المجن، جاحداً خدماتهم الثمينة له حالما يرتب أوضاعه ويقوي ادوات سلطته.

وليس اسلوب الحوار والتعاون هو كل ما تملك هذه البورجوازية، فهي حين تفشل هذا الطريق تختار طريق الاستيلاء على السلطة، وهي لا تلجأ اليه الا اذا سد طريق الحوار في وجهها، وتظهر مهارة فائقة في المزاوجة في آن واحد بين الاسلوبين: الحوار والتحضير للعنف، مثلما تبدى مقدرة فائقة كذلك في تقسيم المهام بين اجنحتها، وحالما تظلم الآفاق في وجه الاتجاه الأول، ويعد ذلك بمثابة ضوء أخضر للجناح الثاني ليضرب ضربته، على اساس ان الاستيلاء على السلطة، سيفتح الباب على مصراعيه أمام تكنوقرا طييها، ليوظفوا خبرتهم مستفيدين من أجهزة الدولة في تنفيذ في مشاريعهم وخططهم بكل حرية، ويلعب جهاز الدولة دوراً في تشكيل تصورات البورجوازية الصغيرة، فهي لا تفكر أو تخطط الا من خلاله، وهو يتدخل دائما لطبع مشاريعها بميسمه، مما يثبت بشكل قطعي نظرتها التقنية. ونظراً لما لهذا الجهاز من تأثير على فكرها التقنوي فهي لا تستطيع ان توحد الأمة خارجه، وبذلك ظلت بممارساتها السياسية المتناقضة بعيدة عن تحقيق ذلك المطلب وعن تجسيده كخط عام.

لقد جاء امتحان 55 /56 ليضع البورجوازية الصغيرة على المحك، غير انها لم تر في المشكل سوى وجهة التقني. لقد انبرى الاستاذ بوعبيد مثلا ينثر كل ما في جعبته من خبرة لفبركة الحلول الاقتصادية والنقدية لمشكل سياسي في عمقه هو: لمن تؤول السلطة : للاستعمار الجديد ام للقوى الوطنية الديمقراطية؟ لم تعجز البورجوازية الصغيرة عن تجسيد خط الجماهير فقط، بل الادهى انها عجزت حتى عن رؤية هذا الخط وهو يشق طريقه بقيادة جيش التحرير في الجنوب، واذا كانت هذه الطبقة قد لعبت دوراً سلبيا على حركة الجماهير، فان هذه الاخيرة على العكس من ذلك كان لها الفضل، بنضالاتها في البادية في التعجيل

بانطلاق صوت البورجوازية الصغرى من محبسه، وبروزه كخط تنظيمي وسياسي مستقل عن هيمنة القيادة البورجوازية.

ان الخلاصة الأساسية التي تقدمها تجربة البورجوازية الصغيرة في المغرب، والتي يجب التأكيد عليها باستمرار، هي ان هذه الطبقة في سعيها الدائم لاحتلال مركز اجتماعي وسياسي أحسن، تنتهي حين تكون معزولة عن قيادة البروليتاريا، الى خدمة الطبقات التي فوقها بما فيها الامبريالية والاقطاع... ولا تطرح طبيعة النظام الذي ستقدم اليه خدماتها الا اذا هي فشلت في ايجاد لغة حوار يضمن لها تحقيق بعض من مصالحها، حين ذاك فقط تفكر بضرورة تغييره عنفيا.

وان الملاحظة الأساسية التي يمكن تسجيلها من هذا العرض السريع لأوضاع ومواقف مختلف القوى... هي أن مصالحها في البادية بقدر ما كانت متشابكة ومتداخلة، بقدر ما كانت متعارضة كذلك، واذا كانت (1959) هي محصلة التقاء وتصادم مجموع هذه الارادات بالبادية في الوجه الذي يتصل منها بحل امتداد جيش التحرير بالجنوب في عهد حكومة عبد الله ابراهيم، التي خرج منها التحالف اليميني الحاكم أكثر قوة بالنسبة للاطراف الاخرى، فلأن هذا الاخير (الحكم) عرف ــ نتيجة قوته الموضوعية ــ كيف يجمع خيوط هذه العملية التاريخية بين يديه، ويتعهدها الى ان تنتهي تلك النهاية.

حركة الريف

كانت أوسع وأقوى الحركات الجماهيرية في البادية، عمت قسما منها في السنوات الاولى التي اعقبت (56)، اعلنت فيها الجماهير الريفية العصيان، ولم تجد النداءات، التي لم تعتبر سوى مناورات لتبرئة الذمة مسبقا من الجريمة القابلة، آذانا صاغية، بل لم تزد الانتفاضة الا تأججا إن عدم الاستجابة هذا للنداءات كاف وحده للدلالة على مستوى الوعي والتصميم وعدم الانخداع، وأصبح استمرارها يشكل تهديدا مباشرا على بناء سلطة الدولة نفسها، حينئذ صدرت الأوامر العليا بقمع الحركة بعد تمهيد السبيل لذلك بعقد تحالفات جديدة هذه المرة مع جناح من البورجوازية الصغرى، هذه القوى الاجتماعية التي ستتكفل عندئذ باضفاء «المشروعية» على هذا القمع بتواجدها الى جانبه موضوعيا وعمليا، وبالرغم من الغموض الذي كان يحيط بالظروف التي رافقت الانتفاضة وبالاهداف، كذلك، التي قامت من اجل تحقيقها. فان رؤية ذلك التحرك ضمن دائرة الصراع الطبقي هو الكفيل وحده بتحقيق تصور صحيح للبواعث العميقة لذلك التحرك. لقد شكلت معارك (جيش التحرير) ونضالات جماهير البادية السمة البارزة التي طبعت تلك الفترة قبل أن تنهزم في المعركة امام هجمة لتحالف الرجعي الاستعماري الجديد والذي لم يتورع عن استخدام أساليب دنيئة في سبيل تثبيت سلطته ابرزها : اسلوب التحرش بالتململات الشعبية واستثارتها من أجل اظهار نفسها

قبل الأوان للاجهاز عليها، وهذا ما حدث بالضبط بالنسبة لجماهير منطقة الريف التي استطاعت السلطة لا أن تحرف توجيهها وتؤثر عليها فحسب بل وأن تؤمن قيادة رجعية لها، وهكذا هبت الجماهير في اطار توجيه ولخدمة اهداف منافية لاهدافها ومطامحها / ولكن ما هي بواعث ذلك التحفز والاستعداد للنضال من طرف جماهير الريف ؟ هناك أسباب موضوعيه ناجمة عن :

1 ــ تدهور الوضع المعيشي للمنطقة لدرجة خطيرة، ولم تتخذ من الاجزاءات الكفيلة بتأمين حياة السكان الا القليل جدا.

2 ــ احساس الجماهير بأن شيئا لم يتبدل من أحوالها بالرغم من مجيء الاستقلال، وليس استمرار وجود الادارة بنفس الوجه القمعي الكريه، وجباية الضرائب رغم الاوضاع المتردية للسكان، وطغيان لغة القمع على أية لغة أخرى.. الا مؤشرات عميقة الدلالة.

3 ــ اتساع التذمر وامتداده حتى الى قسم من رجال السلطة الذين انضموا الى الانتفاضة، بفعل تعارض مصالحهم مع الطابع المركزي للسلطة الجديدة.

كانت تلك بعض الاسباب التي جعلت من البادية قوة ثورية قادرة على رفد الحركة الجماهيرية بزخم لا ينضب، لكن الضعف الذاتي للحركة المتجلى في انعدام التأطير والتوجيه الصحيحين قد حال دون تجذرها واكتسابها مواقع متقدمة، مما يسر مهمة ضربها، وقد استهدفت السلطة من وراء هذه العملية استثمار ما أتاحته لها كمناسبة :

أ ــ استعراض القوة بل واستعمالها أيضا بهدف تأديب الجماهير. لقد كان في حاجة الى مثل هذه الاساليب لإفهام (الناس) على ان الاستقلال الذي كانوا يتغنون بمجيئه ليس استقلالهم، وأن الاوضاع، وان تغيرت من حيث الشكل، فان المضمون باق على حاله، وليس عليهم الا الرضوخ للامر الواقع.

ب ــ لم يَنس المخزن وهو منهمك في حل تناقضه الاساسي مع جماهير الريف تناقضه مع البورجوازية التي كانت تنافسه على السلطة على الرغم من ان المرحلة تميزت بالتحالف بين الطبقتين، لهذا عمد الى بث شعارات معادية «للحزب» عن طريق عملائه في قيادة الحركة ولقد استطاعت هذه الاثارة ان تنجح، فقد هجمت الجماهير الثائرة على مكاتب «الحزب» بالمنطقة، وأتلفتها محطمة بذلك كل المكاسب التي حققها «حزب الاستقلال» هناك، لقد صُور للجماهير أن أصل البلاء هو الحزب، الذي اتهم بطموح اكبر منه : الاستحواذ على السلطة والاستئثار بها وحده.. (؟!) ساقت ضالة وراء دعاية قيادتها الرجعية، وبذلك استطاع المخزن تحريف الصراع مع الجماهير نحو مسارب وهمية، وخلق وتغذية التناقضات في صفوفها بغية الأبقاء عليها أسيرة هذه التناقضات الشيء الذي يحقق له شرط سيادته على الجميع والبقاء فوق الصراعات.

ت ـــ لقد كان من جملة الاهداف من وراء إثارة «حركة الريف» تجريد الجماهير من السلاح بعد ان ظل امتلاك الجماهير للسلاح كابوسا يجثم على صدر المخزن، ولم يكن تجريد الجماهير من السلاح بالامر اليسير وهي التي تدرك أن نزع سلاحها من يدها هو خطوة على طريق الاجهاز على مكاسبها الاخرى وانتزاعها منها، ولذلك فالسلاح هو أداتها في الدفاع عن تلك المكاسب، وهذا هو السر في فشل النداءات اليها بتسليم السلاح، حيث ردت عليها بالرفض، حينئذ صدر انذار يهدد كل من ضبط في حوزته سلاح بتقديمه امام محاكم عسكرية. لقد شكل تسليح الجماهير مسألة مصير بالنسبة للمخزن، ولذلك أصر بعناد على تصفية هذا المكسب الشعبي بأي ثمن، وفعلا نجحت الهجمة التي استهدفته بعد صراع مرير دام زمنا طويلا عبرت فيه الجماهير عن مدى الاهمية القصوى التي توليها لسلاحها وعن المصير البائس الذي ينتظرها بضياعه. ان الجماهير في اصرارها على التسلح كانت في الحقيقة تستلهم ماضيها القريب منه والبعيد، فقد انتزعه منها الاستعمار عند دخوله واستطاعت استرداده، وانتزع منها مجددا من طرف سلطة الاستقلال، لكنها كانت تتصدى باستمرار لكل محاولات تجريدها منه ولم تتهاون في الدفاع عنه، وجسدت بذلك مدى التلاحم الصميمي الذي يربط وجودها نفسه بوجود السلاح بيدها.

ث ـــ لقد كان من جملة ضحايا الحملة على «الريف» عناصر من قادة جيش التحرير كانوا قد قبلوا بصفة حل «جيش التحرير» بل وأسندت اليها مناصب ادارية حساسة ثم فصلت من هذه المناصب و وجهت اليها تهم تدينها بالرغم من ميولها اليمينية، وقبولها للوضع الجديد للاستعمار في البلاد، واعلان ولائها له متخلية بذلك عن الفصائل التي واصلت النضال، من اجل انتزاع استقلال حقيقي وغير مزيف، ومع ذلك نجد المخزن لم يتردد في انزال عقابه بهذه الجماعة، فما هي الضرورة التي تبرر مثل هذا العقاب ؟

ينبغي الاشارة أولا الى ان هذه الجماعة التي استهدفها غضب المخزن، لم تكن دخيلة على المسرح السياسي الوطني، بل على العكس تتمتع، كما سبقت الاشارة، بماض نضالي مشرق، وقد تسلمت رتبا عالية في السلطة، وبالرغم من تخاذلها فانها ظلت بدون شك تتمتع برصيد شعبي يؤمنه لها ذلك الماضي، الشيء الذي يحتفظ لها بتأثير على قسم من الجماهير يؤهلها للدخول في ممارسة لعبة القوة هي الاخرى، ولكن لماذا لم يبادر المخزن الى احتواء هذه القوة عن طريق احتواء قادتها الذين ابدوا استعدادا لذلك ؟

الواقع أن المخزن لا يمكن ان يتردد لمثل هذا الاحتواء لو أن القوة التي يمثلها هؤلاء كانت مضمونة بالقدر الذي يفضي بها عمليا الى تجاوز هذه القيادة، وهذا ما كان يخشاه المخزن خصوصا وأن الشرط الثوري كان ناضجا لاجتذاب الجماهير الى ساحة المعركة بفضل الدور الطليعي لجيش التحرير في تأطير وقيادة المعركة، لقد احتاج المخزن لضرب هذه الجماعة بالرغم

من أنه لم تكن لهم سوى طموحات يسعون الى تحقيقها في ظل الوضع الجديد للاستعمار لا خارجه، وقد عمد من أجل ذلك الى توسيخ سمعتهم بهدف تصفيتهم سياسيا، وهكذا تؤكد السلطة من جديد في هذه العملية وفاءها لقيمها المخزنية اتجاه الجماهير التي لا يقبل منها غير علاقة التبعية والولاء المطلقين.

ج ــ كان المخزن يعرف أن الشروط كلها مهيأة لانتفاضة، لذلك بادر باستثارة الجماهير ليتمكن من ضربها بها قبل أن تستكمل شروط نضجها.

ويبقى أن نضع سؤالا أخيرا، وهو : هل نجحت خطة المخزن من وراء اثارة منطقة الريف ؟ يمكن القول : ان بعض الاهداف قد نجحت فعلا مثل تأليب الشعب على (حزب الاستقلال) وتحويل انظارها عن العدو الحقيقي في تلك المرحلة، وتحقيق الهدف الثاني وهو القمع الذي مورس بوحشية والذي اعطاه كذلك فرصة لاظهار قوته واستعمالها ضد الانتفاضة لتكون عبرة للاخرين، ولم ينجح تماما في نزع السلاح حيث بقيت بعض مظاهر حيازته مشاهدة حتى مطلع الستينيات وان كانت الحملة التي خاضها في هذا الصدد تعتبر مقدمة في طريق تصفية هذا المكسب الشعبي، أما ما لم تكن تتوقعه الخطة، والذي يشكل فشلا ذريعا للفكر الرجعي الذي وراءها فهو أن الجماهير في استجابتها لنداء الانتفاضة، قد اندفعت في تيار عارم مفجرة كل الحدود التي رسمها واضعو الخطط، وادخلت فيهم الرعب فلم يجدوا أمامهم غير الاستنجاد بالقوة (الجيش) لايقاف خطر المد الشعبي الجارف الذي اصبح يهدد وجودهم في الصميم مما يثبت الطابع المغامر لاي خطوة من طرف المخزن تتوخى تحريك الجماهير حتى من أجل اهداف قد تكون، فبالاحرى اذا كانت رجعية، لقد اثبتت الجماهير في انتفاضة الريف انها النقيض التاريخي ــ النضالي للرجعية ولاهدافها، حتى وهي تناضل، بدون وعي منها، في اطار تلك الاهداف والخطط الفاسدة التي وضعت أصلا للايقاع بها.

وبضرب حركة الريف انطفأت آخر نقطة مضيئة للنضال الوطني الذي لم تكن الحركة سوى امتداد طبيعي له، استهدف من وراء ضربها تصفية آخر بقايا جيش التحرير في المنطقة.

ماذا كان موقف البورجوازية من حركة الريف ؟ اعتبرتها مؤامرة من طرف الاستعمار الاسباني كان يهدف من وراء اثارتها تغطية رجوعه لاحتلال المنطقة من جديد، ولكنها رفضت الموقف المخزني الذي يقول باستخدام العنف لاخمادها، ان هذا الموقف للبورجوازية الوسطى يسمح باستخلاص الخلاصتين التاليتين :

أ ــ ان الحادثة بدل ان تشكل مناسبة لحزب الاستقلال يقوم فيها بالنقد الذاتي واستخلاص دروس التجربة والاعتراف بخطئها الاستراتيجي في التخلي عن الشعب والانحياز الى جهة السلطة، أرجعت اسباب الحركة الى قوة وهمية هي رغبة الاستعمار الاسباني في الرجوع، وفي هذا تحريف للجماهير عن الأسباب الحقيقية للانتفاضة، وتزييف لمطامحها في الانعتاق من الهيمنة المخزنية.

ب ــ في رفضها لقمع الحركة عبرت عن وعي نسبي لمصلحتها في تلك المرحلة على الاقل وعدم قبولها بان تكون اداة في يد المخزن يستخدمها لحقيق اهدافه.

اما البورجوازية الصغرى ... فلم ترفي الحادثة الا مناسبة تقدم فيها شهادة حسن السلوك الى السلطة، وتعبر عن موقف تنكري اتجاه الجماهير، وعن مدى استخفافها بمكاسبها والاستعداد لتصفية هذه المكاسب، ولم تجد السلطة من يشاركها في تنفيذ مخططها التصفوي أفضل منها حيث سارعت الى نجدته في ظرف دقيق من تاريخها وساعدت على تلبيتها على حساب السلطة الشعبية.

وأما المخزن : فكان اكثر دهاء وقدرة على التناور في مواجهة الحركة، اكتشف أنه لا يقوى على قمعها بمفرده، وفوق هذا فهو غير راغب في تعرية طبيعته القمعية منذ ذلك الوقت المبكر الذي سيخسر فيه دفعة واحدة كل الهالة الوطنية التي اكتسبها لدى الشعب، واذن فهو يحتاج الى حليف يوجه القمع باسمه ويستخدمه قناعا يختفي وراءه، وبعد أن اشبع عطشه الى القمع، وجاء دور التبرير، تشكلت (لجنة أنجاي) وعلى العكس من الموقف اللامسؤول للبورجوازية التي ردت أسباب الحادثة الى رغبة الاستعمار في الرجوع، فان اللجنة اوردت على الاقل في تقريرها (بهدف التضليل) بعض المشاكل التي تعاني منها الجماهير، الا انها قدمت حلولا مزيفة لهذه المشاكل تخدم بشكل أساسي التناقض مع البورجوازية حيث حاولت ان تصور للمواطنين أن المشكل الاداري ناتج عن رغبة بعض الاداريين استعمال الادارة لاغراض «حزب» تتنافى مع وظيفتها كأداة لحل المشاكل التي تعاني منها..هي، ودعا هؤلاء الاداريين الى ضرورة التحلل من انتماءاتهم الحزبية حتى يتسنى لهم خدمة «المصالح العامة» لا اهداف أحزابهم الضيقة. لقد عرف المخزن كيف يحقق أهدافه من اثارة الحركة وقمعها ويخرج من المعركة وموقفه اكثر قوة وتماسكا، وكيف يضع البورجوازية بجناحيها في قفص الاتهام وجها لوجه أمام الجماهير.

لقد منحت عفوية الحركة والفوضى التي كانت تسودها وانعدام التوحيد.. منحت المخزن امكانية تحريف توجيهها وتزييف شعاراتها، ولكن لماذا تميز موقف الجماهير بتلك القسوة اتجاه «حزب الاستقلال» حيث رددت خلال الانتفاضة شعارات معادية للحزب كما ناقضت بعض شعاراته محتفظة بشكلها بمحتوى معادي له، ولم تقف الجماهير عند حدود التشهير السياسي فقط بل تجاوزته الى الهجوم على مراكزه بالمنطقة واتلاف محتوياتها، فما هي دلالة هذا النقد القاسي الذي زاوجت فيه الجماهير بين النقد الشفوي والنقد بالممارسة ؟ وما هي اخطاء البورجوازية التي استحقت عليها كل هذا التأديب ؟

إن النظرة السطحية توحي بخطأ الجماهير في هذا الموقف، أو على الاقل أنها انساقت وراء توجيه رجعي في تعميق التناقض بينها والبورجوازية. غير أن النظرة المتأملة والتي تربط الحدث بالموقف التنكري للبورجوازية وارتمائها في أحضان التحالف الاستعماري الرجعي وأزوارها عن

الجماهير... تستطيع اكتشاف مدى صواب الموقف الشعبي منها من حيث المبدأ (إن لم يكن من حيث الصيغة) لقد كانت الجماهير تعلق آمالا كبيرة على وقوف البورجوازية إلى صفها في صراعها ضد التحالف المنوه به، لكنها كانت قد انساقت وراء بريق مصلحة كاذبة لوح لها به الاستعمار وولت ظهرها للشعب وتنكر لمواقفها الوطنية السابقة، بل الادهى أنها تحالفت معه فما هو العقاب الذي يستحقه موقف كهذا ؟ أن الجماهير التي وجدت نفسها عزلاء أمام أعدائها الطبقيين بعد أن تخلت عنها حليفتها في منتصف الطريق قد كانت منصفة ومحقة في هذا التأديب، بحيث لم يخل خوضها للنضال ضد الوضع الجديد من أن توجه «عنايتها» كذلك إلى البورجوازية، مذكرة إياها بشناعة مواقفها.

تلخيص وخلاصـــات

1 ـــ شكلت البادية المغربية خلال كل تاريخها القديم والحديث قطب الرمى في الصراع الاجتماعي. ولم يكن ذلك ناتجاً عن ظروف طارئة بل عن شروط تاريخية (اقتصادية ـــ اجتماعية وسياسية) متحكمة، وما تزال، في مجمل أوضاعها.

. فهي في الماضي كما هي الحال اليوم، تعتبر من أهم مصادر الانتاج في المجتمع، وموطن أغلبية القوى العاملة، لذا فقد كانت محط استغلال الإقطاع القديم بأنواعه ومحط قمعه كذلك، ولعبت جماهيرها من ناحية أخرى المنبع الاساس للتقدم الاجتماعي والثورة.

ولم يتغير الامر في شروط مرحلة الاستعمار، تصاعد الاستغلال بمشاركة المعمرين الفرنسيين في انتزاع أجود أراضي الفلاحين واستقوى استثمار عمل العمال الزراعيين في ضيعات المعمرين، وازداد القهر السياسي، وكانت أمثولة تاريخية دالة جداً، حين أضطر الاستعمار، من أجل مواجهة المد المتعاظم لقوى الثورة التي واجهه بها الفلاحون، للتحالف مع الاقطاع حتى يستطيع التماسك مام شدة عنفها، وفي سبيل هذا التحالف حافظت البادية على النمطين (القديم الاقطاعي، والجديد الرأسمالي الاستعماري) من الاستغلال، وتكرست البنيات والعلاقات الاجتماعية القديمة متساكنة مع النمط الجديد وأدى الفلاحون الثمن كله.

في مثل هذه الاوضاع لم يكن منتظراً من الفلاحين سوى تصعيد التحرك لمواجهة التحديات الجديدة المفروضة على شروط حياتهم فلم يترددوا. ولم تكن 1955 ـــ 1956 حتى أعادت الجماهير الفلاحية، ومعها وفي طليعتها هذه المرة الطبقة العاملة وعموم سكان المدن، الكرة من جديد مستعيدة أمجادها الرائعة في الريف والصحراء والاطلس، وهكذا انحلت، أو كادت، نتيجة ذلك سلطة الاقطاع والاستعمار، وأخذت مكانها بوادر سلطة جديدة شعبية حقا وثورية جوهريا في شروطها التاريخية.

ومن جديد أرغمت حركة الجماهير أطراف الاستغلال القديمة، ومعها هذه المرة البرجوازية المحلية، فتنازلت، ولكن ليس خارجها، أي للجماهير نفسها، بل فيما بينها أساساً. فعقدت

صفقة تحالف لمواجهة الوضع الثوري الجديد، وكانت مؤامرة 1956 الاستعمارية. وبدأت معها مرحلة جديدة من المواجهة.

لم يستطع جيش التحرير، باعتباره القائد، نتيجة لحداثة نشأته وتضارب اتجاهات قيادته، وقوة اليمين داخله، استيعاب طبيعة الطرف الجديد وما يطرحه من مهمات جديدة وأساليب عمل وتاكتيكات مخالفة لما قام عليه أصلا من أهداف باهتة وطموحات غامضة. فكانت ضربة 1956 الحاذقة عملية نقلت كل خصائص معسكر العدو إلى أوساط الجماهير فعم الارتباك والفوضى والانقسامات وتعدد المواقف وتناقضها، في حين استرجع التحالف الرجعي تماسك خططه ودقة تحديد أهدافه وضبط صفوفه وخضوعه عموماً لتوجيه قيادة واحدة.

إن من يغرق في التاكتيك من دون بعد أو أبعاد استراتيجية ويغلب الوجه التقني على حزب يجمع و يركز خيوط القيادة والتوجيه....يكون هذا مصيره، حين يتغير الموقف من حوله وتتبدل مواقع عدوه، أو يقنع عليه وجهه...فلا يعود قادراً أمام فقر أدوات التحليل لديه على التمييز بين العدو والصديق بين الحليف والخصم.

ومع ذلك فإن عنصر الزمن قد لعب دوراً كبيراً ــ إلى جانب الشروط التاريخية الشاذة نسبيا لنشأة جيش التحرير محضونا في الظل من أطراف عديدة ــ في هذه النتيجة غير المتناسبة مع زخم الحركة وتراثها التاريخي العظيم. هذه الواقعة التي فهمتها جيدا أطراف التحالف الرجعي وأسرعت في حل خلافاتها تحت ضغطها. فلو أتيح للجيش الوقت، ولو نسبيا، لحتّم عليه تطور الصراع تجاوز الكثير من الثغرات والنواقص التي عثرته وضبّبت رؤيته / وعلى ذلك فقد أدت الحركة أدواراً إيجابية في صيرورة الصراع الطبقي، فأسرعت بتطور وبروز العديد من الظواهر والمواقف، وكشفت بسرعة الضوء عدة أقنعة (انتهازات وخيانات) وجذرت من مواقف برجوازية المدن الصغيرة، ودعمت تحررها السريع من قيادة البرجوازية واستقلالها عنها.

أما موقفها النقدي ...اتجاه حزب البرجوازية الذي تخلى عنها ــ خصوصًا خلال انتفاضة منطقة الريف ــ فقد كان حدثا رائعاً وسبقاً تاريخياً مشهوداً في التعرية والكشف والتجاوز.

ثانيا : أما الطبقة العاملة فلم يكن من المنتظر لطاقتها النضالية، أمام فقدانها تنظيمها السياسي الخاص القائد والموجه لخططها وتحركاتها، أن تتصرف خارج مصارف الانتهاز والنظرة التاكتيكية المحدودة والضيقة. وهذا ما هيأته لها تماما وبأمانة قيادتها النقابية البورجوازية، وهكذا خسرت الطبقة العاملة، في مقابل مكاسب مهمة حقا على مستوى مصالحها المباشرة، مصالحها السياسية البعيدة؛ بتخليها عن حليفها القوي والامين والجدير بكل ثقة : جماهير الفلاحين في البادية التي بقيت تتخبط وحدها متعثرة الخطى حين فقدت سند المدينة لها وفقدت أكثر من ذلك : الطبقة العاملة (عقلها الموجه ورمحها الحادة). وأمست كما يقول المثل

«لاحمار لا سبعة فرانك» : خسارة من واجهتين تلك هي النتيجة الحتمية، والدرس التاريخي المستخلص من كل انفصال سياسي وتنظيمي بين هاتين الطبقتين التوأمتين، ذلك أن «السبع فرنكات» نفسها التي كنسبتها الطبقة العاملة خلال نفس الفترة قد تعرضت، كما نعرف، للسرقة من جديد، بمجرد ما تمت سرقة «الحمار» نهائيا.

ثالثا : أما البورجوازية الصغرى في المدن، فقد وضح أي طاقة فعالة تخسرها حركة الشعب بخسارتها لهذا الطبقة، وظهر أكثر من ذلك مدى ما تصل إليه مواقف وممارسات هذه الطبقة من انتهاز مخز بل وخيانات حين تفقد مربيها وضابط تحركها الرشيد أي : حزب الطبقة العاملة.

إن البورجوازية الصغيرة في المدن قبلت بكل بساطة الوضع الاستعماري الجديد مبدئياً، وقررت الاستفادة من شروطه، وقدّست عموما، العمل في الشرعية والتخلّي عن غيره، وصممت على ألا يكون لها موقف واحد ومحدد إلا حين يتصل الامر بتقديم الخدمة ــ بالمجان أحيانا ــ للتحالف الاستعماري الجديد. ولم تكن خصائلها البارزة مؤهلة لوعي الوجه السياسي من المشكل، فاستعارت من خردة الاستعمار الجديد التي أعاد صقلها جيداً ليأخذ بريقها المزيف لب أمثالها من المتهافتين على كل سلعة براقة، ايديولوجية «الحلول التقنية المعجزة» لحل كل المشاكل. ولو أخذت هذه المشاكل صيغة تناحر طبقات، ولم تكن غير الطبقة السائدة، قوة تملك إمكانية شراء بضاعة التقنية «المستهلكة» هذه، وقد وظفتها بالحذافير لقمع الحركة في آخر التحليل، أن هذا في العمق هو نفس موقف العناصر التي رفضت العمل في الشرعية، وحاولت عن طريق العمل المعزول (بعد أخطاء مشينة سابقة اتجاه الحركة في البادية) أن تصحح ما أفسدته بفساد لا يقل في الجوهر عن السابق. وقد استمرت أنجح عناصرها وهي قليلة، في الامتداد الجديد للحركة (جيش التحرير) في الصحراء. قبل أن ينتهي هو الآخر إلى الحائط متخبطا في نفس التناقضات ــ من حيث النوع ــ التي انهت وجود جيش التحرير في عموم بادية المغرب.

رابعا : أما البورجوازية : فقد برهنت على أنها الخادم المطيع الذي لا يتردد في تنفيذ جميع طلبات «الطبقة السائدة» حين يتعلق الامر بمواجهة الجماهير. إنها بورجوازية أكلتها تناقضاتها الداخلية، ولم تكن محتاجة حتى إلى اثارة الحكم ومناوراته لتضرب بعضها ببعض. فتنجز هذه المهمة تلقائيا وبكامل الارتياح، مادام الأسياد راضين. لقد كان همها، الذي أخذ عقلها (إن كان لها عقل) هو السهر الدؤوب على نسف ذاتها، باذلة كل جهد لكي تبنى بخبرة أطرها جهاز السلطة القمعي بدون أدنى شرط أو تحفظ ما دام الهدف يتعلق بلجم جماهير الفلاحين في البادية. التي خرجت عن الطاعة، وعن كل طاعة ومنها طاعة حزبها، لقد صنعت بيدها ومن جسدها العصا التي سترجع عليها هي نفسها من أجل رهان خاسر وهي وفاسد منذ البدء بدون حتى كلمة شكر أو تعبير عن حسن النية من طرف خصمها.

والادهى وهمها بإمكانية اكتساب شعبية ـــ هي أحوج إليها في خلافاتها آنذاك مع السلطة ـــ عن طريق استغلال نفس الجهاز التي يعاني منه الفلاحون الامرين، فلم يكن المسؤول الحزبي سوى نفس المسؤول الاداري فيها. وهل من المستطاع أن يحل منطق العجز الذاتي هذا (أي قلة الاطر لديها) تناقض هدفين في عمل واحد : بناء جهاز السلطة؛ وتنظيم الجماهير في ظل شعارات وطنية مزيفة ومن طرف نفس الشخص (؟!) هذا التناقض الذي عانت منه أطرها المسؤولة في البادية حل موضوعيا بتحويل «موضوعي» للاطار من المصالح التي كانت تربطه بحزبه إلى مصالحه المكتسبة حديثا مع جهاز السلطة المخزني، فاتكأ على اتجاه القمع كما كان منتظرا له تماما أن يكون أما أوهام الذين يريدون أن يحتفظوا بكرسيين في آن معا، فقد تمزقت هباءاً بينهما كاشفة عن زيفها الاصلي.

ثالثا : أما البورجوازية الصغرى في المدن، فقد وضح أي طاقة فعالة تخسرها حركة الشعب بخسارتها لهذا الطبقة، وظهر أكثر من ذلك مدى ما تصل إليه مواقف وممارسات هذه الطبقة من انتهاز مخز بل وخيانات حين تفقد مربيها وضابط تحركها الرشيد أي : حزب الطبقة العاملة.

إن البورجوازية الصغيرة في المدن قبلت بكل بساطة الوضع الاستعماري الجديد مبدئياً، وقررت الاستفادة من شروطه، وقدّست عموما، العمل في الشرعية والتخلّي عن غيره، وصممت على ألا يكون لها موقف واحد ومحدد إلا حين يتصل الامر بتقديم الخدمة ـــ بالمجان أحيانا ـــ للتحالف الاستعماري الجديد. ولم تكن خصائلها البارزة مؤهلة لوعي الوجه السياسي من المشكل، فاستعارت من خردة الاستعمار الجديد التي أعاد صقلها جيداً ليأخذ بريقها المزيف لب أمثالها من المتهافتين على كل سلعة براقة، ايديولوجية «الحلول التقنية المعجزة» لحل كل المشاكل. ولو أخذت هذه المشاكل صيغة تناحر طبقات، ولم تكن غير الطبقة السائدة، قوة تملك إمكانية شراء بضاعة التقنية «المستهلكة» هذه، وقد وظفتها بالحذافير لقمع الحركة في آخر التحليل، أن هذا في العمق هو نفس موقف العناصر التي رفضت العمل في الشرعية، وحاولت عن طريق العمل المعزول (بعد أخطاء مشينة سابقة اتجاه الحركة في البادية) أن تصحح ما أفسدته بفساد لا يقل في الجوهر عن السابق. وقد استمرت أنجح عناصرها وهي قليلة، في الامتداد الجديد للحركة (جيش التحرير) في الصحراء. قبل أن ينتهي هو الآخر إلى الحائط متخبطا في نفس التناقضات ـــ من حيث النوع ـــ التي انهت وجود جيش التحرير في عموم بادية المغرب.

رابعا : أما البورجوازية : فقد برهنت على أنها الخادم المطيع الذي لا يتردد في تنفيذ جميع طلبات «الطبقة السائدة» حين يتعلق الامر بمواجهة الجماهير. إنها بورجوازية أكلتها تناقضاتها الداخلية، ولم تكن محتاجة حتى إلى اثارة الحكم ومناوراته لتضرب بعضها ببعض. فتنجز هذه المهمة تلقائيا وبكامل الارتياح، مادام الاسياد راضين. لقد كان همها، الذي أخذ عقلها (إن

كان لها عقل) هو السهر الدؤوب على نسف ذاتها، باذلة كل جهد لكي تبنى بخبرة أطرها جهاز السلطة القمعي بدون أدنى شرط أو تحفظ ما دام الهدف يتعلق بلجم جماهير الفلاحين في البادية. التي خرجت عن الطاعة، وعن كل طاعة ومنها طاعة حزبها، لقد صنعت بيدها ومن جسدها العصا التي سترجع عليها هي نفسها من أجل رهان خاسر وهمي وفاسد منذ البدء بدون حتى كلمة شكر أو تعبير عن حسن النية من طرف خصمها.

والادهى وهمها بإمكانية اكتساب شعبية ــ هي أحوج إليها في خلافاتها آنذاك مع السلطة ــ عن طريق استغلال نفس الجهاز التي يعاني منه الفلاحون الامرين، فلم يكن المسؤول الحزبي سوى نفس المسؤول الاداري فيها. وهل من المستطاع أن يحل منطق العجز الذاتي هذا (أي قلة الاطر لديها) مناقض هدفين في عمل واحد : بناء جهاز السلطة، وتنظيم الجماهير في ظل شعارات وطنيه مزيفة ومن طرف نفس الشخص (؟!) هذا التناقض الذي عانت منه أطرها المسؤولة في البادية حل موضوعيا بتحويل «موضوعي» للاطار من المصالح التي كانت تربطه بحزبه إلى مصالحه المكتسبة حديثا مع جهاز السلطة المخزني، فاتكأ على اتجاه القمع كما كان منتظرا له تماما أن يكون أما أوهام الذين يريدون أن يحتفظوا بكرسيين في آن معا، فقد تمزقت هباءاً بينهما كاشفة عن زيفها الاصلي.

وبالنسبة للتقسيم الاداري المنسجم والمتطابق مع التقسيم القبلي والذي وقع نتيجة التحالف الاستعماري ــ المخزني القديم، فقد وقع الحفاظ عليه وتكريسه بمساهمة من البورجوازية، بل إن تنظيم حزبها في البادية قد سار على نفس النسق، وكيف له أن يخرج عن شروط حضانته الاستعمارية الجديدة.

وفي انتفاضة الريف المباركة، اخذت الجماهير نصيبها الذي تستحقه من النقد بالممارسة وكانت لها فرصة للمراجعة والتمحيص تخلت عنها بعناد مصرة على أن السبب وراء الأحداث كامن في (رغبة الاستعمار في الرجوع) ناسية أنها لم تكن الا ضيفاً غير مرغوب فيه أحيان لديه.

ان بلاهة البورجوازية في توهيم نفسها أنها تملك السلطة بوجودها في الحكومة وامثالها من الاجهزة الادارية... الشكلية، هي نفسها قد انعكست على مواقفها في البادية. لقد كان واضحا أن من حسم مشكل السلطة حقا في «المركز» باستيلائه على اجهزتها الحقيقية (الجيش ــ الامن ...) هو من يستطيع حسمها في النهاية لصالحه في البادية.

خامسا : أما الطبقة السائدة ومن ورائها الاستعمار فقد كانت فارس الميدان بلا منازع الا إذا كان (المنازع) من طينة تربي عليها عضلاتها، كانت تستند الى خبرة تاريخ طويل في ممارسة السلطة وما تقتضيه من مقومات الدس والتناور والتآمر وكل ما يمت الى خبث التسلط الطبقي بقرابة الدم والاصل، حلت تناقضاتها الداخلية بدهاء، وعلى النقيض من تبلد

البورجوازية التي تخلت عن قوتها الوحيدة الممكنة في البادية : جماهير الفلاحين (فتخلت عنها الاخيرة بالتبعية)، ارتكز الاقطاع المركزي على الاقطاع الجهوي وعلى المعمرين، ولم يفرط فيهما الا حين الضرورة القصوى، وعرف اكثر من ذلك كيف يلعب بتناقضات البورجوازية بمختلف فصائلها ومستوياتها، بل وكيف يستعملهم لتنفيذ مجموع خططه موهما أياهم بانها خططهم الخاصة، مخفيا، نفسه دائما وراءهم بعيدا عن سخط الشعب وعن غضبه محافظا بذلك على نقاوة مغشوشة وأبوية للجميع محايدة، زائفة.

وفي لقائهم الحميم امام مشكل البادية دل الاقطاع والبورجوازية ومن ورائهما الاستعمار على مدى الوحدة المتينة التي يلتجئون الى الاخذ بها حالما يتمثل الخطر الاكبر ــ الجماهير ــ على مجموع مصالح الاستغلال كيفما كان مستواها، ومن اجل تثبيت السلطة، وما احتيج اليه من أجل ذلك من أطر ادارية ، وتعارن الاطراف ثلاثتهم دون أن يتمكنوا من تحقيق ذلك الا بعد جهد جهيد وزمن مديد، وبذلك اعطوا برهانا آخر على الضعف العام والعميق الذي يميز كلا الطبقتين رغم دعم الاستعمار، أمام قدرات وطاقات الجماهير على حل مشكل السلطة ومشكل أطرها حينما تكون في وضع ثوري حقا.

سابعا : لقد كان امتداد حركة جيش التحرير التحريرية الى الجنوب، بعد المؤامرة وامتداد واستمرار عملها على ثلاث جبهات : الصحراء وموريطانيا ودعم الجزائر. خطا سديدا تماما ومتوافقا أشد التوافق مع شروط الوضع الجديد الذي شكلته مناورة التحالف الرجعي، لقد كان فرصتها الوحيدة للاستمرار واعادة البناء وتقوية السلطة الشعبية الفتية في شروط لا يستطيع معها الحكم ــ الا بتحرج بل ومغامرة ــ مواجهتها علنا ومحاولة تصفيتها، كما صنع في أماكن أخرى، الا أنها سقطت في اخطاء كبيرة لم يكن لها معها ــ رغم منطلقها السديد ــ أن تستمر منتصرة على اعدائها المتربصين :

أ ــ عدم تحديدها المضبوط لاهدافها السياسية وليس العسكرية، فقط، القريبة المدى، وعلى الاخص البعيدة المدى (الغرق في التكتيك).

ب ــ عدم تنظيم الجماهير في اشكال ممارسات سياسية واقتصادية ــ ليس عسكرية فقط ــ تحت شروط برنامج مفصل وخاص بالمنطقة «المحررة» على الاقل.

ت ــ وعلى العكس من ذلك، اصطنع جيش التحرير علاقة سيئة وغير صحيحة مع جماهير المنطقة، بالاخص في مسألة الدعم المادي، التي كانت تؤخذ حين الضرورة (بعد أن حجبت الحكومة عنهم معوناتها غير المباشرة، في محاولة ناجحة لخنق تحركهم ذي الطابع العسكري الصرف، وضربهم بالجماهير في المنطقة خصوصا) قهراً من طرفها امام الحاجة الحيوية لذلك (الجوع) وافتقاد أطر تنظيمية وعمل سابق معها يضمن الدعم الثابت والدائم والطوعي الواعي.

ث ــ قبولها الانعزال عن جماهير المدن عموما الذي فرضته الحكومة عليها، وضعف محاولاتها لتجاوز ذلك، الا ما كان يجري ــ بشكل دعائي فقط ولكنه هزيل مع ذلك ــ عن طريق (حزب الاستقلال).

ج ــ سقوطها العملي ــ بعد مجهود ماض طويل من الاستقلالية ــ تحت هيمنة (حزب الاستقلال) وبالاخص من شخص المرحوم علال الفاسي واتباعه من جهة، أو أخصامه في الحزب من جهة أخرى.

ح ــ السقوط في نزعة عسكرية مبالغ فيها، واحتقار عملي لمضمون العمل السياسي، والنتيجة الافتقاد الى البرنامج في هذا الصدد.

خ ــ بداية نزعة زعامية ــ بيروقراطية لدى بعض قياداتها، ووقوعها في خلافات ليست من طبيعة سياسية وانما هي خلافات قيادية ذاتية.

د ــ موقف انتهازي من تناقضات الشعب الناتجة عن النزعات «القبلية» وقبولهم نتيجة ذلك الانسياق عموما مع عصبة قبلية او قبائل المنطقة (آيت باعمران) ضد عناصر القبائل النازحة من الشمال (الاطلس ــ الريف...)

ذ ــ تقيدها باغلال الدعم المادي الحكومي غير المباشر، وربما غير المقصود، لفترة لم تكن الاخيرة فيها متضررة من ذلك ان لم تكن مستفيدة كورقة ضغط في المفاوضات، ومن ثم عدم تقديرها المغزى السياسي لذلك الدعم المؤقت، وخطره على المدى القريب والبعيد خصوصا. فخسرت بذلك دعم الشعب عند الاحتياج، وخسرت بالتالي كيانها بالنتيجة حين لم تعرف كيف تستفيد من شروط الوضع المؤقت لتهييء شروط دعم مادي وسياسي ثابت ومتنام بالاعتماد أساسا على تنظيم الجماهير.

وفي العمق، وعند آخر التحليل، اين يكمن المشكل حقا ؟ أنه في فقدان الجماهير في قمة نهوضها الثوري الى حزب سياسي طليعي معبر عن فكر وخط اكثر أجنحتها طليعية ومقدرة وطول نفس ووضوح خط : الطبقة العاملة في المدن والبوادي.

6 ــ انتفاضة «1958» المدوية في منطقة الريف، كانت التعبير الصارخ والعنيف ضد المؤامرة وضد مفعول نتائجها على حياة ومعيشة الجماهير الكادحة انها من البقايا الثرة لغنى نضالات 55 ــ 1956، ولكنها كانت آخرها قبل أن تنتقل الحركة الى طور، بل أطوار جديدة، وجاءت طليعية المنطقة ومبادرتها لمثل هذا التحرك الشعبي الرائع نتيجة تاريخية ومنطقية لشروط الميز الاقليمي الذي اصطنعه منطق المصلحة الاستعمارية قبلا، والذي تكرس بتثبيت الوضع الجديد لنفس الشرط الاستعماري القديم، وكانت بذلك تسجيلا تاريخيا لواقع عدم الاختلاف النوعي بين المرحلتين، واكثر من ذلك، لوعي الجماهير بحقيقة هذه المهزلة ــ المأساة، التي قدمت لها تعويضا عن كل تضحياتها المجيدة.

ولم تنخدع جماهير المنطقة بالنداءات...، بل رفضت الانصياع الى الخزعبلات التي فقدت بريقها وشرعيتها المضللة، وسارت قدما في طريقها، ووضع بذلك ما كانت تفهمة هي وتقصده خلال مرحلة نضالها السابق من مختلف الشعارات المزجاة لها. إنه الاستقلال الشامل لمجموع الوطن (وحدة الوطن) وتحقيق السيادة الفعلية لها عليه، أما الصيغ الشكلية لتلك الشعارات فلم تكن سوى تكتيك لجمع الشمل بمن فيه بعض من كانت تستهدف تجميد تحالفه مع العدو الرئيسي (الاستعمار).

أما الطبقة السائدة فقد فهمت من ذلك كل شيء، واستخلصت ما يلزم استخلاصه، أو هي تأكدت منه بالاحرى، وحزمت أمرها على الجد، فبعد أن حاولت استعمال البورجوازية لتمرير جريمة قمع الانتفاضة، رفضت هذه (ربما لأول وآخر مرة) أن تغسل يدها بدم لن يتحول بين يديها الى ذهب، أما البورجوازية الصغرى فقد تقبلت المشروع ــ المجزرة بطيبة خاطر ما دام يفتح أمامها مجال تنفيذ مخططاتها التقنية ــ المعجزة وييسر لها فرصة استقلالها التنظيمي عن حزب البورجوازية وبناء تنظيمها السياسي الخاص متكئة على دعم الجهاز الاداري وامكانياته «الملغومة».

وكون الاقطاع استطاع التأثير ــ المباشر أو غير المباشر ــ في اثارة الانتفاضة بل وحتى توجيهها، فهذا شيء واضح في توقيتها غير المناسب لانطلاقتها من غير تنسيق مع أقاليم أخرى. وكذا في الطابع العفوي الشامل لها وفي شعاراتها المغشوشة كثيرا، وأكثر من هذا في عناصر قيادتها اليمينية، وفي البلبلة والفوضى وتعدد الشائعات من مختلف الأنواع والتي تخبطت وسط تأثيراتها الضارة بل القاتلة، وتأكد كل ذلك بشكل أقوى حين المواجهة الدموية والوحشية التي تعرضت لها، واتضح ما كانت الرجعية ترغب فيه من هذه الاثارة للشبل قبل استئساده كفرصة لعرض العضلات و «تأديب» «الغوغاء» وتصفية بقايا «أوهامهم» حول الاستقلال الوطني الذي فهموه «خطأ» كاستقلال خاص بهم فقط ما داموا هم وحدهم الذين دفعوا ثمنه من حرياتهم ومعاشهم بل ودمائهم.

وهذه هي بالضبط، كانت اخطاؤها التي قتلتها وهي في المهد.

تعقيــب واستطـــراد

بين ظروف كتابة هذا المقال، وظروف اليوم، إن بالنسبة للوطن أو بالنسبة لكاتبه، فروق كثيرة، ولو أمكن لصاحبه أن يعيد كتابته في الشروط الحالية، العامة والخاصة، لكان تغير في جانبين ثانويين ولكنهما هامين مع ذلك :

1 ــ لهجته التي راعت مواقف بعض القوى التي كانت يومها متقدمة نسبيا، أما اليوم فقد باعت كل شيء حتى رموزها، وتبدلت هي الاخرى في «لهجتها» اتجاه الشعب، وكان الاحرى بنا ان نغير اتجاهها كذلك، ان (حزب الاستقلال) مثلا الذي كان بالامس البعيد حزبا لكل الشعب ثم حزبا لجزء منه مع زعامة الوطني النبيل «علال الفاسي» انتهى اليوم كي يصبح حزب الاقلية التي كان يحاربها المرحوم بنعت «المعمرين الجدد»، انتهى الى حزب حاكم في : ماي وفي يونيو 81 وبـ «اصلاحات» التعليم... وسبحان مبدل احوال الثمر الى قطط أنيسة.

[وبالمناسبة، فسنصنع جيلا وواجبا اذا عمدت هيئاتنا الوطنية المختلفة وعمد مثقفونا... لانقاذ الزعيمين الوطنيين : بلحسن الوزاني وعلال الفاسي... من الاستثمار السياسي ــ الحزبي (الانتخابي) وارجاعهما الى مكانهما ومكانتهما في التاريخ الوطني ــ الشعبي للامة وضدا على من تنكروا للرسالة وشوهوا التركة]

2 ــ اغلب أطروحات وأفكار المقال غير موثقة في النص، بالرغم من أنها غير ذلك في واعية صاحبه، وفي جميع الاحوال فما يسوغ للمقالة ويعوض عن هذا «العيب» ــ الشكلي هو الآخر ــ هو رهانها التنظيري والمنهجي والتوجيهي. في محاولة لصياغة رؤية وقراءة لتاريخ غير مؤرخ ولمناطق بقيت في الظل بمآسيها وشهدائها، وفي سبيل تأسيس كتابة للتاريخ المغربي الحديث مضادة للكتابة السائدة حتى الآن من طرف المساهمة في مثقفي البورجوازية.

وبعـد ...

فكيف هي الاحوال اليوم ؟

التطور الموضوعي لاحوال العلاقة : مدينة /بادية، انتهى الى نزوح بدوي نحو المدن في صورة تشبه الغزو المنظم، سواء من طرف الشباب الذي دفعته العطالة و «الترانزستور» و «الكار» او جذبته أضواء وملاهي المدينة ومشاغلها التافهة المنبعثة من حاجيات مزيفة (من مهن «مسح الاحذية»... الى القحابة والقوادة..)

أو من طرف أسر دفعتها «القروض الفلاحية» الى بيع ارضها لبيروقراطية طمحت الى تكوين رأسمال كبير، فلم تجد أمام تفاهة ما بين يديها منه، وغباؤها في ميدان الاستثمارات الصناعية والمالية... وكذا ضغط الرأسمال الاجنبي ...الخ سوى التهافت على اراضي الفلاحين الصغار.. في اطار سياسة تقوم الفلاحة (التصديرية أساسا) كاسبقية الاسبقيات. وبذلك تطردهم من اراضيهم وقراهم (وهي تبكي وتشتكي) نحو مدن غير مستعدة لاستقبالهم الا كعاطلين، مكدسين كالحشرات في مدن الصفيح.

هكذا، بدلا من أن «تغزو» المدينة البادية اقتصاديا ــ اجتماعيا وحضاريا لتطويرها وتقديمها... كما كان حال تاريخنا الحضاري القديم او تاريخ البورجوازية الاوربية.. فقد حصل العكس، تبدت المدن المغربية بصورة شائهة بل وهمجية ومنحطة بشكل فظيع، وكالخاتم حول الاصبع، طوقت كثير من المدن باحياء الصفيح،

واستحالت المدن التقليدية (القديمة أو الاهلية كما قد تسمى) الى خراب تتكدس في المنزل الواحد منه (بني أصلا لعائلة كبيرة من 3 أو 4 أسر) 50 خمسين أسرة أحيانا (فاس). ولم تعد المدينة الحقيقية سوى جزر صغيرة متطرفة غالبا (في الضواحي) أنيقة جداً، مضادة جداً، نظيفة جداً.. حتى لا قوت فيها للذباب.. تحرس فيها الكلاب أقلية من «ضيوفها» الثقلاء يضعون رجلا هنا ورجلا هنالك، يحملون الجنسية المغربية حقا اما وطن «هم» الحقيقي وحتى المهم فهو المال ورأسه أنى كان وبالاخص في (المصارف) الاجنبية بباريس أو غيرها.

[اما البادية فلم تستفد من المدينة سوى عاداتها السيئة جداً: المخدرات بانواعها ــ الجرائم بمختلف أشكالها...]

ان تطويق المدن من البوادي قد تحقق موضوعيا، وبدون وعي وارادة من الجماهير الفلاحية نفسها بل بارادة من شروط الاستعمار الجديد، وهو اليوم يكاد يكون في انتظار إشارة من الوعي ليتحول الى فعل الى قيامة عامة لا تبقي ولا تذر، ونسأل الله السلامة والعافية.

حقا لقد كدنا نصبح مرة أخرى أمتين في وطن كما كان حالنا أثناء العهد الاستعماري القديم، أمة المستضعفين من جهة وأمة المستكبرين أصحاب الكرافات والسيجار والويسكي وتبادل النساء، في الجهة المقابلة.



هـادي العلـوي

هــوامـش ضـد نحويـة

مرت بنا هيفاء مجدولة
تركية تنحـى لتركـــــيْ
ترنو بطـرف فاتن فاتر
اضعف من حجة نحـوي

ابن فارس اللغوي

لكل لغة معضلاتها ووسائلها لحل هذه المعضلات. وفي كل لغة اشكال من القصور عن الاستجابة الكاملة للحاجات المستجدة، بحكم التفاوت بين طور النشأة والاطوار اللاحقة، فاللغة تظهر في بيئة زمكانية معينة فتعكس محتويات هذه البيئة وتتحدد بمقتضياتها، ثم تنتقل، مع استمرارها في الوجود، الى بيئات اخرى قد تختلف كثيرا او قليلا عن بيئة النشأة فتواجه امتحان الوفاء بالتعبير عن المستجدات التي لم تعهدها من قبل. ويفرض هذا التحدي على أهل اللغة استثمار طاقاتها الداخلية الى الحدود القصوى باستخدام ادوات الاستخراج المعروفة وهي : الاشتقاق، النحت والتركيب، التوليد، والاقتباس من اللغات الاخرى، المسمى في العربية : التعريب.

في اثناء هذا التنقل في البيئات الزمكانية المختلفة تواجه اللغة حالة الانفصام بين المحكي والمكتوب، هو ما اصطلحنا عليه بالعامية والفصحى. ويرجع هذا الاختلاف في اصله الى اختلاف المجال والغرض اللذين تستعمل بهما اللغة، فالمكتوب يختص عادة بالتعبير عن الفكر، أي الوعي المتقدم للانسان. والمحكي عن الحياة اليومية، اي عن الوعي العادي ـــ العفوي ـــ غير المرتبط بمستوى معين من الثقافة المتحركة. وكان هذا الانفصام في العصور الماضية اشد منه في العصر الحاضر، وذلك لاسباب منها : ضيق رقعة الثقافة في المجتمعات القديمة، ضعف وسائل الاتصال بين المجتمعات او اجزائها، نتيجة لتخلف وسائل المواصلات، ومحدودية وسائل النشر والبث. وقد ادت هذه العوامل في جملتها الى نشوء اللهجات من اللغة المحكية. ومن المعروف عند علماء اللغة ان المحكي يتغير بوتيرة اسرع من المكتوب، ولذلك تظهر اللهجات من المحكي لا من المكتوب، لان الاخير يحافظ على وحدته بتأثير ارتباطه المباشر باسس اللغة الام وقواعدها من جهة، وكونه من جهة اخرى انعكاسا للوعي المثقف الاقل خضوعا للضرورة من الوعي العادي.

ان هذا هو السبب في ان العصر الحديث لن يشهد تكون لغات جديدة تتفرع من اللهجات، وذلك بالنظر لاتساع رقعة المكتوب على حساب الحكي، وانتشار الثقافة، ولانه يسير نحو التقنين والسيطرة على السيرورة العفوية للتاريخ، هذا فضلا عن انصرام مرحلة نشوء القوميات، المساوق لنشوء اللغات الجديدة، وسيشهد العصر على العكس من ذلك — وهو يشهد منذ الآن — تقليصاً للهجات بادماجها وتذويبها في اللغة الام، المكتوبة، وعلى المدى البعيد : تقليصا للغات يتماشى مع الاتجاه العالمي نحو التقارب والتوحيد، والخلاص من مشكلة تبلبل الالسن.. ويطمح الماركسيون الى لغة مشتركة ستعم الدنيا في الاطوار الاخيرة من المجتمع الشيوعي، المنشود بناؤه على نطاق عالمي.

تتيح لنا هذه الحقائق في جملتها مشروعية المزاوجة بين العامية والفصحى من جهة، والعمل على حل مشكلات اللغة بحرية اكبر تتجاوز قيود فقهائها وتحكماتهم الارهابية من جهة اخرى. وسيفرض علينا ذلك:

أولا عدم التمسك الجامد بقواعد النحو

ثانيا احترام العامية والاستفادة منها في إغناء اللغة المكتوبة، مع السعي في نفس الوقت الى تطوير العاميات وتقريبها من الفصحى بعد تيسير الاخيرة وتحريرها من فروض النحاة،

وثالثاً استثمار طاقة اللغة العربية الى الحدود القصوى بعيدا عن ارهاب فقهائها، ويقتضينا ذلك عدم الاكتفاء بالاشتقاق لاستخراج المفردات والمصطلحات الجديدة وانما التوسع في النحت والتركيب، والتوليد، والتعريب.

كنت قد تحدثت عن هموم مماثلة في «مواقف» — الحداثة في اللغة عدد 25 — واعطي هنا، في «الثقافة الجديدة»، امثلة ووقائع برنامجية للمطالب المنشودة املا ان تساعد في اضاءة اصول التعامل مع اللغة وتفتح للكتاب بعض الابواب التي اوصدها النحاة في وجوههم..

سعى اللغويون القدماء والمحدثون الى تصنيف حرية استعمال اللغة واستحدثوا في غضون ذلك قيودا لم يلتزمها العرب انفسهم قبل نشوء النحو وقد تغافلوا في نفس الوقت عن مبدأ التطور ومستلزماته فسيّجوا قواعدهم النحوية والصرفية باسوار صلدة يصعب اختراقها. ورغم ان زملاءهم فقهاء الشريعة قد اهتموا كثيرا بالرخص ومالوا الى التساهل في امور عديدة، لا سيما في اوانات النضج التي شهدت ظهور الفقهاء الكبار، فان فقهاء اللغة اداروا ظهورهم للمرونة التي استخدمت بها اللغة قبل ظهور النحو، فلم يعتدوا بالنصوص الخارجة عن قواعدهم وانما اولوها لتنسجم مع تلك القواعد، أو وضعوها على ملاك الشذوذ الذي لا يصح ان يصاغ في قاعدة، وأورد هاهنا جملة امور :

الخروج على الاعراب في القرآن : وقد ذهبوا في تأويله مذاهب شتى، وكأنهم تحسسوا فيه لحناً فتحاشوا الاعتراف به والتمسوا له المعاذير، ومؤخرا تجرأ لغوي شاب فصرح ان الموارد التي خرج فيها القرآن على الاعراب هي لحن حقيقي، لكنه ليس ناتجاً عن سوء استخدام اللغة أو عدم المعرفة بها، بل هو حالة مرتبطة بأصل قبنحوي يفيد أن الاعراب وجد لايضاح المعنى وصيانته من اللبس. فاذا توفر الامن من الالتباس دون الاعراب جاز إهماله. (انظر : د.تمام حسان ــ القرائن النحوية واطراح العامل والاعرابين التقديري والمحلي ــ مجلة اللسان العربي م11 ج 1 /1971).

ومن تطبيقات هذه القاعدة في النصوص :

قول منسوب لامرىء القيس يستشهد به النحاة انفسهم:

فاليوم اشربْ غير مستحقب ... اثما من الله ولا واغل

وقد أهمل اعراب المضارع المرفوع وجعله ساكنا. وأود التنبيه على مدى غفلة النحاة وعدم تدقيقهم فهم يتداولون هذا البيت لامرىء القيس دون ان يثير انتباههم ما فيه من نفس اسلامي يؤكد أنه منحول.

وبيت لحسان بن ثابت :

فجعلتني غرض اللئام فكلهم ... يرمي بلؤمه بالغاً كمقصر

والشاهد هنا هو تسكين الهاء بدلًا من كسره وهو اعرابه كضمير مبني على الكسر.

ومن آثار المحدثين قول ابو نواس :

الا أيها القاضي الذي عم عدله ... فاضحى به في العالمين فريدا
قرأت كتاب الله تسعين مرة ... فلم ار فيه للشراب حدودا
فان شئت أن تجلدْ فدونك منكباً ... صبوراً على ريب الزمان جليدا

وقد سكن ابو نواس فعل المضارع المنصوب بأن

ومن الشواهد المتأخرة هذا البيت للسراج الحميري، وقد وجدته في اوراق مخطوطة بمكتبة الامبروسيانا في ميلانو :

يا سائلي عن بناتْ نعش وطالعها ... في اشهر الروم هاك اسمع معانيها

فهنا سكن القائل «بنات» التي يجب ان تكون مكسورة، وكأنه اعتبرها مع «نعش» كلمة واحدة على سبيل الاصطلاح ويعطينا هذا الشاهد مثالا على التركيب في صياغة المصطلحات وسنتحدث عنه فيما بعد.

وقد تساهل القدماء في اعراب «ابو» فتركوها في حالة رفع دون اعتبار لموقعها في الجملة وكان ابو حنيفة يلتزم ذلك كما روى عنه الخطيب البغدادي، كما التزمها الشافعي في مواضع من «الرسالة» كقوله : اخبرنا سفيان عن سالم ابو النصر ــ انظر ص 89 من طبعة احمد محمد شاكر.. وقد تعودوا ان يقولوا علي بن ابو طالب ومعاوية بن ابو سفيان ويذكر الاصمعي ان قريش كانت لا تعرب «ابو» كما نعربها الآن.

وللشافعي في «الرسالة» مخالفات لقواعد النحو رتبها احمد محمد شاكر في فهرس وقال ان لكل منها وجهاً في العربية. وبغض النظر عن ذلك فان الشافعي تصرف هنا في تعارض مشهود مع النحاة. ومن هذه :

ــ عدم حذف ياء المنقوص النكرة . كقوله :

فرق النبي عمالا على **نواحي** ــ ص **415**

ولم يقل : نواح :

ــ تذكير وتأنيث العدد من دون التقيد بجنس المحدود. وهنا قوله :

ان صوم الثلاثة في الحج **والسبع** في المرجع عشرة ايام كاملة ــ ص **26**

فهنا قال «السبع» وكان يجب ان يقول : «السبعة».

ــ حذف أن المصدرية كقوله :

عليه يتعلم الصلاة والذكر فيها ــ ص **49**

بدلًا من : عليه ان يتعلم وهو تعبير عامي يستخدمه الشافعي فيعطي مثالا على امكان الدمج بين العامية والفصحى. ومن هذا القبيل ايضا ايراده عبارة لابن عباس جواباً على اعتراض حول احدى فتاواه :

«إمّا لَي فاسأل فلانة ..... ص 44

أي ان لم تصدق فاسأل فلانة وأصلها : «إما لا» فأمال الالف على طريقة العوام.

* * *

من ادوات الاستخراج الهامة التي وجدت في العربية وحرمها اللغويون : النحت والتركيب. وقد استخدمها الجاهليون لحل مشكلات النسبة الى الاسماء المضافة، مثل عبد الدار وعبد القيس وعبد شمس فقالوا : عبد ري وعبقسي وعبشمسي، وللنحت جذور ابعد في العربية، فقد رجح بعض اللغويين القدماء ان كل مفردة رباعية او خماسية هي من اصلين منحوتين. ومن امثلته : **دحرج** قالوا انها نحت من : دحر وخرج او حرج. وقال الخليل الفراهيدي **ان ليس** منحوتة من **لا ايس** وهو تخريج معقول لان الليس ضد الايس وهو الوجود. وهذه كلمة مشتركة مع

اللغات الهندوربية التي تستعمل الفاظاً مقاربة لفعل الكينونة. وقد استخدم الاسلاميون النحت لنفس الغرض فقالوا في النسبة الى ماء الورد : **ماوردي**، والى دار القطن ــ محلة ببغداد ــ **دار قطني** والى رأس العين ــ في مصر ــ **رسْعني**. وتتضمن الأخيرة اختزالاً شديداً حذف فيه ال التعريف والهمزة والياء ومن هذا القبيل قولهم في النسبة الى ابو هاشم : **بهشمي**. وابو هاشم من رؤوس المعتزلة وله مدرسة عرفت باسم البهشمية.

ومع ازدياد الحاجة الى النحت ينبغي التوسع فيه، لان القدماء استخدموه في حدود الحاجة ولا عبرة بما يقوله النحاة ان العرب لم يتوسعوا فيه فيجب ان لا نتوسع، ما داموا قد استخدموه في المواضع التي تستدعيه، وما دام قد وجد في اصل اللغة وقام بدوره في صياغة مفردات جديدة. ويجب على الكتاب المعاصرين عدم الالتفات الى اقوال النحاة أو مراعاة امزجتهم العقائدية، وان يتقيدوا بالحاجة المتزايدة الى استخدام هذه الاداة المهمة.

لقد ظهرت في هذه الحقبة من تاريخنا الحديث نحوت وتركيبات فرضت نفسها على الجميع. فصرنا نقرأ : **برمائي، كهرو مغناطيسي، بتروكيميائي** ... الخ ثم صار الكتاب يقولون : **قروسطي** للقرون الوسطى **وشرق أوسطي** للشرق الاوسط وقال بعضهم **شمال افريقي، وقبتاريخي** اي ما قبل التاريخ.. وظهر مؤخرا اصطلاح : **اجتصادي** نحته كمال ابو ديب مقابل Socio-économic وارجو ان يتعمم لأنه ادق وأخصر من المصطلح الاجنبي، واللغة العربية تتقبل مثل هذه النحوت كما تتقبل التركيب. وعلى هذا الغرار يمكن ان نقول مثلا : **اورو امريكي** بدلا من اوربي ــ امريكي، **اورو شيوعي** بدلا من شيوعية اوربية، **قباسلامي** بدلًا من : ما قبل الاسلام، **قبميلادي** بدلا من : ما قبل الميلاد، وهذه البادئة استحدثها الكاتب العراقي عبد الحق فاضل منذ الستينات لكنها لم تتعمم حتى الآن خوفا من فقهاء اللغة، ولدينا بالمناسبة مفردات عديدة تصلح ان تكون بوادىء لتركيب ونحت المصطلحات، منها : تحت، فوق، غير، لا، عدم، بعد، شبه، ضد، وحرف الزاي للازالة، وقد استحدثه البعلبكي في المورد مقابلا للبادئة الانكليزية De. واعطي لذلك بعض التطبيقات:

تَحْتَ ــ جلدي. استخدمه البعلبكي باضافة ياء الى تحت فقال : **تحتي ــ جلدي**، تجنبا لإثارة النحاة بتحريك الحاء وتسكين التاء من تحت، وتعاقب اليائين في الاصطلاح يمنع من صيرورة مقطعين كلمة واحدة فمن الافضل الاكتفاء بالتركيب على النحو الذي اثبته.

فوق طبيعي. جعله البعلبكي : **فوطبيعي** واخشى ان يكون ملتبسا ولذلك فانا افضل التركيب دون النحت هنا.

الغير فاعل هو اسهل من غير الفاعل لانه يدمج البادئة في الكلمة فيجعلها مفردة واحدة. لا متناهي وهو معروف وشائع.

٩ بَعْدَ ــ فلاني، بدلاً من : ما بعد فلان، لتسمية العصر ــ او المجتمعات. ومثاله : الصين البعد ماوية، العراق البعد قاسمي، مصر البعد ناصرية ...الخ. وان كنت لا ارى استبعاد : ما بعد نهائياً فربما استدعاها السياق وكانت اسوغ كأن نقول : صين ما بعد ماو وعراق ما بعد قاسم ومصر ما بعد ناصر والأمر متروك لاختيار الكاتب وتقديره.

شبه بشري او بشراني، مقابل ANTHROPOID.

ضد حيوي، بدلاً من مضاد للحيوية.

زملحة : ازالة الملوحة هو من وضع البعلبكي.

ومن استعمالات النحت والتركيب في غير النسبة :

ــ البيوكيمياء . بدلاً من الكيمياء الحيوية، وقد رأيتهم في دمشق يكتبون على مختبراتهم : تحاليل كيميائية حيوية، دموية، جرثومية، مما يوهم القارىء ان هناك صنفين من التحليل : كيميائي وحيوي، ولو قالوا : تحاليل بيوكيميائية لكانوا منطقيين اكثر.

ــ الكهرطيس : بدلاً من المغناطيس الكهربائي او الكهرباء المغناطيسية

ــ البترو دولار : هو شائع الآن.

ــ الكهرو كيمياء : بدلاً من الكيمياء الكهربائية.



منع النحاة من اضافة ال الى الفعل او معاملته معاملة الاسم على سبيل الاصطلاح. وقد اعتبر الجوهري قول القائل :

يقول الخنا وابغض العُجم ناطقا   الى ربنا صوت الحمار **اليُجدَّعُ**

من الضرورات القبيحة في الشعر، لكن ال هنا لا تدل حصراً على التعريف وانما هي تفيد في نفس الوقت معنى «الذي» ونحن نقول في العامية : اليكتب اليذهب اليرجع بمعنى : الذي يكتب والذي يذهب والذي يرجع.. وقد استعملا في هذا المعنى الفيروزآبادي في ديباجة القاموس فقال :

«وانت ايها **اليلمع** العروف»

من دون ان تمليها عليه ضرورة شعرية لانه يكتب نثراً

وقد يرد الفعل في صيغة اسم نكرة، ومن قول اعرابي متسول يشتم الأغنياء :

رب عجوز عِرْسِي زبون   سريعة الرد على المسكين

تحسب ان «بوركاً» تكفيني   اذا غدوت باسطا عيني

يقصد قولها : بورك فيك، حين تريد طرده.

ومن هنا ينبغي تجويز صياغة الاصطلاح من الفعل ومعاملته كإسم. مثل قولنا :

يصدأ للمحدث القابل للصدأ ويمكن تصريفه عن هذا الشكل:

الحديد اليصدأ. وفي حالة النفي : الحديد اللا يصدأ او المايصدأ وهذه الصيغة تقرب الفصيح من العامي. هو ما لا ينبغي ان نستنكف منه كما يفعل النحاة.

* * *

التوليد باب هام في الاستخراج اللغوي وهو يعني استحداث معنى جديد لمفردة قديمة له صلة قريبة او بعيدة بمعناها الاصلي، يكون ذلك عن سبيل المجاز. ومن المعروف ان معظم المصطلحات التي استحدثها الاسلام كانت بالتوليد مثل : الصلاة، الزكاة، الحج، الفيء، الخراج، الفقه، الحد، الآية، والسورة...الخ. واعتمدت الفنون الادبية والعلمية على التوليد؛ فمصطلحات عروض الخليل معظمها مولد، وكذلك مصطلحات اللغويين بما فيهم النحاة والمؤرخين*والمتكلمين والفلاسفة.. ويحتفظ التوليد حاليا باهميته السالفة، وهو معتمد في اللغات اجنبية كما في العربية لاستخراج المصطلحات الجديدة. ان الكثير من المصطلحات العلمية والفنية الشائعة في الانكليزية وغيرها، والمنتشر بعضها عالميا، هي مفردات مولدة — ومثالها : (Knob) معناها الاصلي : عُجْرة وهي العقدة في الغصن، وتطلق الآن على الزر الكهربائي والقرينة بعيدة جداً وهي كون الزر ناتئاً والعُجْرة ناتئة كذلك. وكلمة «هيولى» يونانية معناها الاصلي «خشب ثم اطلقها فلاسفة اليونان على المادة وقرينتها ان الخشب احد الاشكال المشهورة والمتوفرة للمادة فسميت بذلك التغليب، ويلاحظ هنا ان «مادة» اصطلاح متأخر عن ظهور اللغة لانه «مدرك عقلي» ولذلك لم توضع له مفردة مستقلة في اصل اللغات التي تبدأ عادة في بيئات غير متقدمة فكريا ومن هنا ولد الانكليز المادة Matter وهي في الاصل امر أو موضوع او مسألة والقرينة ان المادة حقيقة يشار اليها ويبحث عنها. والكثير من التوليد يعتمد على قرائن ضعيفة الجأت اليها الحاجة الملحة للتعبير عن مستجدات الاطوار اللاحقة لطور النشأة. وربما ولدت كلمة في اصل لا علاقة له به البتة، ومثاله : Broker تطلق اليوم عن سمسار الأسهم والسندات وهي في الاصل فاتح قوارير الخمر.

وقد استخدم التوليد في العربية الحديثة واقره اللغويون، ومن امثلته الهاتف للتلفون وقرينته ان اسم الصوت المنبعث من التلفون يشبه الهتاف وهو صوت يسمع دون أن يرى صاحبه. وهي قرينة بعيدة لا تعبر عن طبيعة التلفون. مع ملاحظة ان اسم التلفون هو الآخر يعبر عن طبيعته فهو مكون من مقطعين يونانيين télé ومعناه من بعيد، phone وهو الصوت. والمقصود : الصوت القادم من بعيد. لكن هذا الصوت لا يقتصر على التلفون فهو يأتي ايضا باللاسلكي والمذياع والتلفزيون، ومن المواليدات البعيدة القرينة : القنبلة واصلها «قنبرة» سميت بذلك لانها تنبش الأرض كالقبرة ويبدو أنها حرفت الى قنبلة لسهولة اللفظ، والقنبلة في العربية هي جماعة

الخيل. ومن المولد : «البندقية» وقرينتها قريبة لانها في الاصل آلة صيد ترمي البندق وما في حكمه من المقذوفات. وكانت معروفة في العصور الاسلامية.

والتوليد باب واسع يمكن الاستفادة منه في تكوين المفردات الجديدة. واكثر الكلمات صلاحاً لهذا الغرض هي الكلمات المهجورة والميتة لان معناها الاصلي غير معروف فاذا اطلقت على شيء حديث اقترنت به في الاذهان على سبيل الانفراد وعدم الاشتراك. ومن امثلة ذلك قطار معناه الاصلي رتل الابل وهو غير متداول فلما سميت به آلة النقل الحديثة التي تسير على الحديد انحصر مدلوله فيها. وهذا هو ايضا شأن السكة، وهي في الاصل : الطريق لكنها غير شائعة بهذا المعنى وإنما عرفت كإسم للطريق الحديدي الذي يسير عليه القطار، واذكر اني كنت اقرأ، وأنا في المدرسة المتوسطة، كتابا في التاريخ فمرت بي عبارة في مجرى الحديث عن حركة زيد بن علي في الكوفة، وفيها يتكلم المؤرخ عن القتال الذي جرى في «سكك الكوفة» بين أهل الكوفة وجنود اهل الشام، فالتبس علي الامر وتساءلت في نفسي عما اذا كان يوجد قطار في ايام زيد بن علي !

ان المعجم العربي يكفل تزويدنا بالعديد من المفردات القابلة للتوليد وذلك بفضل اتساعه وثرائه، وينبغي ان لا يمنعنا من استخراج المفردة غرابتها وكونها غير مفهومة في البدء، لأن الاستعمال سيحدد لها معناها ويجعلها مألوفة، وكل اصطلاح جديد يبدأ غريبا ثم يألفه الناس بالتكرار.

° ° °

يلح النحاة على الفرق بين الضاد والظاء رغم صعوبة التفريق الناشئة عن تقارب اللفظين. وقد حاول بعضهم وضع معايير لذلك، كالصاحب بن عباد الذي نشرت له رسالة عن (الفرق بين الضاد والظاء) لكنه فشل كما فشل غيره في وضع معيار عملي دقيق. ولم تكن ثمة حاجة الى هذا العناء لولا التزمت الذي يتجلبب به فقهاء اللغة. فالعرب لم يكونوا معنيين بهذا التفريق مثلما عني به النحاة فيما بعد. وقد نقل ابن خلكان في (وفيات الاعيان) عن ابن الاعرابي، احد أئمة اللغة في القرن الثاني للهجرة كلاماً جاء فيه :

«جائز في كلام العرب ان يعاقبوا بين الضاد والظاء فلا يخطيء من يجعل هذه في موضع هذه...»

وهذا نص قاطع من مصدر لغوي كبير على عدم ضرورة التفريق بين الحرفين، وهو يمنحنا حرية التصرف في كتابتهما دون الخوف من التخطئة او الاتهام بالهرطقة.. وينبغي مع ذلك مراعاة عدم الاشتراك في الحالات القليلة التي تتشابه فيها مفردتان لفظا وتختلفان كتابة. وفيها مثلا : يظفَر بمعنى ينتصر ويضفُر اي يفتل ويلوي، ومنه الضفيرة للشعر، ورغم ان المفردتين

غير متماثلتين تماما لان الاولى مفتوحة العين والثانية مضمومة فمن الافضل تمييزهما بالكتابة رفعاً للالتباس، وفي هذه الحالات القليلة ايضا : ظل بمعنى بقي وضل بمعنى زاغ وانحرف ومراعاة الفرق في كتابتهما لازمة لمنع الالتباس، وان كنت افضل لو استغنى الكتاب عن (ظل) واستعملوا بدلها : بقي، مكث، ثوى، لبث...

تحت طائلة الارهاب النحوي يضطر الكتاب، لا سيما الصحفيين القليلي الخبرة الى التزمت في استثمار محصولهم اللغوي ويفوتون على انفسهم رُخصاً في اللغة كان القدماء لا يتورعون عنها، وهي الآن اكثر الحاحا ولننظر في بعض التفاصيل.

النسبة الى الجمع

يزعم النحاة ان النسبة الى الجمع لا تجوز، فلا يصح عندهم ان نقول : المؤتمر العمالي او المظاهرات الطلابية بل المؤتمر العاملي والمظاهرات الطالبية. ولا يجوز ان نقول : عقائدي بل «عقدي» نسبة الى عقيدة [حيث يجب حذف الياء !]، وقد اضطرت جريدة واسعة الانتشار كالسفير اللبنانية الى الوقوع في هذه الحذلقة فصارت تقول : الطالبي بدلا من الطلابي..

والنحاة يكذبون على اللغة كذباً صُراحا. يدل على ذلك كثرة الاسماء التي وردتنا من العصور الاسلامية منسوبة الى جمع ومنها : الدوانيقي والقراطيسي والصناديقي، واصطلاحات من قبيل : شعوبي، وساعاتي وكتبي.. وهم يغفلون ايضا عن حقيقة الاختلاف في مدلولات المفرد والجمع والصيغ المختلفة للجمع. فمثلا كلمة : **جماهير** تحمل مدلولا سياسيا يختلف عن مفردها : **جمهور** والنسبة اليها تختلف ايضا، فعندما نقول : **جماهيري** نعني شعبي واسع النطاق، وهو لفظ يساري المنشأ والمآل ولذلك يتحاشاه اليمين الا في المزايدات.. وعندما نقول : **جمهوري** فانما نعني النسبة الى «جمهورية»، ومن هذا القبيل كلمة **عامل**. اذا جمعت على عوامل افادت معنى الاسباب والمؤثرات واذا جمعت على **عمال** افادت معنى الطبقة العاملة، واذا جمعت على **عاملين** شملت مجموع الذين يعملون في مضمار ما او مؤسسة ما بصرف النظر عن موقعهم في الانتاج ؛ عمالًا ام اداريين ام تكنواقراط.. فاذا اخذنا باوامر النحاة حصرنا النسبة لكل هذه الحالات المتفاوتة في كلمة «**عاملي**» وهي لن تعني في الحقيقة غير النسبة الى جبل عامل الاقليم الشيعي المعروف الذي يتنافس العديد من زعماء الشيعة على اكمال تسليمه لاسرائيل.. وعلى ذكر التفاوت في مدلولات صيغ الجموع نقول انها توفر فرصا طيبة لتوسيع وتنويع مدلولات المفردة الواحدة واشتقاق المصطلحات. وعلينا ان لا نتردد في استثمار هذه الميزة الهامة في لغتنا خوفا من وعيد الفقهاء.

نصب اسم لا النافية للجنس

المعروف ان اسم لا النافية للجنس يكون منصوبا في العادة، فاذا جاء مقترناً بصنعة وجب الحاقها به في النصب. لكن التزام هذه القاعدة حرفياً يخالف الغرض من الاعراب وهو الأمن من الالتباس، لانه يؤدي الى الخلط بين النعت المنصوب وبين الحال، فاذا قلنا مثلاً « لا حل سياسيا لقضية فلسطين» ربما انصرف الذهن الى ان «سياسيا» منصوبة على الحال، ولذلك يجب عدم التقيد بالنصب واجراء العبارة على هذا النحو : «لا حل سياسي لقضية فلسطين» ويمكن قراءتها بالتسكين اسوة بالشواهد التي مرت بنا، او بالرفع على اعتبار ان «لا» تفيد النفي بوجه عام. وقد جرت العادة على كتابة امثال هذه الجمل بهذه الطريقة ومن دون حذلقة، غير أن لجاجة النحويين فرضت على البعض اللجوء الى هذه الصيغ الملتبسة التي تغنيغ الآن في صحف بيروت

التقييم والتقويم

كنت قد تناولت هاتين الكلمتين في «مواقف» وأرى من الضروري اعادة الخوض فيها لأنها كثيرة الورود في الصحافة والكتب.

يزعم النحاة ان كلمة «تقييم» خطأ ويوجبون استعمال «تقويم» بدلًا منها والكلمتان في الحقيقة مختلفتان تماما. فالتقييم مشتق من القيمة والتقويم من القوام، ومعنى الاول التقدير والتثمين ومعنى الثاني التعديل. ان ما دفع النحاة الى هذا القول ان القدماء كانوا يقولون لمن يثمن ويقدر : «يقوم عليه الشيء بكذا» وقياسهم هنا صحيح. ومن المعروف ان القيمة اصلها : قومة فابدلت باء لتسهيل لفضها. لكن هذا الابدال في حد ذاته دليل مضاد لقياسات اهل النحو ؛ فاذا كان ممكنا جعل القومة قيمة فلماذا لا يمكن استقاق المصدر المزيد من المقلوب ؟ ان الاشتقاق من المشتق من الامور الماشية في اللغة ومنه مثلاً : الصداقة اشتقت في الصديق وهو بدوره مشتق من الصدق. وهكذا فان التباس تقويم بمفهوم التعديل يوجب العدول عنه الى صيغة مشتقة من «القيمة» وهو اقل تعسفا من جعل القومة قيمة. وبذلك تتمايز المفردتان ويكون لنا اصطلاح مستقل لكل من التعديل والتمثين.

يجب ان لا
لا يجب ان

يقول النحويون ان العبارة الاولى صحيحة والثانية خطأ، والحقيقة ان كلتيهما صحيحة وكلا منهما تؤدي معنى لا تؤديه الاخرى، فقولنا «يجب ان لا يحدث هذا» هو ايجاب عدم الفعل، وقولنا : «لا يجب ان يحدث هذا» هو نفي للايجاب وليس للفعل، فهو يفيد جواز الحدوث وعدمه ولتوضيحه نضرب هذين المثالين :

1 ــ يجب ان لا يسهر المريض.
2 ــ لا يجب ان يسهر العالم.

في الاول إيجاب عدم السهر على المريض وهو وجوب يدخل في طبيعة المرض التى تقتضي عدم السهر لانه ينهك جسم المريض، وفي الثانية عدم الزام العالم بالسهر لانه يستطيع ان ينجز اعماله في النهار، ولو قلبنا العبارتين فقلنا :

1 ــ يجب ان لا يسهر العالم.
2 ــ لا يجب ان يسهر المريض.

لوقعنا في خطأ، لان الاول يستفاد منه منع العالم من السهر في حين ان طبيعة عمله لا تمنع من ذلك بل ربّما تقتضيه وكثيرٌ من العلماء ينتجون في الليل اكثر مما في النهار، وفي الحالة الثانيةْ خيرنا المريض بين ان يسهر او لا يسهر بينما تفرض عليه طبيعة المرض ان لا يسهر وكأننا افترضنا ان المريض يحتاج الى السهر لكننا تساهلنا معه فخيرناه بين الحالتين.

مثل هذه الفروق الدقيقة في التعابير لا يدركها النحاة لان اذهانهم متكلسة بالقواعد التي اخترعوها بانفسهم. وهم باصرارهم على هذا الجمود المقنن يضيقون آفاق اللغة ويحدون من قدرتها على التعبير. وعندما يضطر الكتاب الى مراعاة امزجة النحويين فانهم لا يفقدون فقط حرية الكتابة بل والدقة في التعبير.

* * *

من هنا لا يمكن اخذ اللغة من النحاة واللغويين وانما هي تؤخذ من الممارسة، مع تعلم الحد الادنى من القواعد، وهو الحد الضروري للتمكن من صياغة الجمل على الوجه المفهوم المانع من الالتباس ويقتضينا ذلك قراءات موسعة للنصوص بدلًا من الانهماك في دراسة علم النحو... ولننظر في هذين المقتطفين لنرى مدى الدقة التي يتكلم بها ذوو الاختصاص من القدماء وهما من كتاب «المواقف» للايجي، الذي يشتمل على موسوعة فلسفية ترجع الى القرن السابع الهجري..

1 ــ حول العلاقة بين المادة والحادث (الشيء الذي يحدث ويتشكل)

«ان الحادث تارة يوجد عن تلك المادة كالاعراض، وتارة يوجد فيها كالصور وتارة يوجد معها كالنفوس الناطقة..»

2 ــ حول اشكال الوحدة

«الوحدة تتنوع، ولكل نوع منها اسم ؛ ففي النوع مماثلة، وفي الجنس مجانسة وفي الكيف مشابهة وفي الكم مساواة، وفي الشكل مشاكلة، وفي الوضع موازاة وفي الاطراف مطابقة..»

ان قراءة مثل هذه النصوص كلا في حقله المخصوص اجدى من دراسة كتب النحو التي تعلم الناس القواعد وتجعلهم خُرسا في عين الوقت. وقد وجدت مصداقا لذلك عند اقامتي في الصين حيث لاحظت معظم الصينيين الذين تخصصوا في العربية يعرفون النحو اكثر من اي مثقف عربي لكنهم لا يستطيعون كتابة جملة واحدة صحيحة. ويرجع ذلك الى انهم درسوا العربية على يد اساتذة اللغة من العرب وفقا لمناهج التدريس المتبعة في مدارسنا وجامعاتنا فجاءوا حفاظا من الطراز الاول !

يتصل بما ذكرناه عجز بعض الكتاب والمترجمين عن الكتابة العلمية السليمة وانبارهم الحذلقة والتشبث باهداب النحو على حساب التعبير المكثف الدقيق، من طراز ما قرأناه للانجي. وفيما يلي وقائع من التخبط استعرضها دون الاشارة الى اصحابها لأني لا اتوخى التشنيع على احد:

في كتاب فلسفي مترجم ورد :

1 ــ الكهرباكيميائية . يقصد **الكهروكيمياء** لكن المترجم يخاف من النحت فاكتفى بحذف الهمزة حتى لا يثير عليه اللغويين فجاء اصطلاحه سمجا ثقيلا.

2 ــ ترجم Contingent الى جائز و Nécessaire الى ضروري وكان عليه ان يرجع لمصطلحات الفلسفة العربية فيجد : الممكن بدلًا من الجائز والواجب بدلًا من الضروري ولا يكلف نفسه استحداث مصطلحات غير دقيقة في قضايا ناجزة ومع وجود لغة فلسفة متبلورة.

3 ــ ولنفس السبب استعمل الكاتب نفسه اصطلاح «ظاهر» بدلا من «عَرَض» الذي مشت عليه الفلسفة الاسلامية واكتسب من خلالها شخصية الاصطلاح المتميز والمعبر عن طبيعة الموضوع المتعلق به.

ينبغي ان اذكر ان هذا الشكل من التخبط يرجع من جهة الى ان مترجمي الفلسفة المعاصرة لم يقرأوا الفلسفة القديمة، ومن جهة أخرى الى عدم استعمالهم المعاجم المتخصصة وهي كثيرة منها عند القدماء : «التعريفات» للجرجاني، «مفاتيح العلوم» للخوارزمي، و «كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي وهو موسوعة ضخمة في المصطلحات العلمية والفلسفية القديمة. ومن الكتب الحديثة المعجم الفلسفي ليوسف كرم، صغير، و «المعجم الفلسفي» لجميل صليبا ويقع في مجلدين كبيرين استوفيا معظم المصطلحات الفلسفية القديمة و الحديثة.

في كتاب مترجم آخر يرد :

ظاهرة المفارقة الظاهرية.

وها هنا التباس. فالظاهرية تختلط بظاهرة، وكان على المترجم ان يأتي بمرادف لاحديهما فيقول مثلا : حالة المفارقة الظاهرية، لكن الكتاب مولعون بترديد مصطلح «ظاهرة» واطلاقها جزافاً على احداث وأحوال وواقعات قد لا تتضمن بالضرورة مفهوم الظاهرة.

ويعاني الكتاب تخبطاً في المفردات لعدم تمرسهم في القاموس وتطبيقاته، وقد اظهروا في هذا الجانب فقراً مدقعا في فقه اللغة. فهم مثلّا يفرقون عند الترجمة من اللغات الاوربية بين الانسان والرجل فيترجمون كل : Man الى رجل. ومن المعروف ان في اللغات الاوربية لفظاً واحداً يدل عليهما، وهو انعكاس للمرحلة الابوية الناجزة التي نشأت فيها اللغات الاوربية، والعربية تفرق بينهما والمطلوب من المترجم ان يعرف قصد الكاتب الاجنبي من السياق ليحدد اذا كان يريد انسان ام رجل ؟

ومن فقرهم في فقه اللغة انهم لا يعرفون من اسماء الزمن الا كلمة واحدة هي العصر، التي يستخدمونها دون اعتبار الفرق في المدة، فيقولون : العصر الجليدي لزمن يمتد ألوف السنين والعصر الاموي لزمن لا يزيد على تسعين عام. وهذه بعض مفردات الزمن :

الدهر، وهو مجموع ازمنة طويلة : **الامد** للزمان الطويل، **البرهة** للزمان الطويل ايضاً، **الحقبة** لما يقارب مئة عام، **الأوان والحين والمدة والوقت** مرادفات عامة للزمن ويختص الوقت غالبا بالايام والساعات.

وفي التطبيق يمكن القول :

الدهر الجيولوجي الفلاني، الامد الحجري، البرهة الفرعونية، الحقبة السومرية. العصر الاسلامي، الأوان الفكتوري... الخ

ويمكن القول :

اوان محمد او المسيح او كونفوشيوس، عصر الاستعمار، زمن الردة ...الخ

ولا يستخدم الكتاب من مفردات عمر الانسان غير ثلاثة للذكور هي : طفل، شاب، وشيخ وغير ثلاثة للاناث هي طفلة، شابة، وعجوز، بينما تتعدد الاسماء، بتعدد اطوار النمو، فنجد للذكور :

جنين (مشترك)، وليد، رضيع، طفل، صبي، يافع، غلام، فتى، شاب، كهل، شيخ، مسن، معمر، يَفَن..

— وللإناث

مؤنث الاسماء من وليد الى يافع ثم كاعب (مرادف ليافع)، فتاة، مؤنث شاب، مؤنث كهل، عوان، عجوز، حيزبون...

ويردد الكتاب كلمة «عملية» كما يرددون «ظاهرة» مهما كانت طبيعة الحدث. وقد قرأت في احدى الصحف : مشهد من عملية تشييع، والتشييع حادثة أو اجراء وليس عملية، وهو لا يحتاج الى وصف يقيده وانما يكفي ذكره وحده للدلالة على طبيعته.

ولا يعرف الكتاب كيف يصوغون عبارة دالة على المعنى دون حشو. وقد تعودوا ان يردفوا معظم الجمل الفعلية بكلمات : قام، جرى، أو تم... ولننظر في هذا المثال :

قام الدكتور فلان بتحقيق وشرح الديوان وطبع في باريس.

وهي عبارة يمكن ايجازها بالشكل التالي :

طبع الديوان في باريس بتحقيق وشرح الدكتور فلان.

ومن امثلة الاطناب والحشو :

لقد شاهدت ثلاثة عرافين من عرافي النقدية التجريبية.

وكان يمكن ان تكون :

لقد شاهدت ثلاثة من عرافي التجريبية ــ النقدية.

ويبلغ بهم العجز عن الايجاز حد القول :

كونفوشيوسيون وباكونيينون.
بدلا من : كونفوشيون باكونيون.

وانظر الى هذه العبارة :

تعلم ــ فلان ــ الهندسة والرياضيات تعلماً اصوليا وتعلم علم الاقتصاد تعلما ذاتيا وكان يكفيه ان يقول :

تعلم الهندسة والرياضيات في المدرسة وتعلم الاقتصاد بنفسه.

وللكتاب ولع بياء النسبة يجعل سطورهم محشوة بالسجع المتكلف. ولنقرأ :

قيادة سوفيتية مستقبلية.
التعرف على الملذات المدينية.
عرض الامر على اللجنة التحكيمية.

وهي في اللغة السليمة :

قيادة سوفيتية مقبلة او لاحقة او مستقبلة (مستقبلية اصطلاح فلسفي يطلق على مذهب برجوازي يريد أن يكون بدلا عن الماركسية).

التعرف على ملذات المدينة ــ او المدن ــ.

عرض الامر على لجنة التحكيم.

ولنقرأ هذا العجز الفاضح :

التأويل خاصة عامة للكائن البشري.

وهو يقصد :

التأويل ميزة مشتركة للانسان.

ومن مرادفات ميزة : صفة، سمة، خصلة، سجية، خصيصة.. بينما تبدو كلمة «خاصة» هنا ضداً لكلمة عامة التي جعلها الكاتب صفة، وينبغي ان يلاحظ ان هذه المفردة تكتسب دلالتها على الميزة والسمة والصفة عندما تكون في حالة جمع فقط (خواص) وقد تحدثت في بند سابق عن الدلالات المستقلة لصيغ الجموع في العربية.

* * *

في العامية مفردات فصيحة مستعملة بتمامها او محرفة قليلا، وقد دأب الكتاب على استبعاد كل كلمة من هذا القبيل حتى لو كانت من مفردات القاموس بتأثير الارستقراطية اللغوية التي سرت اليهم من اللغويين. ومن امثلة هذه :

كلمة : **راهي** في العامية العراقية، وتعني الواسع المتمكن والكبير وهي مرادف دقيق لكلمة Large في الانكليزية. وهذه الكلمة فصيحة. ورد في اساس البلاغة للزمخشري : جاء فلان راهيا رافها، وقد اشتق منها العوام : رهاوة بمعنى السعة والتمكن.

فعل : **حط** يحط بمعنى وضع يضع ومفعوله : محطوط وهي عامية مشتركة في الكثير من اللهجات العربية، لكن الكتاب يستنكفون منها ويقعون بسبب ذلك في الالتباس والعوز. ففي مقابل Large يضعون واسع او كبير بينما الصحيح، راهي، ويتحدثون عن الشيء الذي يوضع في مكان ما فيقولون : موضوع في كذا فيختلط باصطلاح **موضوع** الذي يستخدم في المنطلق مقابل المحمول وفي الكتابة بمعنى قضية او مضمون حيث يقال : موضوع البحث، ومنه اشتقت : موضوعية لروح العلمية النزيهة في البحث، كما اعتبرت صفة لما هو خارج عن وعي الانسان حيث نقول : الذاتي والموضوعي، ونقول : المثالية الموضوعية مقابل المثالية الذاتية للمدرسة المثالية التي تقر بوجود الواقع لكنها تقول باولية الروح.. وللخلاص من هذا التلابس يمكن للكاتب ان يقول : الشيء المحطوط في كذا.

وأرجو أن تكون هذه الامثلة اليسيرة منطلقا للممارسة في هذا المضمار.. ويبقى الامر في كل الاحوال رهنا بالخروج من دائرة الارهاب اللغوي حتى يمتلك الكتاب حرية الكلام التي صادرها اللغويون منهم...

عبد الكبير الخطيبي

« الجسد والكلمات »

«حلمت ليلة أمس أن جسدي من كلمات»
أنّى لك ألّا تكون مراهق ذاكرة ما !

فرح الكتابة كان لي المنقذ. أدين بخلاصي للكتب الصديقة ولهذا المراهق ذي اللُّمّة المتراخية المسرحُ على الكون نظريه الساحرة. كنا ثنائيا متلازما، وكانت صداقة دائمة التجدد. يرسُمُ فأقرضُ القصائد، يغني فأرتجل أطراف أغنيات، يلتهم القصص المصورة ويستهزل سلطة أساتذة نحاصرهم بدسائسنا المنسوجة من خلاصاتهم المضحكة وهفوات ألسنتهم. واتخذنا الادب ملكا لنا. أصطنعنا الكتابة، أناقة الكتابة، فناً إرهابيا ورباطا سريّا، عبرنا السنين نركب الانبهار فيركَبُنا. أصبحتُ كاتبا عموميا، يكلفني الطلاب الداخليون يوم الاحد أن أملي عليهم رسائل غرامية يبعثون بها لصديقاتهم، ويأتونني بصور يحثون بها الهامي. وأنا بين قواميسي مشرق بتجلياتي، وعديد تعدد هذا الهوى التراسلي، أبقى على هذا، حتى الظهر، أدير حساسية العالم.

وأتى الشعر على الباقي. أحببته، بدويا، أول ما أصببت يلفحه المجاز، مجاز كهان الجاهلية خاصة منهم أمرىء القيس، بتعاويذه، الرقيقة. في تلك الفيافي فقد حبيبته وها هو يعبر الزمان ملاطفا فرسه، وينطوي في هبّة القوافي. هيهات ذلك الزمن الحاد إذ يفجؤك الاستمناء في الشارع أو في الماخور، أختفي، لعبا، في الكلمات وأقضم الابيات، اختزنُها في دفتر صغير، اصفرّ على الايام، أقرأه، قبيل النوم. ومن يوم ليوم، بل صورة لاخرى، تتقاطع فيّ آلاف الحيوات فأعج بها ثم أغادرها، تمتلك السعادة فكري والجنون.

وأمارس تمرينا آخر : تجوسُسُ الكتب كيفما اتفق، خلق متاه متقاطع برفق وارتعاش، وأقرأ روايات أؤلف أخرى، فتودى بي هذه الشياطين الساحرة، آن يحين النوم، إلى تعب أسقط من لذته في الاحلام.

وما إن تنته رواية حتى توافيني ومضاتُ ما بين الاسطر توترا عنيدا، فتطربني، وإن بؤسَتْ، رحلتها الواهمة. وها أنا حسب الصدفة ينبوع، زهرة أو فراشة. كانت القراءة تردني إلى الحياة، تردني إلى الموت. يهزني عطر كلمات، فأهتز: وما أشقّه عملا أن تبتلع قاموس الرؤى

والمترادفات. غير أني كنت أنتزع الكتاب من مؤلفه وآخذه لساناً لمرآتي. وأطغى فأفرغ هذا الكتاب أو ذاك من عفنه ولا أستبقي منه، لخيري وخير المؤلف نفسه، إلا بضع جمل أخلدها في دفتر استشهادات، وأنسبها بشحطة قلم عابثة إلى مشاهير الكتاب. ويسكت الاساتذة، فلا مرد إذن لسلطتي ! كنت أشدّ ميلا إلى الكلمات الغريبة التي تلج بي خفايا بلدان بعيدة. لقطات وحسب ؟ لا، بل تجاسد أبكم، جليدي. بعد لحظة السعادة، أعلّم الكلمات بلون ضارٍ لأرسخ فيّ علاقاتها النهائية ثم أردها مغمض العينين. وتنفجر المعاني، فأتجنب الفهم إذ دونه هلاكي. الفهم موت. تلالي الكلمات في عكر شديد، في غش فاضح، فأكتفي به وكمثل الكهف، تولد الكلمات على الرغبة، فترافق خطاى وتضاعف من لألأة عرافتي.

في الباحة كما في قاعة الطعام، كنت أبسم لرفاقي في ذهول. لا أحد يدرك قدرة انشطاري، حيث أعيش منيعا في وحدة كيان طروب. أعلى غطاء السرير فأخفي الشمعة وأنهي باختداد، بعيدا عن عين المراقب، كتابا أحمله منذ الصباح فيما أحتاط في جيبي بكتاب أو كتابين غيره. في الحياة الجماعية، كنت الزم الحياد والانضباط. كنت تاعسا، مجرد تاعس، ينفجر ضحكي مفاجئا جنونياً، من لا شيء، فتتسلط الانظار إلى جنوحي. ينطلق أمر المراقب وما أن يبلغني حتى ينفس فقاعات فقاعات. فقاعات. أنسى الكرسي وينعتق الجسد متحررا من العضلات مشعا بين الكلمات.

إيقاع حياتي ! يجدّ الآخرون وأحلم، ينامون وأطالع، أشرد، على الدوام أشرد، وأنظر إلى الآيات الخارجية عبر ثقب. ومساء أتقمص شخصية جوليان سوريل تقمصي لشخصية كل مراهق ألتقيه في الادب، فاقايض بسأمي كِبرا وأعوم من المطلق إلى المطلق خالدا. لأنطلقنّ حيا أو ميتا، عابرا الليل مبدعا دينا آخر. وأرسلوا بنا إلى قاعة الطعام فلم يفصلني عن سوريل قيد أنملة. كيف السبيل إلى تلقّم هذه الرواسب العجينية بيد فاترة ؟ اعتادوا ارتحالي وتركوني في قصري الصغير وحين كنت أعود إليهم، احتجب بمرح مفاجىء ملطخا الهواء بحركات رحبة جزلة.

شاعر مريض غادر في مطلع هذا القرن مسقط رأسه، ينهكه السعال، ثم تمدّد على حصير لينام. هل تحدّث عن آية تواطأت وإيّاه ؟ زعزعٌ هبّت على شعره فاندثر في السحر، قال كلمته البكر فكانت البشرية. جبران، ابتدأ صفصافا باكيا ثم حزم أمره، بالهوينى، نبيا. و أعلن ذلك بنفسه : إني ابن زرداشت. وما عتم أن اندمج الاثنان لديّ. فواحدهما توفي شابا، بعلم مسبق منه، وأنا كذلك كنت متيقنا أني سأموت في الشباب. لَحلمٌ ذوى وها هو الآن يهاجر في هذه المراهقة : سأكون أقله قد. متّ ذات في الكلمات. وثانيهما تفرّس حتى النهاية في جنون لا يخمد. وأنا كنت، في الخامسة عشر، أرقي نفسي نبيا منفيا. ولكن إلى أين ؟ فقد كانت رقيتي أقرب إلى الكمود وكتابتي إلى تفاهة البرى.

مساء، كنت أمشي بعد العشاء، منحني الرأس بين قنطرتين، معترضا الهواء بيمناي. كنت أقلد عمق المتوحد. أصادف الآخرين، فارمقهم بحول بريء، يزعجونني فأتملص. صرت آخر، ديمومة غريبة الطور، مسكونة بالورع. أتذرع بذلك فأركن المجتمع جانبا وأنذر للتوحد نفسي. لم يكن عيشي ليل نهار من أحلام مستعارة إلا صورة غائبة عن جسد انسحب الواقع منه وكأنما تجتازه هلوسة رغبة ممتنعة، اهتزازية، لم يسمّها انسان.

كنت، في شلة من أصدقاء لا أقضّ من مضجعهم، أسعى إثر صدمة ما. اعترضَنا التاريخ فقلبناه : ماذا لو انتصر العرب على شارل مارتل وفتحوا أوروبا بأسرها ؟ بهرنا بالغرب فأخذنا نمحو عنا ما يمايزنا ونحاول تفكيك ذاكرته. أيتحتّم علينا الاختيار بين الواقع والحلم !

في هذه السن، اخترت الوحدة والاخوة الادبية. فانتقيت آلهتي خاصة من الشعراء الهامشيين والمنفيين والمجانين والمنتحرين والمتوفين في شبابهم والمسلولين، وعندي أنهم قد غابوا إلى الابد في الالم المحض.

في الصف، كنا نستعرض الشعراء الكلاسكيين، وهم الآلهة الرسميون، فنبتلعهم جرعة جرعة. كل سنة مأساة وملهاة يتعادل بهما ثغاؤنا. وإن آتانا الحظ تدربنا على تقطيع البحر الاسكندري، بوزنه المتسيب، فيحملنا على رقص مفاجيء. هكذا تدور بنا الثقافة. كان أستاذ الفرنسية، ليأخذ بألبابنا، يغلق النوافذ الخشبية ويزعق ذارعاً القاعة. اسلوب استبدادي يعتمده ليسلخنا عن أنفسنا ويهبنا ثقافة صريحة، ركينة، لا ارتداد عنها. وحلت الطقوس في درسه محل الثقافة وصليل الحديد وذلك الغناء الداخلي المتراقص لي. ونفتح النوافذ. آناء برهة ينطلق الجسد من عنانه والشمس تعود، فيعلن : الشرح. وتمتعنا المناسبات فنُمثل بعض المشاهد. كان هذا المسرح، على بؤسه، يخلقنا آخرين، فنتواثب فرحا في معمعة سؤال وجواب. وكان للأستاذ تلميذ، يزعق هو أيضا، فنغتنم الفرصة، لنخدش الصمت عند خمود صيحانه، بصريف مشين، ونرافقه حتى النهاية إلى أقصى اضطرابه، فيهدر الاستاذ : التلميذ التالي. فأتلملم في حيزي الشخصي كالنحلة، أنقل راداري في سهول كورناي القاحلة وأسلطه على البحر الاسكندري المتعرج، لكن دخانه الاسطواني كان يلهث لهاثي. وها هي القافية تنفلت من جفافه العُقَدِي. وأتخيل جمّالين ساهين شكّوا سيوفهم في الرمال وأقاموا يرقبون الصبح لاستئناف المسير، كانت شخصيات كورناي تجمدني سأما فلا أمر بمقطع من مقاطعها البطولية إلا وغالبا ما أتجاوزها. في نهاية التمثيلية يجمع كل أمواته وأجزز[1]«قبيلة الكلمات» وأترقب.

---

(1) جزّز الكلمة : نقلها على جزازات ورتبها.

وأقفز صفا فأكبّ على «سينا» بعد أن أحرق «السيد» بغضا بالابطال، أميل إلى الآلهة الساقطة. لعل ما يربطني ربطا رقيقا إلى هذا العالم الصوتي المهندس بصرامة، إن هو إلا ذكرى مستعادة عن تلك البلاغة الجليدية وتلك التعويذات الهائلة. كان كورناي من أواخر أولئك الشعراء المسلمين وكان عالمه الاقطاعي يماس أساطير الطفولة الشعثاء.

أبوسعك أن تتحدث عن أحدهما دون أن تغرى الآخر ؟ أقصد : راسين وكورناي والتوازن بينهما. كان علينا أن نختار ولم نفعل فينساب كل شيء مهراقا بين هويات متآكلة. ونختلق من ركام هذه الثقافة المتلقنة لوحة من ملصقات. يطرح الأستاذ المشكلة التالية : «افرضوا أن كورياس قتل هوراس وقصوا ما يجري» ... جاري من الامام حلّ المشكلة بأسلوب إداري صرف. بدأ قصته بجرية خالصة : «يشرفني ويؤسفني أن أصرح لك أني قتلت ابنك». الثقافة لم تكن لتشغل هذا الصبي، فيفضل عليها معاشرة الكرسي لمؤخره. كان يكتب كما يحيّي المدير، يمزج الفن بالرقابة والكلمات باعتباطيتها ويسمي الكتاب باسمائهم الشخصية. فنتركه يتهوى مكانه ونزعجه عنه حين يفتالنا جفاف كورناي فنبرزه.

انهوست بالتقليد فصرت أتمم القصص ببحر اسكندري ثقيل ملهوج، أتودد به إلى أستاذ الفرنسية إذ أن كورناي طريقي إلى أبدية الآخر. ها الغرب يتحفنا بجناته، فأحلم بأني صفوة مختارة، إله بين الآلهة. جهدت مدة أسبوع قضيته متوحشا وبطلا ملحميا فتوفر لي هول ايقاع كوني. وها أنا بمسرحيتي، مكتملة كانت أم مبتسرة، برفقة كورناي في الدرك الاعلى، لا ريب في ذلك، بينما الاستاذ، وسطاً، يوزع الادوار بين الثرى والثريا، والصف أسفل المراتب في نقيق.

كثيرا ما حاولت، في معرض قراءاتي، أن أقنّع الآلهة الرسميين، وأحيدهم بتقليدهم، فتشبهت بهم بدءا وحين نؤت بتلك الجيرة، تحولت تحولا صريحا إلى السخر بهم، وكنت أظنه يعتقني من استعمارهم. كنت أرفق بأصنامي وأعذب الآخرين فأضيف إلى دواوينهم قصائد غير منشورة، أستخرجها من مكتبتي الرحالة، الزخمة، الطاغية. كان هوجو عزيزا عليّ فأصابته المحنة ولزمته قواف تقرقع. أما راسين فأحطته بالحذر وجعلت أقرأه قبل النوم رغم تفليته المضنية والمحيرة للاهواء. كانت هذه الشخصيات تدهشني في الفتها الالمَ والموتَ المُحِبّ، بينما كان جسدي يحن إلى نشيد حنين. وأحب إلي من السموّ الكتابة الهشة أو استشاطة الغضب أو ركوب الوعر. إنها الرومانسية الصرفة الخالصة بذاكرة حشوها أساطير، وآلهة عرجاء، وهاجس إضفاء الشاعرية على كل ما سواها. كنت أعوم فأي تاريخ يتيم أو عدائي يقوى على فكي. كنت أرقب انفكاك الزمن وابتداء حياتي الحقيقية في نشوة ميلاد جديد. يبدو أن المراهقة تستوى عند الصرخة المتمائلة إلى الاهتداء، فأظن والحالة هذه، أني أملت أن يدهمني الواقع. ومضى التاريخ وأنا باق في حجري أراقب نفسي حين تصحو مع الاخرين، أو تدرس أو تقتات أو تنام وأبتسرها بتبصصي المتجهم.

كنت أكتب ويا له من عمل لا يأس فيه يغوى النوم، يغوي التيه. أكتب إذ الكتابة وحدها وسيلة للاختفاء عن العالم، للانتشال من السديم، للانشحاذ بالتوحد. ألا أؤمن بمصير الاموات ؟ فلم لا أركب دائرة أبديتي ؟ كنت أحجم عن الاختيار، إذ لا أريد أن أسدد ثمن هذا الالم، بل أريدني مرحا، حين يفضحني النهار، مرحا لا شك فيه، مقتلَع الجذور، عاصفا.

عرجت فترة، بتأثير شقيقي البكر، على الرواية العربية الحديثة. فكانت قصائدي العربية الاولى. ولم أوقع هذه القصائد. رهانا أنها تنتمي إلى مفهومي عن الريح.

لنومىء الآن الى قصائد المراهقة ولنزعجها قليلا، كما يليق، معرضين عن رعشتها التي صارت الآن الى ذبول. كنت أنشيء القصيدة ذات الادوار والسونيته حسب تتالي الفصول وأشحذ بعدها بأمانة بعض أبيات تهم بالاقلاع أو تأتي مجرجرة أو مصلصلة. فأُطبّق، مثلا، على الورقة شجوى مسائية وأطلق لنفسي عنان الحلم وأجيزها أن تنهي العالم عن التبس فينجلي انصاتي. والحق أن الطبيعة بأكملها كانت في عوني مبيحة نفسها لسلطة خطوطي. ويروح تقمصي الصغير يتوالد بحيث أني أغضّ الطرف بقرف عن قدرتي اللامنتاهية. وفي هلامية الخريف بعد أن أوغل في النوم وفي الحلم، انطلق نشوان من نهاية سونيته إلى قصة شجوى. واصديقتاه ؟ هكذا صرخت خلال هذين اليومين، صديقتي، يا صديقتي، العذبة....

ولتشع القافية شاطحة، بأسرع من لمح البصر، فأنتظر، هادئا، أن تثغو على ريشتي، وكثيرا ما تنعجم، أعاجيب أخرى. ذلك نفَس جزل ! فتأتي الكلمة متجملة بعلامات كتابية، خلاصة مرتعشة لانبهاري أمام الورقة البيضاء. ومن كان له أن يجرؤ على منعي من تقفية «بد» و «برد» وأنا اضطرب من جرأتي ؟ من ؟

صدتني هذه البراءة فجعلت أعارض شعر الآخرين وشعري الشخصي، ابتكاري المتقطع النزر كالحوزقة. أقلد بريفير فأختم قصيدتي ببهلوانية كأن أقول : لقد أدرك الفتى كافة ما يدركه كل فتى حين لا يدرك من الفتيات إلا لماما.

ولم يكن بد من نذر هذا الهوى : رفعني الشعر فنذرت نفسي عاشقا. دعوت عشيقتي «الحمامة الوديعة» ونفسي «فرحزين» [1] كانت تنشر في «الخميس الادبي» في صحيفة «ماروك ــ بريس» وأنا كذلك. ودام النذر سنتين. وقلت : سيتتوج كل شيء بالحب. كنت أشتهيها كلماً فتجيبني تنهدات مبهمة.

وجعلت أطوف بانتظار أن تنجلي الامور وهمّتْ خَيَالاتي [2] بالإنطلاق فإذا بنسوة

(1) فرحزين، كلمة مؤلفة من : فرد وحزين مقابل لـ solitriste

(2) خيال مقابل لكلمة fantasme

يساورني وسواسهن فاترقبهن في منعطف كل شارع. وامتنعن عني إلا صورتهن في قافيتي فأتحسسها ولا يتشكك مخلوق.

أيها المراهق يا أخضر العينين، نفسي أنت تنطقها ثم إلى الماخور فتغور في فروج كفوهة البراكين. حلم مزعج مراهقتك. ها أنت، معتمداً غانية، تطوف فخذا وتتبع ذاهلا دخان لفافة لم تنطفىء بعد وتؤوب اليها، تنزلق على الرصيف انزلاقا لئلا ينفضح أمرك، و لا تراها من جديد إلا وهي مفتحة العينين وأنت خاو.

الآن توافيك «الحمامة الوديعة» للمرة الاولى، فاركض وحثّ الخطى وامسك بيدك صحيفة تستدل بها عليك. ستحضر متوثبة، متماوجة، وسيطالب ثوبها يدك أن ترقص رقصا حقيقيا. فهدّىء من أعصابك وفكّ من عقدة لسانك، يخلق من أحدكما الى الآخر بضع جمل نشوى، رقيقة، ملامسة. ها أنت تخطو خطوة وها هي تتخطاك وترسل يدها في الهواء. تتوقف وها هي جالسة تحفر في المقعد ثقبا. وهل من حال أبأس من حالك وانت تنشر حياتك وترقبك وصغار تعاساتك ! انها الآن تبتسم ويتيه ثديها بعض التيه فيما يشبه مهزلة محكمة. صحيح أنك تدّعي أنك ستمتلكها كليا الصيف المقبل. غير أنها سوف تتركك في الحديقة، ممسكا باليد صحيفة وسوف ترحل فترة أخرى في ملاقاتها، وسوف تأتي إلى لقائك. وسيخيب الامل بتفاهة فتقف متجمدة، مجموعة الفم، دلتا، توحدا. فاشرق بدعمك وانصرف قل : وداعا أيها الادب التراسلي، أيها الشعر الناهد. وإن بدا لك أن تعاند فحاول فتاة أخرى وغازل هذه الدهقلة العوراء فسوف تضمك اليها وهي تصرف بالاسنان. ولن تحصدا معا، والثوب منها حتى الرأس، إلا العناء. إنها تسعى اثر زوج وأنت ترغب في امرأة فاغتنمها حجة غريبة على مثيلاتها إذا صرت في وضعيات جنونية. هندم فؤادك الموداد في شعرك الفقيد فلن يبقى لك إلا امتلاك الجسد السيد مغالبا نفسك والآخرين. وبعد، أيها المراهق يا أخضر العينين، لك رأس مفكار، التاريخ يترقبك، صدّقني، ولسوف تكون.

فصل من رواية «الذاكرة الموشومة» ــ ترجمة بطرس الحلاق.

عبد اللطيف اللعبي

رسائل إلى الأطفال

هل هذه الرسائل موجهة لياسين وهند فقط ! ؟

هل هي مصاغة للتباكي على عهد أحضان الاحباب، أو استجابة «لنصيحة» الجلاد ـــ الواعظ حين يلفت انتباهك لامور ربما تكون قد تناسيتها : العائلة ..فكّر في العائلة، فكّر في الاولاد، وهات يمينك لتخيط صدء الاتعاظ !

وتقرأ الرسائل، فتجد أنها لا تعني ياسين وهند وحدهما بل تعني قضية. والقضية هنا شجرة، لكي نحصل على ثمارها الطيبة، يجب أن نعتني بها باستمرار..نسقيها، ونرعى نموها باستمرار.

والقضية هنا طفل..ومادامت حقول من الاطفال تباد في الكتب المدرسية كما في الشوارع لكي لا نخرج للتغني بالقضية، فقد قررت الرسائل «أن تبيد الكتب المدرسية، وتغرس في الحقول حباً ورفضاً : الحب ليتعلم الاطفال كيف ينبتون بشكل أحسن حتى تصبح الحياة أكثر جمالاً وأكثر عدلاً. والرفض كي يتحول الحب إلى قذيفة تطلق سراح الامل، وتخلّص الاطفال من «زعموا أنه كان في قديم الزمان...» ومن «ماما..ثمرٌ..بومٌ» فتغتال البُومَ..

ولا يخلِّص الاطفال..إلا الاطفال..ويتغير كل شيء مادام كل شيء يتغير.

ثم أعد قراءة الرسائل، ولكن هناك موضوع يجب أن لا تهمله أبداً، هو واقع بلدنا... فانتزع حق النقاش فيه وكشف الاوراق التي حُجزت، كي لا تسافر معقوف الظهر، بل تموت واقفاً، كما تموت العصافير ـــ الاطفال في شهر حزيران..هل رأيت، هاهم يقتلون الاطفال ! ألم أقل لك إنهم يكرهون الزهور البرّية حتى وهي براعم، بل وهي براعم ! فتعلم إذن «أن تتخلى عن هذه العادات السيئة، تعلم كيف تتحدث لمن هم أصغر سنّاً، والبحث عن لغة تمكنك من التفاهم معهم، «فهم رصيد حبك للمستقبل.»

وبعد..فهذه رسائل حب إلى كل الاطفال المقبلين على اغتيال بقع الوحل المبثوثة في صدر الوطن..وفي الذاكرة.

إلى أطفال غسان كنفاني «الذين شاهدوا الظلم، ظلم الطبقات، وظلم الاحتلال (...) ولكن بهم ومنهم تغيرت المفاهيم، وولد الانسان الجديد «البنادق في المخيم».

إلى كل الاطفال القادمين من الليمون والزيتون «وكريان ابن امسيك» مادامت نفس الصرخة تنبعث من نفس القلوب.

تلك هي رسالة عبد اللطيف إلى ياسين وهند.

المترجم

28 مارس 1972

ياسين وهند..طفلاي العزيزان

أكتب لكما هاته الرسالة لاقبلكما. بحرارة بالغة ولتشعرا أني أفكر فيكما كثيرا. أعرف جيداً أنكما انتما كذلك تفكران فيّ وترغبان في رؤيتي. لحد الآن لم أتمكن من رؤيتكما، ولكني استطيع رؤية جوسلين. وفي كل مرة كنت أرجوها أن تقبلكما بحرارة وأن تطلعني على ما تفعلان، وهل أنتما حزينان، وإن كنتما تعملان جيدا في المدرسة كما أني استفسرها عن أحوال «قدس» حيث أعلم أنها قد سمنت كثيرا، منذ أن غادرت المنزل.

لابد أن جوسلين، قد أخبرتكما، أنني هنا، في السجن بالبيضاء. السجن شبيه بدار كبيرة تحتوي على عدة حجرات، وما يميزها عن دار كدرنا هو أنه لا يمكن للواحد أن يخرج منها حسب مشيئته. آكل وأنام جيدا، وأنا هنا مع بعض الاصدقاء في نفس الحجرة..هل رأيتما يا أحبتي، السجن ليس أمراً صعباً، فكثير من الناس مثلي — في كل البلدان، ومنذ زمن بعيد — دخلوا السجن. هؤلاء الناس مثلي كانوا يعملون في كل وقت، ليتمكن كل الرجال والنساء والاطفال من أن يأكلوا جيدا، ولكي لا يرتدوا ملابس وسخة أو ممزقة، وحتى يجدوا منزلا نظيفاً وصلباً وبه ضوء (ولكي لا يسكنوا «منازل وقعت لها حادثة» كما قالت هند، ذات مرة، وقد كنا نتجول بالسيارة).

عندما نعمل من أجل ذلك نذهب إلى السجن في بعض الاحيان، لان الناس الاغنياء لا يقبلون ذلك، وإلا فإنهم سيصبحون أقل غنىً. على كل حال..سوف تفهمان هذا الامر شيئا فشيئا، كما ستفهمان أشياء أخرى أكثر تعقيداً. وأنا متيقن من أنكما انتما كذلك ستدافعان عن الناس الفقراء، لاني أعرف فيكما كرمكما وقلبكما الكبير.

طفلاي العزيزان، أنا هنا حيث أنا، جد فخور، ولي ثقة كبيرة في المستقبل، وفي يوم من الايام لا أستطيع تحديده بالضبط، سوف أخرج من هنا، ونصبح من جديد مع بعض، وإذا كنا لا نستطيع اليوم أن نلتقي، فإن كل واحد منا يفكر في الآخر، وبذلك نحس جميعاً وكأننا مع بعض، لان المحبة التي بيننا قوية وعظيمة.

أكتبا لي أنتما كذلك، رسالة صغيرة، لتقولا لي ما رأيكما، وما تفعلان. أقبلكما بكل حرارة وأطلب منكما أن تقبلا «قدس» لأجلي. سأكتب لكما في مرة قادمة.

أبوكما.

24 غشت 1972

هنــد

في أقل من شهر سوف تبتدىء السنة الدراسية، ولهذا لم يبق لك إلا وقت قصير لكي تتعلمي أن تكتبي بعض الشيء. لقد كنت وعدتني بذلك، لهذا سأكون في انتظار أول رسالة تكتبينها لي بخط يدك، وأعتقد أن جوسلين على استعداد لمساعدتك، يلزمك فقط قليلا من الارادة والتمرس وسوف ترين أن كل شيء سيصبح سهلا، تعدينني أن تحاولي، أليس كذلك ؟

ماذا تفعلين هذه الأيام ؟ هل شاهدت أفلاما جديدة ؟ هل تعرفت على صديقات جديدات ؟ وقدس هل بدأت تلعبين معها قليلا ؟

بالنسبة لي، لاشيء تغير هنا، كل ما هنالك أني أفكر فيك أكثر من السابق، وأرغب باستمرار في أن أحضنك واتحدث إليك. كما أني أقرأ بعض الكتب وأكوّن كثيرا من القصائد في رأسي، تلك القصائد التي سأكتبها عندما أرى البحر من جديد، ورماله الساخنة، وكذا الاشجار، والناس وهم يمرون في الازقة وعندما أراك أنت وياسين وقدس وكذا أجمل وأرق انسان عندنا جميعا : جوسلين

أحبك كثيرا، وأنت تعرفين ذلك جيداً، أحضنك كما لو أن ذلك حقيقة.

6 يونيو 1973.

هند حبيبتي

تسلمت البارحة رسالتك، وهي مكتوبة بشكل جيد جدا، وتقولين لي فيها أشياء حركت في داخلي كثيرا من المشاعر. نعم بنيتي الحبيبة، يجب أن نكون شديدي الجَلَد كي نصل إلى ما نريد، وهي الامور دائما هكذا : لكي نحصل على ثمار، هذه الثمار الطيبة التي نحب، يجب أن نغرس شجرة صغيرة ونعتني بها باستمرار، نسقيها..وننتظر سنوات قبل أن تكبر، وبعد ذلك تأتي الثمار ونكون قد حصلنا على ما نريد، علينا أن نعرف كيف ننتظر وأن لا نخاف أبدا من الانتظار، لاننا نعرف أنه في نهاية المطاف، هناك شيء نرغب فيه من كل وأنه قلبنا، سوف نتمكن من تحسسه والوصول إليه.

أعرف أنك أصبحت الآن فتاة ناضجة وشجاعة وأنه يمكنني أن أعتمد عليك كي تعتني

بهاته الشجيرة الصغيرة وأن تنتظري الوقت الكافي واللازم لكي تكبر وتعطينا الثمار.

أفكر فيك كثيرا ولكن بهدوء (...)

9 شتنبر 1973

ابني العزيز

مر وقت كثير ولم أكتب إليك، ولكني كنت دائم التفكير فيك، وكم كنت سعيدا حين علمت أنكما — أنت وهند — قد قضيتما عطلتكما على أسعد حال، الجبل، الشاطىء، الاسفار، لابد أنك قد استرحت كثيرا وجددت قوتك ونشاطك.

لابد أنك تعرف ما أسفرت عنه المحاكمة، لان جوسلين قد تكون أفهمتك ذلك. المهم أن نبقى دائمي الامل وأن لا نفقد شجاعتنا.

فكر فيَّ بهدوء وثقة، لا شيء سيتغير بالنسبة للماضي. سوف نستمر في رؤية بعضنا من حين لآخر. وفي الكتابة لبعض من حين لآخر. وسوف أحاول من جهتي أن أساعدك قدر المستطاع، وكلما كنت في حاجة لذلك. أعتمد عليك كثيرا أن تستمر في نشاطك الدراسي الجيد، وفي مساعدتك لجوسلين.

لابد أنك تعرف كم أحبك

كن قويا ياشمسي الصغيرة وابني العزيز.

30 دجنبر 1974

هند حبيبتي

رسالتك أسرتني كثيرا. لقد وصلت متأخرة جدا ولهذا لا أكتب لك إلا الآن. أنا سعيد لانك أصبحت تساعدين قليلا في أشغال المنزل، وأنت تعرفين أنني لا أقصد أن على البنات وحدهن أن يفعلن ذلك دون الاولاد، فهاته الاشغال مفروض أن يقوم بها الاولاد والبنات على حد سواء ودون تمييز بينهم. إذا كنت سعيدا فلانك أظهرت لي أنك تعرفين، وتريدين أن تعملي ليس فقط بفكرك (كما في المدرسة أو حينما تراجعين دروسك) وإنما كذلك بيديك، فكما تعلمين، كان الناس — في الماضي — يعتقدون أن العمل الفكري من دراسة ومطالعة وقراءة، هو وحده الجدير باهتمامهم؛ بينما يعتبرون أن العمل باليدين لا يليق بهم، وإنما هو من اختصاص الخدم والخادمات، هذه الفكرة خاطئة تماما، فالإنسان عليه أن يدرس، وأن يعمل كذلك بيديه. وهو حين يقوم بهما معا يتعرف وبشكل أحسن على الحياة، ويصبح بالفعل إنسانا نافعا، لهذا أنا سعيد لكونك تساعدين جوسلين قليلا في المنزل. عليك أن تتعلمي سريعا كيف ترتدين ملابسك لوحدك، وكيف تصلحين فراشك وتنظفي غرفتك. ومع ياسين

يجب أن تعتنيا بغرفتكما في كل شيء. ثم حين تتناولوا الطعام جميعا، فليس من العدل أن تتركا جوسلين تنظف الطاولة لوحدها، وتغسل وتمسح الاواني وتقوم بالكنس. بل أن تقوموا بذلك جميعا. من جهة لان ذلك يختصر كثيرا من الوقت، ومن جهة أخرى سوف يحس كل واحد منكم أنه قام بعمل نافع بمشاركته في ذلك.

14 مارس 1975

عزيزتي هند

لقد فرحت كثيرا وأنا أتسلم رسالتك والرسوم التي بعثت بها إلي. لقد حاولت أن أفهم ما رسمته : في أسفل الورقة أعتقد أني أرى ساحة وبها سجينان : وفوق قليلا، شيء يشبه الحائط وفوق أكثر، توجد جبال تكسو قممها الزهور، وبين الجبال شمس ساطعة حمراء...هكذا فهمت ما رسمته. من الممكن أن تكوني قد أردت أن تقولي أو أن ترسمي شيئا آخر. على كل حال فقد كان ذلك بالنسبة لي، رسما جميلا لانه يذكرني بالفراق. وبالحرية، وما أحببته كثيرا هو تلك الزهور الجميلة في قمة الجبل. عليك أن ترسمي ما أمكنك ذلك، لأن الرسم يمكنك من أن تقولي الكثير مما تحسين به دون أن تستطيعي التعبير عنه باللسان.

أنت تعرفين ياحبيبتي كم أنا معتز بك، وبلطافتك وبالمساعدة التي تقدمينها لأمك، استمري في ذلك، وحاولي أن تقرئي أكثر عوض مشاهدتك الطويلة للتلفزيون، هل توافقين ؟
أقبلك بحرارة. أبوك

10 غشت 1975

ابنتي العزيزة هند، لقد كنت شهية جدا يوم الجمعة الماضي في المزار. تغدين كل يوم جميلة أكثر، أقول لك هذا لانه حقيقة فعلا. ولكنك تعلمين أن الجمال ليس هو المهم بالنسبة للفتاة. المهم في كل ذلك هو الشجاعة واللطافة وأن نكون عادلين، وما يثلج الصدر معك أنت، هو أن لديك الكثير من تلك الخصال، لابد أنك مسرورة بعد كل هذا الامتداح أليس كذلك ؟
لاتغتري كثيرا مع ذلك.

قولي لي، لم تحدثيني بعد عن ذلك السفر الكبير. كيف هي الطائرة، وماذا شاهدت من هناك ؟ ألم تخافي قليلا مثلا ؟ وفرنسا ؟ هل أعجبتك ؟ أنا أعتبر أن فرنسا بلد جميل جدا. أولا لان جوسليننا ازدادت هناك، وثانيا لانها فعلا بلد جميل. ولكن لابد أنك لاحظت وجود أناس كثيرين، وكثير من السيارات كالنمل. ألم تشعري بالبرد هناك ؟ لابد أنك ستحدثينني عن كل ذلك.

بالنسبة لي، لقد كنت كذلك في عطلة، وبطريقتي الخاصة. هذه الايام كنت أجري كالمجنون، وأستحم بالماء البارد، وأتمدد تحت الشمس...الخ، وهذا يكفيني. لا أشعر بالملل أو الضيق لاني أفكر دائما في شيء ما، أتحدث وأضحك وأعمل، وأغني من حين لآخر. لقد نسيت ثلاثة أرباع من كلمات الكثير من الاغاني، لكني كنت أكتفي بما تبقى لليلة سهر كاملة.

هكذا عزيزتي هند، حين نحب بعضنا كثيرا، لا نشعر أبداً بالوحدة أو التعاسة، لان ذلك يزودنا بالقوة مدى الحياة.

غزالتي الناعمة، أقبلك. إلى أن أقرأك

20 يناير 1976

ابني العزيز ياسين

تسلمت اليوم رسالتك وبطاقة تمنياتك، وقد أفرحني ذلك كثيرا، لانك لم تكتب إلى منذ مدة طويلة، لابد أنك تعرف يا ياسين أني أفتقر إلى رسائلك كثيرا. أنا في حاجة لان أسمع، هكذا، صوتك، وأن أعرف فيم تفكر، وكيف تفكر فيّ أنا. أن أقرأك أو أتحدث إليك، يزيدني قوة وشجاعة كي أحتمل السجن، ولكي لا تصيبني التعاسة أبدا، وكي احتفظ دائما بالابتسامة والغبطة، لاني أحبك يابني، أنت الآن كبرت ما فيه الكفاية كي تفهم معنى الحب، سواء كان الحب الذي يحمله الاب لابنه، أو الابن لابيه، أو الحب الذي يحمله رجل لامرأة (كحبنا أنا وجوسلين) الحب شيء أساسي في الحياة، وهو يعني أن لدنيا نفس الاحاسيس، وأننا نرغب في نفس الاشياء، وأن لدينا نفس الاهداف، وأننا نبذل جهدا دائما للتفاهم ولفهم بعضنا البعض، حتى يصحح كل واحد منا الآخر بلطف حين يرتكب خطأ أو يشوبه اعوجاج. والحب يعني أننا لسنا أبداً وحيدين، لان الذي نحب هو دائما بجنبنا يشجعنا وتزيد من قوتنا. هل ترين إنه لحظ كبيرا أن نحب بعض في هاته الاسرة الصغيرة التي نكونها، والتي نريدها دائما موحدة قوية، مرحة ودؤوبة. إنه لكنز حقيقي هذا الذي نحمله فينا، والذي يجب أن نعتني به وأن نصونه كزهرة رائعة وكلما كان حبنا عميقا، كلما استطعنا أن نفهم الناس الآخرين، وكذا المجتمع والعالم الذي نعيش فيه. لان الذي يحب يصبح شديد الكرم، ويعمل على أن يصبح الناس كلهم سعداء.

ياسين، لقد شعرت بألم عميق للحادثة التي وقعت لك، أتمنى أن تكون ذراعك قد شفيت، في يوم الجمعة المقبل آمل أن أراك في صحة جيدة.

قرأت هنا، كتابا رائعا، وأرغب كثيرا في أن تقرأه حتى ولو كان طويلا شيئا ما : وهو معنون ب «القصيدة التربوية» سأحاول أن أخرجه كي تتمكن من قراءته. سوف تجد بعض

مقاطعه معقدة إلى حد ما ولكن أكثر أجزائه بسيط وستفهمه بدون صعوبة.

لقد أحببت رسومك، حتى ولو كانت حزينة قليلا. فهي رسوم شاعر حقيقي. بالمناسبة هل لا زالت تكتب من حين لآخر ؟ صارحني بذلك، لا يسعني إلا أن أشجعك على الكتابة كما كنت تفعل من قبل عامين أو ثلاثة.

ياسين، سأكونّ سعيدا إذا ما قرأت لك ولو رسالة واحدة كل أسبوع. هل يمكنك أن تمنحني نصف ساعة صغيرة من وقتك ؟ سأعتمد عليك في ذلك. وبالمناسبة هل تقرأ لكم جوسلين الرسائل التي أكتب لها ؟
لقد طلبت منها ذلك مرارا، ولكنها لم تجبني في ذلك.

إليك يا ابني.. كل حناني.

6 يونيو 1976

ابنتي الحبيبة.

أكتب لك الآن، كما وعدتك بذلك، ليس فقط للاجابة على رسالتك القديمة، ولكن هكذا، لكي أثرثر معك قليلا وأشاكسك وابتسم لك، ولأشعرك من خلال كتابتي وكأني ألامس رأسك.

إذن لاشاكسك أولا : لم يبق بإمكاني أن أناديك «بسمكتي الصغيرة» لقد كبرت الآن وسمنت شيئا ما، أريد أن أقول كذلك أنك قد زدت جمالا وعذوبة، ولكن لن ألح كثيرا، حتى لا تتحولي إلى محبة للتأنق والتزين المبالغ فيه. إنك تعلمين ما موقفنا ــ أنا وجوسلين ــ مما يسمى بالجمال. سواء كان ذلك بالنسة للبنت أو الولد، ليس الاهم هو أن تكون العيون جميلة أو الايدي ناعمة...الخ، نعم إن ذلك شي لطيف، ولكنه ثانوي : الاهم هو ما نقوم به، والطريقة التي نتصرف بها مع الآخرين، والجهود التي يبذلها كل واحد منا لكي يفهم ما يجري في الحياة، ولكي يصحح ذاته في اتجاه نقاء وعدالة أكبر. ما أقوله لك هنا يمكن أن يبدو لك معقدا بعض الشيء، ناقشيه إذن مع جوسلين.

ماذا عن نفسي ؟ إذا كنت لا تعرفين ذلك، فأقول لك أنه منذ جئت إلى هنا، تعلمت أشياء كثيرة لم أكن أعرفها، و لم أكن ببساطة أقوم بها من قبل. تعلمت التصبين والطبخ وكافة الاعمال المنزلية الاخرى. كما تعلمت بعض الألعاب الترفيهية. حين سنعود من جديد لبعض، سنتقاسم العمل في المنزل وسنلعب كثيرا كشياطين.

وأنت، ماذا فعلت في الايام الاخيرة ؟ إذ أنك لا تتكلمين كثيرا حين تأتين لزيارتي، فتكتفين بالابتسامة لي وبإلقاء نظراتك العذبة، حتى أني أتساءل هل أصبحت تتكلمين أقل من ذي قبل أم ماذا ؟ لاني أعرف عادة، أنك تترثرين كآلة تسجيل صغيرة، أليس كذلك ؟

بعد امتحاناتك، سوف انتظر منك الكثير من الرسائل والرسوم، وسوف تحكين لي كل ما تشائين. إلى ذلك الحين أتمنى لك التوفيق.

7 يوليوز 1976

ابنتي العزيزة

وصلتني رسالتك متأخرة جدا، ولهذا لا أجيبك إلا اليوم، أتمنى أن تتوصلي برسالتي هذه قبل يوم عيد ميلادك. فسأشعر حينئذ وكأني قد قبلتك قبلة إضافية. إذن سوف تتمين سنواتك العشر يا هندي العذبة ! أصبحت إذن فتاة مقبلة على اجتياز امتحان الشهادة الابتدائية. يلزمني إذن أن أتعلم كيف أحدثك كفتاة عاقلة وناضجة لاني تعودت كثيرا أن لا أرى فيك إلا تلك الصبية التي كنت ألاعبها فوق ركبتي، وتلك البنية السمكة — الصغيرة التي كيف أعض على وجنتيها في بعض الاحيان. كل شيء يتغير، هذا ما يجعل الحياة جميلة : أطفال اليوم هم نساء ورجال الغد الذين سيعملون كثيرا حتى تصبح الحياة جميلة أكثر، ولكي يحترم الناس بعضهم بعضا، ويحبوا بعضهم بعضا كثيرا. هأنذا أقول لك من جديد أشياء معقدة، ولكن، على كل حال، ستفهميني ولو قليلا، أليس كذلك ؟

عيد ميلاد سعيد يا بنيتي الحبيبة، وتهانئي لنجاحاتك المدرسية. أنا سعيد لذهابك إلى تونس. إنها بلد جميل. يكون الصيف في تونس أكثر حرارة منه في الرباط، ولكن الشواطىء جميلة هناك، وسوف ترين كثيرا من الاشياء الجميلة، وتتعلمين السباحة جيدا وتغير الشمس بشرتك إلى اللون البرونزي. أعتمد عليك وعلى ياسين كي تتفاهما هناك ويساعد الواحد منكما الآخر. سوف تكتبان لي وتبعثان بطاقات بريدية كما ستحاولان تعلم بعض الكلمات من اللهجة العربية التونسية، التونسيون يتكلمون لهجة العربية أقرب الى من تلك التي نتكلمها نحن في المغرب، مع بعض الاختلافات. طريقتهم في الحديث تشبه نوعا ما الطريقة التي يتحدث بها المصريون (لابد أنك تعرفين اللهجة المصرية ما دمت تشاهدين الافلام في التلفزيون).

أما بالنسبة لي فأنا على أحسن حال. أقوم ببعض التمارين الرياضية كل صباح، وأستحم بالماء البارد وأقرأ كثيرا. وبالمناسبة، لقد أعدت قراءة تلك الحكاية الجميلة لدى غوركي والتي حدثتكم عنها في يوم ما : «قصة دانكو» هل تتذكرين ؟

الطقس جميل هذه الايام والسجن هادىء. أفكر فيك بحنان (...)

28 دسمبر 1976

ابني العزيز ياسين

أكتب كما وعدتك بذلك، رغم التأخر الكبير. في الواقع، كان لابد أن أتمعن في قصيدتك

وفيما سأكتب لك. ليس من السهل أن أتحدث عن الشعر لفتى في مثل سنك. مع الاسف، نحن الكبار، تعودنا أن لا نتحدث عن مسائل من هذا النوع إلا بيننا فقط، وكأن الفتيان أو الاطفال ليس في إمكانهم أن يفهموا أو أن يحسوا ما هو شعر أو موسيقى والعديد من المسائل ذات الاهمية الاكبر، كالعلاقات بين الناس؛ بين النساء والرجال وبين الراشدين والاطفال، وكالمشاكل التي يعيشها كل مجتمع...الخ يلزمنا بالتأكيد أن نتخلى عن هذه العادات السيئة، وأن نتعلم كيف نتحدث لمن هم أصغر سنا والبحث عن لغة تمكننا من التفاهم معهم.

ما أقوله لك هنا، يجب أن يدفعك للمطالبة بحق الحديث عن كل المشاكل التي تطرح عليك. فقم بذلك بكل ثقة، وبدون خجل أو حرج.

أرجع الآن لقصيدتك، وقبل كل شيء يجب أن تتخلص من ذلك الشعور بالخجل الذي ينتابك حيال ما تكتبه. أن تكتب معناه في العمق، أنك تتقاسم مع الآخرين شيئا ما، وهو كأنما توجه دعوة للتفاهم وللمحبة وللقيام بشيء يحبه الجميع.

عندما تكتب قصيدة. تقول في داخل نفسك وأنت تفكر في الآخرين : «هذا هو أنا، ما أحبه (في هذه الحياة) وما أكرهه. ما أريد أن نقوم به جميعا. ما رأيكم في ذلك ؟ إذا لم تكونوا متفقين أجيبوني ولنتناقش حول ذلك، وسأكتب قصائد أخرى تعمق (وتشد أكثر) الروابط التي بيننا» كما تقول كذلك داخل نفسك : «قصيدتي تريد جوابا، أجوبة. هدفها هو أن تصبحوا أنتم جميعا شعراء، لانه في ذلك الحين سوف نتفاهم أكثر ونناضل بشكل أحسن لكي تصبح الحياة أكثر جمالا وأكثر عدالة، وليختفي منها القبح والخبث»

كيف وجدت قصيدتك ؟ إنها لرائعة، لسبب أساسي : لقد استطعت أن تعبر عن ما يخالج أحاسيسك، ولقد فعلت ذلك بكل شجاعة. الشعراء الفاشلون لا يستطيعون الوصول إلى قول الحقيقة في القصيدة، ولهذا لا يمكنهم التأثير على أحد فعندما نقرأ قصائدهم لا نشعر بأي شيء، أما الشعر الحقيقي فهو على العكس من ذلك تماما، يحرك مشاعرنا ويهزها، وفي نفس الوقت يغني شخصيتنا حين نقرأه، ويجعلنا نكتشف أشياء لا نستطيع التعبير عنها بوسائلنا الخاصة. وقصيدتك هي بالضبط من هذا النوع، غنية، تهز القلب وتدفع للحلم والتفكير.

هكذا ابني العزيز، كنت أود أن أحدثك كثيرا عن «الشجرة الدموية» لانه مازال فعلا، الكثير ما يقال عنها، ولكن ليس لي المكان الكافي، سنعود للحديث عن كل ذلك عندما تبعث لي بقصائد أخرى.

أتمنى أن لا تجد صعوبة كبيرة في فهم ما أقول، وإذا كان الامر كذلك فحدثني عنه.

أعانقك بحرارة ياشاعري الناشيء. إليك.

21 مارس 1977

ابني العزيز

لنتحدث أولا عن القصيدة التي بعثت لي بها مؤخرا، لقد قرأتها مرات عديدة وإني لاجدها جميلة جدا. لقد تغيرت طريقتك في الكتابة وأصبحت تعبر بطريقة أكثر بساطة من السابق، بالاضافة إلى ذلك، فإنه على عكس قصائدك القديمة، حيث كنت تريد أن تقول كل شيء دفعة واحدة مما يعكس نوعا من الاضطراب، تحس في هذه القصيدة أنه أصبح لك هدف واضح، وأنك فكرت في الطريقة التي توصلك إليه، وإنك قد وجدتها أخيرا. هذه الوسيلة هي مقارنة بين وضعية الطائر في القفص وبين وضعية كل الناس الذين يتألمون ويطمحون للحرية والحياة حقيقية. كل هذا يبين لي أنك فكرت جيدا فيما يحيط بك، وبدأت تشعر أن حياتك ليست مقطوعة عن الآخرين، وأن كل مشاكلك هي مشاكل كل الناس، وإني لسعيد لهذا التحول الذي طرأ عليك.

وأبدي لك الآن بعض الملاحظات الصغيرة : الانسان ـــ الطائر في قصيدتك يتحدث عن حياته وعن المعاملات السيئة التي يتلقاها، كما يتحدث عن ضياع حريته. وبعد ذلك، يفهم شيئا فشيئا، أن وضعيته تلك ليست إلا وضعية مؤقتة، لان الانسان الحقيقي، الطائر الحقيقي يلجأ إلى استعادة حريته بإصراره على ذلك وشجاعته. ولكن خلال مسار أفكاره، يتناقض الانسان ـــ الطائر مع نفسه، حين يقول مثلا :

«السلام لن أعثر عليه أبدا
الحرية لن أعثر عليها أبدا»

وقبل ذلك يقول نفس الشيء :

«حريتي أريدها
ولكني لن عثر عليها»

مع العلم أنه في آخر القصيدة، يؤكد العكس تماما :

«هؤلاء الناس الحقيقيون...
سيقاتلون...
وسيظفرون بحريتهم...
هاته الحرية سوف تعيش
وتبقى إلى الابد.»

لابد أنك تفهم لماذا أقول أنه يتناقض مع نفسه. ولكني مع ذلك أرى جيدا ما أردت أن تقوله : لقد كان الانسان ـــ الطائر في البداية يرزح تحت ثقل الواقع ويشك في إمكانية استعادة حريته، ولم يستعد الامل واليقين في ذلك إلا في الاخير، حيث تأكد أن كل شيء سيتغير. إذا كانت هذه هي الفكرة إلتي كنت تريد التعبير عنها فقد كان عليك أن تجنب

الطائر من أن يقول بشكل قطعي : «الحرية لن أعثر عليها أبدا»، كان عليه مثلا، أن يطرح المسألة على شكل تساؤل :

«هل أعثر يوما على السلام، على حريتي».

حدثني عن رأيك في هذه الملاحظات، وإذا لم تكن متفقا معي فاشرح لي ذلك (....) إليك أيها الشمس الصغيرة التي تكبر بسرعة.

20 أبريل 1977

ابنتي الحبيبة

(...) لا تتصورين كم يسعدني كثيرا أن أتسلم رسالة منك، إنها بمثابة حفلة صغيرة

إذن ما تريدين تحقيقه هو أن أخرج من السجن «وأن نعيش سعداء كما كنا من قبل» هذا ما قلته في رسالتك نعم بنيتي سوف تتحقق هذه الرغبة إن عاجلا أو آجلا. يلزمنا فقط مزيد من الصبر. ولكن لنوضح : الصبر لا يعني ـــ أن ننتظر وأن نحزن من وقت لآخر، أن الصبر كما أفهمه يعني أن نعرف كيف ننتظر بشجاعة، كما أنه يعني ـــ أن نعمل ونتعلم كيف نصبح أحسن. وهكذا حين نلتقي من جديد مع بعض. لن يكون الامر كما كان من قبل فقط، بل أحسن من ذلك سوف نتعاون أكثر فيما بيننا ونعمل على فهم بعضنا البعض، بشكل جيد، وكل واحد منا سيأتي بأفكاره ومقترحاته حتى يحس الجميع بأن له دوره وأنه يساهم بشكل نافع وفعال. سوف نكون كما قلت مرة لجوسلين كأصابع اليد الواحدة. انظري إلى يدك، كل الاصابع سواء الصغيرة منها أو الكبيرة، له دوره وأهميته الخاصة، وإذا ما أزلت واحداً منها، فلن تستطيع يدك أن تقوم بأي عمل بشكل جيد، وعلى العكس من ذلك، فإن اليد بأصابعها الخمسة أداة رائعة. فهي تتمتع بمرونة كبرى وبخفة ودقة (كبيرتين)، هكذا نحن الخمسة (في أسرتنا الصغيرة)، وإذا ما فكرت قليلا، فسوف تجدين أن ما حدث لنا، لربما هو شيء إيجابي؛ لقد تعلمنا كيف نحب ونحترم بعضنا البعض بشكل أحسن من ذي قبل. وفتحنا أعيننا على أشياء كثيرة لم نكن نفهمها من قبل. أن نفهم، فذلك يقوي إرادتنا في تغيير الاشياء التي تمنع الحياة من أن تصير أكثر عدالة وجمالا (...) أضمك إلى صدري بحرارة بالغة وأداعب رأسك بحنان كبير.

ابنتي العزيزة، أكتبي لي.

15 يناير 1978

ابني العزيز ياسين

لقد كتبت إلى هند لاجيب على رسالتها الاخيرة، لكنه حزّ في نفسي أن لا أكتب إليك أنت أيضا، رغم أنك لم تف بوعدك لي خلال الايام الاخيرة. أبعث لك إذن بكلمة قصيرة

آملا ألا تخلف وعدا قطعته على نفسك، نعم يا ياسين، الوعد شيء بالغ الاهمية والجدة ولهذا يجب احترامه بأي وجه كان.

لقد كنت سعيدا إذ رأيتك يوم الجمعة، وإذ لاحظت أن علاقتك بهند أصبحت جيدة، لاني أعتقد أنه رغم خصامكما المستمر فسوف تصيران صديقين حميمين، قادرين على التعاون والتفاهم فيما بينكما، وهذا شيء طبيعي، لانكما قد كبرتما ليس فقط في قامتكما، ولكن بقلبكما أيضاً. لقد بدأتما تتساءلان عن الحياة وعن الناس، عن بلدنا وعن العالم. لقد بدأتما تكتشفان أسس الروابط التي تجمع بين الرجل والمرأة وبين الأبناء والاباء، وبين الصديق والصديقة وبشكل عام بين كل الناس الذين يعيشون نفس الآلام ويعانون من نفس الوضعية. إذن لقد بدأت الحياة بالنسبة لكما تأخذ معنى ما : فهي ليست فقط أكلا ونوماً ومطالعة، كما أنها ليست فقط ممارسة لبعض الهوايات، ولكنها كذلك وعلى الخصوص، بحث دائم عن كيف نصير نافعين فيها. وكيف نجعلها أقل ألماً وأكثر سعادة وعدالة للجميع، وهي في الاخير فهم لهذا العالم الذي نعيش فيه : لماذا هو هكذا وكيف يمكن أن نغيره حتى يصبح أكثر قابلية للعيش والعمل فيه.

ها هي إذن، يا ياسين، مجموعة من المسائل التي يمكن أن نناقشها بعمق أكثر، فلربما أنها تشغل بالك شيئا ما فإذن لا تتحرّج في الكتابة لي عنها. قل لي ماذا تقرأ هذه الايام ؟ هل تسمع الراديو ؟ ما هي البرامج التي أنت متتبع لها ؟ أي نوع من الموسيقى تحب أن تسمع ؟

هنا في السجن الطقس بارد جدا. يوم أمس لم أستطع الخروج إلى الساحة طوال اليوم فلزمت الفراش، وحاليا أقرأ «كرة من الشحم» Boule de Suif لكي دو موباسان. كما أني استمر في تعلم الاسبانية، وأقرأ مجلات متنوعة علمية اقتصادية وأدبية.

ها أنذا قد كتبت لك رسالة أنت أيضا.

حتى أقرأك أيها البخيل (في الرسائل طبعاً)، لا تغضب. أقبلك.

16 يناير 1978

ابنتي العزيزة

كما قلت لك في المزار، لقد وجدت رسالتك رائعة (...).

تقولين لي أنك عندما أعدت قراءة رسائلي. لاحظت أني اكتفي في أغلب الاحيان بأن أسألك عن أحوالك و عن الافلام التي شاهدتها، وأن أقول أنك تحرزين على تقدم ملحوظ في دراستك..الخ. وأني لا أحدثك إلا قليلا عما أفعله في السجن، و عما أقرؤه، وبكلمة واحدة عن الاشياء الجدية.

إن ماتقولينه صحيح بعض الشيء، فأنا لا أحدثك كثيرا عن حياتي في السجن، ولكن

يجب أن تفهمي لماذا لا أقوم بذلك ؟. إذا كنت لا أقوم به، فلانني أتحدث عن ذلك كثيراً في الرسائل التي أوجهها إلى جوسلين، وبما أني أعتقد أن تلك الرسائل ليست موجهة لها وحدها، ولكن لك أنت أيضا ولياسين، فأني قد طلبت منها مرات عديدة أن تقرأها لكما و على الاقل تقرأ لكما المقاطع التي تخصكما أو تلك التي أتحدث فيها عن حياتي هنا في السجن هل فعلت ذلك ؟ سوف نرى الامر فيما بعد.

أما الآن، فإن ما تقولينه خاطىء من بعض جوانبه، فأنا أتذكر جيدا أنه في بعض رسائلي إليك، كنت طلبت منك مراراً أن تتكلمي لي عن أصدقائك أو صديقاتك أو عن مشاكلك إذا كنت تعانين من بعضها، أو أن تطرحي علي أسئلة حول أي موضوع من المواضيع التي تهمك أو كل ما يخطر لك في البال و يثقل على نفسك. أعيدي قراءة رسائلي فسوف تتأكدين من ذلك.

أعرف ياحبيبتي أنك أصبحت فتاة ناضجة، قادرة على فهم كل شيء. لست في حاجة فقط لكي نداعبك ونتسلى معك، بل أنت في حاجة كذلك لكي نفهمك ونتناقش معك، وأن نشرح لك ما لم تستطيعي فهمه بوسائلك الخاصة. كل هذا أعرفه جيدا، ولهذا كنت دائما ألح عليك أن تكتبي لي باستمرار. هناك أمر يجب أن تفهميه يا هند : إن الحب الذي يجمع بيننا هو كشجرة، لكي تكبر وتتقوى وتصبح أكثر جمالًا، تحتاج كباقي الاشجار أن نعتني بها كثيرا، فكل شجرة هي في حاجة لكي نسقيها ونشذب أغصانها من حين لآخر لإزالة الاوراق الذابلة عنها ...الخ، فهكذا هو حبنا، شجرة حناننا، محتاج هو أيضا للعناية. هذه العناية تعني أن نتحاور باستمرار لكي نتعاون ويصبح الواحد منا الاخر، ولكي نحل المشاكل الصغيرة التي تعترضنا في الحياة، وحتى يشعر الواحد منا بقربه من الاخر، وموحدين باستمرار، أليس كذلك ياهند ؟

أعدك أن أحدثك أنت أيضا عما أفعله هنا. استمري في الكتابة لي
أعانقك بحرارة.

21 دجنبر 1978

ابني الغالي

مضى بعض الوقت لم أرك فيه. ولم أتسلم فيه رسالة منك، ولكن ذلك لم يمنعني من التفكير فيك، كما يحدث أن أفكر في جوسلين وفي أختيك، بنفس الحدة التي أفكر بها في كل الاطفال من مثل سنك والذين يعرفون نفس مشاكلك، ويشعرون بنفس الغضب، ويحلمون بمجتمع أكثر عدالة، يضمن تفتح شخصية الانسان مادامت ستنقرض فيه كل الافكار البالية.

هل تعرف يا ياسين أنه يحدث أن أشعر بالحزن عندما ألاحظ انعدام حوار مستمر بيني وبينك. سواء كان ذلك بواسطة الرسائل أو بصفة مباشرة عندما تأتي لزيارتي. أنا لا أريد أن أتهمك بالخطإ، لأني أعرف أنه يصعب عليك أن تقول ما تحس به وبشكل طبيعي. في مثل سنك نلج جميعا إلى خلق عالم صغير، خاص بنا. له غرائبه الخاصة ومآسيه الصغيرة ننغلق داخله ولا نريد اقتسامه مع الآخرين خوفا من أن يكتشفوا ضعفنا أو تناقضاتنا.

أنا أفهم جيدا هذه الحالة النفسية، ولهذا لا أوبخك على ذلك. فأنا كذلك (ـــ عندما كنت في سنك) مررت بنفس الحالة وعرفت نفس المشاكل. الفرق الذي بيننا، هو أنه بالنسبة لي أنا، عندما كنت في نفس سنك، لم يكن هناك أحد يمكنه أن يفهمني أو حتى أن يهتم بالكيفية التي أعيش بها، وبهذا كان علي أن أحل مشاكلي بنفسي. والامر ليس كذلك بالنسبة لك، لان كلا من جوسلين وأنا، كنا دائما على استعداد لسماعك ومساعدتك وفهمك. وإذا كنا ولا زلنا كذلك نحن الاثنين فلاننا نريد أن نعرف العلاقات التي تجمع بين الابناء والآباء، كما نريد أن نغير جميع العلاقات الاجتماعية الاخرى، فنحن نعمل على خلق رجال ونساء من نوع جديد، متحررين من كل الافكار البالية والعلاقات الاجتماعية الظالمة، ومن كل أشكال الهيمنة والاستغلال. وعلى انقاض الوحدة والانانية وكافة الشرور، نريد أن ننشر التفاهم والتضامن والتضحية وأكبر قسط من العدالة.

لقد أسمعتك خطاباً مطولًا، بينما لم يكن في نيتي إلا أن أقول لك صباح الخير، وأن أسألك عما تفعله وعن أحوالك الصحية وأن أقبلك.

إليك يا ابني الحبيب.

25 دجنبر 1978

ابنتي الغالية

أعيد قراءة رسالتك الملونة والجميلة، التي أفرحتني كثيرا، كما يمكن أن تتصوري. أتمنى أن نستمر هكذا في الكتابة لبعض، ولو من حين لآخر.

إذن فأنت تقولين، أنك تخجلين من أن تحدثيني عن بعض المسائل التي تخصك، وعلى الخصوص، أنك تخافين من أن لا أفهمك (هكذا تقولين). ابنتي العزيزة، لقد قلت لك مراراً أنه لا يجب أن تخجلي من أن تحدثيني عن أي شيء سوف يكون ذلك أمراً سخيفا. بالنسبة لي. أعتقد أن كل ما نفعله، وكل ما يحصل لنا ينطوي على تفسير ما، تلزمنا معرفته حتى نستطيع تصحيح سلوكنا في الحياة. ففي كل يوم نقع في أخطاء، ولكن ليس ذلك أمراً خطيراً، على العكس فهو شيء طبيعي. المهم في ذلك هو أن نفهم أخطاءنا، وأن تكون لدينا الشجاعة الكافية لتصحيحها.

شيء اخر : ليس لديك أدنى باعث على الخوف من أن لا أفهمك، على العكس، أنا على أتم استعداد لفهمك ومساعدتك على حل المشاكل التي تعترضك. صحيح لقد كان الابناء في الماضي، يشعرون بهذا الخوف إزاء آبائهم. ولكن لماذا يحدث ذلك ؟ لان الروابط التي كانت تجمع بينهم كانت تقوم على عدم التفهم والتقدير. فالاب مثلا، كان دائما ينتظر من أبنائه الطاعة لاوامره، وإلا عرضهم لعقاب شديد، كما لم تكن هناك، أبدا، أية امكانية للنقاش. ولكن علاقتنا هي بطبيعة الحال مختلفة، فهي ليست مبينة على الاكراه، بل على النقاش الحر والتفاهم. دورنا، أنا وجوسلين، يتمثل في مساعدتك على أن تتوصلي في أقرب وقت للاعتماد على نفسك، ولكي تتفتح شخصيتك، وتحصلي على أفكار صحيحة، ولا يمكننا أن نصل إلى ذلك إلا إذا كانت بيننا صراحة تامة، وإلا إذا اختفى الخوف والخجل من علاقتنا. هل تفهمين يا هند ؟

إليك يا ابنتي العزيزة

17 يناير 1979

ابني العزيز ياسين

وأخيرا توصلت برسالة منك، ولكنها رسالة جيدة فعلا، مكنتني من معرفة مشاغلك واهتماماتك بشكل أحسن. أنا سعيد إنك تهتم بهذه الجملة من الميادين ذات الاهمية المتساوية، لابد أن رأسك ممتلىء لحد التخمة. ولكن قل لي، ألا زلت تكتب الشعر ؟ أتمنى أن تحتفظ بهذه الحاجة للتعبير، بواسطة الشعر، من حين لآخر. فلا يجب أن نكتفي بابتلاع المعلومات، ولكن أن ننتج شيئا ما نحن كذلك، وأن نعبر عن رأينا وعن مشاعرنا.

ملاحظة أخرى : قلت إنك تهتم بالعلوم وبالتاريخ القديم. أنه شيء إيجابي جدا، يجب أن تستمر في تنمية معارفك حول هذه المواضيع، ولكن هناك موضوع يجب أن لا تهمله أبدا، وهو واقع بلدنا : تاريخه الحديث، واقتصاده. مشاكله وحياته اليومية. لاجل ذلك يجب أن تقرأ بشكل منتظم الصحف والدراسات التي تنشر في المجلات، وكذلك وعلى الخصوص أن تطرح الاسئلة من حولك، وأن تناقش وتلاحظ جيدا حياة الناس.

طيب، أجيب الآن على أسئلتك : نعم، لقد أحرزت على تقدم مهم في تعلم الاسبانية، أقرؤها بدون صعوبة، وأعتقد أني قد حسنت كثيرا طريقة النطق بها، حتى أني سأبدأ في إعطاء بعض الدروس فيها لبعض الرفاق، فربما تعرف أنه قد أنشأنا مدرسة فيما بيننا، وهي تضم أربع مستويات : ابتدائي، قسم شهادة الدروس الابتدائية، ثانوي وقسم الباكلوريا، حيث أقوم شخصيا بإعطاء دروس في الفرنسية وقريبا في الاسبانية لقسم الباكلوريا (....)

الحديقة هزيلة هذه الايام، بحكم الموسم. ولكن عندنا مع ذلك بعض الزهور والنعناع.

شجرة اللوز التي زرعناها، بدأت تكبر وتفرع أغصانها الصغيرة، مكسوة ببعض الوريقات
لقد شذبنا شجرة الورد لكي تزهر في الربيع
لم يبق مكان لاستمر في الكتابة. أقبلك إذن.

21 يناير 1979

هندى العزيزة

لقد كتبت للجميع، تقريبا، هذا الاسبوع، ولهذا لا يمكن أن لا أكتب إليك أنت أيضا، رغم أنك لم تبعثي لي ولو برسالة. لقد كنت سعيدا إذ رأيتك وقبلتك يوم الجمعة الماضي. لم نتكلم كثيرا بسبب الضوضاء، ولتواجد عدد كبير من الزوار. ولكن المهم هو أن نرى بعضنا، أن نعبر، ولو بدون كلام، عن حنان كل واحد منا للاخر. أليس هذا صحيحاً ؟ فلسنا في حاجة لكثير من الثرثرة لنقول أننا نحب بعض، وأن لكل واحد منا الثقة في الاخر، وأننا على اتفاق في الكثير من المسائل.

من جهة أخرى، أريد أن نعرف ماذا قررت بالنسبة لاذنيك ؟ هل فهمت جيدا شروحاتي في الموضوع. باختصار ها هو رأيي : 1 — ليس مشكلا كبيراً أن نكون دائما متفقين، فإذا ما كانت لك رغبة كبيرة في إجراء عملية ثقب الاذنين. وإذا لم تجدي شروحاتي مقنعة، فتصرّفي كما يحلو لك. 2 — في العمق، إن ما كنت أحاول أن أفهمك إياه هو أن تلك الفكرة نوع من التأنق. أن ترتدي الاقراط معناه أنك تريدين أن تكوني جميلة أكثر، وهذا ليس أمراً سيئاً في حد ذاته، ولكن يجب عليك أن لا تهملي أمراً، وهو : من أي زاوية ينظر بها مجتمعنا للمرأة أو للفتاة ؟ إنّ الفتاة في مجتمعنا ينظر إليها على أنها قبل كل شيء موضوع للزينة والجاذبية، أي كائنا لا يفكر ولا يفعل في الواقع، وهذه وسيلة لجعل المرأة أقل شأناً من الرجل وحصر دورها في دور الدمية الجميلة.

«كوني جميلة واسكتي»، هذا كل ما يطلب من المرأة. هل تقبلين أن يحصر دورك في هذا المجال، في هذا الموقع ؟ لا أريد أن أقول إنه إذا ما أجريت عملية ثقب الاذنين فإنك تقبلين ذلك، ولكن إذا لم تكوني حذرة في ذلك، فمن الممكن جدا أن نصبح رغبات من هذا النوع. فقد تبتدئين اليوم بهذا، وغدا ترغبين في شيء آخر، وهكذا شيئا فشيئا تصبحين الدمية التي حدثتك عنها من قبل. فتقبلي أن تكوني جميلة فقط وتسكتين، ولهذا يجب أن تكوني واعية بهذا الامر منذ الآن.

أرجو أن تقرئي هذه الرسالة بكل تمعن، وأن تفكري جيدا وتقولي بكل صراحة رأيك في الموضوع. فلم يمض وقت طويل وقد كنا قد اتفقنا على أن نقول لبعض كل شيء.
حتى أقرأك يابنتي العزيزة.

4 غشت 1979

ابني الحبيب ياسين

لم أتوصل إلا اليوم فقط، برسالتك المؤرخة في 26 يوليوز، والمرفقة بالقصيدة. بطبيعة الحال لقد توصلت من قبل بالبطاقة التي تمثل «جسر بوردو المعلق» والتي أعلنت لي فيها عن رسالتك المقبلة، ولهذا انتظرت كل هذا الوقت حتى اتمكن من الإجابة عليها. قالت لي جوسلين أمس بأنك كنت تنوي العودة في 13 المقبل فليس لرسالتي هاته إذن، إلا الوقت اللازم لوصولها قبل سفرك. وهذا على الاقل ما أتمناه، لاني أرغب كثيرا أن تعلم كم هزتني قصيدتك في أعماق نفسي.

هل رأيت يا ياسين، أن الشعر وسيلة رائعة للتعبير عن مشاعر الانسان، عن رقته، عن حبه وقلقه، وللتعبير كذلك عن تواصله مع الآخرين بشكل أكثر عمقا مما هو عليه الحال في الاحاديث العادية. ولكن يجب ألا أتحدث عن الشعر بصفة عامة. بل إني أريد أن أحتفل بقصيدتك أنت، ولقد بدأت فعلا في ذلك، إذ اطلعت عليها مجموعة من الرفاق. وقد عبروا عن نفس القناعة التي وصلت لها : لقد وجدوها بسيطة وجميلة ودقيقة. هل تعلم يا ياسين أنه لشيء رائع أن تفكر فيّ بتلك الطريقة، وبهذه الحدة، وأن أعرف كذلك أن كل الذي أعيشه يهمك بكل تلك القوة التي عبرت لي عنها، أعانقك يا ابني وصديقي وأخي.

ولاجيبك على أسئلتك، فإني لا أتريض كثيرا هذه الايام، بسبب داء المفاصل. عندنا الآن حديقتان صغيرتان عامرتان بشتى أنواع الزهور والنباتات : شجرات الورد، ياسمين الليل، لبلاب كسبر، ريحان، فلفل، نبات الطماطم، ذرة زهور الشمس وشجيرات كبُرتا واستقام عودهما. ومساحة كل حديقة 10م^2 تقريبا. الجديد في الامر هو أن بعض الرفاق صنعوا قناة موصلة لمياه الصنبور الموجود في الساحة، ولهذا يمكننا أن نسقي الحديقتين كل يوم.

(...) إلى اللقاء يا ابني العزيز. أنا متشوق كثيرا لان أراك مرة ثانية وأن أقبلك بالفعل.

نقل النص عن الفرنسية أحمد تسوسة

بشير قهواجـــي

إنشاد للملكة آلجليلة

بقربان يبتدىء آلطقس
وبموت يتّصل آلكائن بآلأصل

ــ شمس آلشتاء

آخرُ شعاعٍ غاربٍ غادرَ غرفتَنا موشوشاً :
شتاء...شتاء...
ووجهُكِ نصفُهُ للعتمة ونصفُهُ للنورِ آلذاهلِ
آقتَربي أرَ وجهَكِ لشمسٍ تَهبُ
آلصحوَ وتمنحُ آلضحكات آلمنسيّة
آقتربي.

ــ زهرة آلبرونز (1)

مغنطيسٌ ثقيلٌ يسمّمُ آلظلالَ تحت أقواسِ آلجِصّ
وآلفاجعَةُ تكنُسُ بلاطَ آلقلعَةِ
مضتْ مركبةُ آلشتاء بآلملكة آلجليلة
تسعونَ من آلخيّالَةِ آلسُّودِ مرُّوا خلْفَهَا
سنابكٌ وسنابكٌ ونُثارُ وَحْلٍ على مسالكِ آلسباسبِ.

ــ زهرة البرونز (2)

عواءُ آلقطِّ آلحَبشيِّ مُرْتعِبُ آلاختلاجِ
وطيفُ زهرةِ آلبُرُنْزِ ذاهِلٌ في أدخِنَةِ آلغرفة آلمُغْلَقة
ملاكٌ طَرَحَ وشاحَ آللؤلؤ وآلريشِ الاسْودِ
على سريرِ آلملكة
آلقلبُ آلرخامُ تكسّرَ فجأة على منضدة
آلأكل وآلكتابة
وآلباب آلمصفَّحُ أُوصِدَ بإيماءةِ جناح

ــ زهرة آلبرنز (3)

آلأذن يرودها خرَس تجيء به
غمغمات آلسهوب
وزهرة آلبرنز في صقيع آلعتمة صمّاء
كأذن موهوبة للصمت
من في إظلامة آلقلاع لسماع آلانشاد
وترجيعه آلاوجع ؟
من ؟
آلأذنُ يرودها خرَسٌ مدنّسٌ بتراتيل جنازة.

زهرة آلبرنز (4)

لايّ آلسماوات تمدّ زهرةُ آلبرنز تاجَها ؟
سماء آلقلعة جرداء
وكلّ آلسماوات في لعنة آلقفر كآلأرض
بعد آلخراب :
رحيل آلغبار وصوت آلتدحرج في آلهاوية.

آلهديّة

شهر آلربيع آلاول
عندما يزدَهر آلأقحوانُ في مَمَاشي آلمقابر
يقتطف آلشاعر زهرة برنز
هديّة لاعراس آلشعراء في آلصيف.

ــ قنديل آلمنعطف

آنطفأ آلقنديل آلأخير عند آلمنعطف
آلريح توقظ آلبردَ آلقديم في مكامِن آلإرتعاد
تدفع دوّامة غبار عبر بوّابات آلصخر
إلى آلساحة آلغامضة
آنطفأ آلقنديلُ آلاخير و آلحلكة آنغلقت
على مسالك كلّ الايام.

آلخمرةُ آلرديئةُ وحشيشةُ آلكوابيس كلّستَا

هذا آلقلب
صبّارٌ وحسكٌ غذاؤنا وغناؤنا صمتٌ
في آلأقبية
آه، شجر آلايام تحجّر
ومليكة قلعتِنا شبحٌ يسكن شاهدَ قبرٍ.

أجراس آلساعات كجوقٍ شرِسٍ تقهقه
تعلنُ ساعةً كانت لنُزْهَتِنَا.
لَمْلِمِي أطرافَ ثوبكِ آلرخام وتعالَيْ
نغسلُ ساقيْنا بمياهِ آلبدرِ آلمثلّجة
ونبلّل شعرَنا.

ــ آستواء

وحشة آلمدن وَرَّمَتِ آلقلبَ
وآلمسالك إلى الصحراء موحشةٌ

وآلعَجَلَةُ
تخبُّ في آلسكون
كحصانٍ معدنيٍّ تقرعُ آلمنعطفَ.

آنظرْ أيها آلقلبُ آلمتورِّمُ
آلآنساتُ آلعاشقاتُ يَنْسَيْنَ مواعيدهنّ
أمسياتُ آلربيع تنسى دفئها
تغمرنا بقشعريرة آلبرد
تعلَّمْ أيهَا آلقلبُ
أنسَ لهاثَك وهذا آلدويَّ
غداً لن نحتاجَ إلى ذاكرة.

ــ مشهد آلليل

آتسع مشهدُ آلليل في حديقة آلقطِّ آلحبشيّ
أسوار آلقلعة تُردِّدُ تنفُّسَ آلشجر آلأوسترالي
وشبح آلملكة في ردائِها آلاغريقيّ يطرق

آلساحة آلغامضة
كانت لك أمنية آبتسامة أيّها آلقلب.

ـــ الايام آلعجاف

بلغ آلليلُ مداهُ يا سيّدةَ آلكابوس
وها عصافيرُ آلدوريّ تَسْبِقُ آلصبحَ
بسقسقاتٍ متشابكةٍ
تعلنُ نهارات أصيافٍ أخرى في آلقلعة
وعشايا من آلشاي آلرديء وآلغبار.

ـــ مرايا آلصيف

آنحدري في عربات آلغبار أيتها آلملكة
نُزْهَتُنَا آليومَ في حقلِ آلزيتونة آلمعمَّرَة
لنا آلشمسُ في عَراءِ آلسهوبِ
وبيتٌ من آلظلِّ تحت زيتونةِ آلحقلِ آلاصلع
هناك، نجلسُ على زربية صمتِنا قرب زجاجة
آلماءِ وآلكأسِ آلفارغتين.

ـــ آلطفل آلعجوز وآلقلعة

كبرياء آلكلس وآلرخام، أمُّنَا،
أيتها آلعتيقة بين قلاع آلعرب
طفلُكِ آلنحيف برأسه شعرات بيضاء
وظلُّهُ آلاطوَلُ في آلظلالِ تقوَّسَ على
بلاطِكِ آلاملس
طفلك آلنحيفُ شاخَ فجأة
وآختلاجات وجهه معتّمة في أزقّة
آلكوابيسِ وفي آلمقهى وفي ساحات آلشمس.

ـــ آليد

أيةُ يدٍ تَمَلَّكت حكم آلبدن ؟
أيَّةُ يدٍ هذه آلخارجةُ من وَحْلِ آلارض
ملتهبة تؤذي وتؤذي ؟

قَبْلُ،
كانت يدٌ شاحبة جليلة تحملُ ٱلسَّكِينَةَ إلى أوقاتنا.

ـ آرتجال

آه، لو تسمعون كما أسمعُ
هذا ٱلصوتَ ٱلمتَّسقَ من فوضى ٱلعناصِرِ
يغنّي
ولادةَ ٱلملِكِ
وٱلحبَّ ٱلاسطوريَّ في مدائِنِ ٱلملاكِ.

طبولٌ

طبولٌ تعلنُ ٱلليلَ، تمتدحُ في رهبتها سلطانَهُ
وآذان ٱلمغرب يشيع شوقَ ٱلمشلولَتَيْنِ إلى
مشيٍ في أغوارِ الظلمة.

طبولٌ.
طبولٌ

وصرختُنَا بين صرخاتِ ٱلعتمة تدحرجت
وراءَ آنزلاقِ ٱلشمسِ بعد أصيلٍ شاحب.
آلريح في ٱلحديقة تُدَحْرِجُ ذاكرةَ ٱلخريف
تحت ٱلمقاعِدِ ٱلمقرورة
وجَوْقُ ٱلشتاءِ فوقَ شوارعِ ٱلقلعة
جُهِّزَ حَفْلُ ٱلصمت أيتها ٱلرّوح ٱلمستغرقة
في أوجاعها.

صوت ٱلختام

هنا يَسْمَحُ لنا صمتُ ٱلأبديةِ ٱلمنحوتِ
في ٱلمجرّاتِ بكلامٍ قليلٍ، ثمّ آه...
فرحتُنَا ٱلقصيرة تستعيدُها ٱلارضُ
ونحن لم نَقُلْ حكايَتَنَا كاملةً.

القيروان

سعيد المولودي

هـذا قليـل مـن الشـوق

اعلم وطني انك خارج من ألق الموت، تحيي رمل النار في لونك، وتبدأ أعناق الزيتون والنخل والتين / بيروت حورية من اغصان هذا المد جئناها على قيظ الملكوت، ابرحت جاراتها في مهنة الخوف، فاعلم انك تبني الغول في وجهي، مامنا الا مصلوب على حرف بيروت، ومنحوت على غابات يترب.../ لما جاءها المخاض قلنا يا وطني اليك المشتكى.. وضعتْ أصبٰاغها على سكون البحر، لم تنبض ذاكرة السنان، قاتلت بصرها يا وطني، قلنا هذا أوان القتل، من لا يقتل الناس يُقتل، ومن يظلم الناس لا يظلم، مددنا أوصالنا في بيداء الحر، هشمنا الثريد، والجرائد على مرماك... انا فتحنا لك هذا الفتح المهين، ليس لموتانا بطاقات رسمية، ليس لنا إلا ان نرسم الاسماء على هذا القعر المشدود إلى اوتار الجماح، المشفوع بلذة الجماع، والاعتذار عن حفل الاختتام، نخاطب ساحاتك المغمورة في الأوثان، نصلي صلوات الاستشقاء، من لا يشقى في محبتك، أيها العقد الفريد في خانات السماء...

لا تعلو به قدم

هذا اسمك المتقدم في سواحل الدمع، فَقِنَا صبوة الزيغ، وكن هذا النزيف المشرق في فارعة الفلاح، والشريد، والمشنوق بالأمن، كذلك يستيقظ أحراش النبوة

في مراجلك..

انك تعلم سر النجوى والنعيم المفتعل في الحصون والشوارع الدفلى، فاعلم انك هذا القدر المحصول في الأبهاء، والمحلول في اعياد الطبل والغيطة، لا شيء منا يمسح درع الشمس، لا ماء.. لا هواء..

هذا مقامك، لا تصلُ، لَا نَصلُ، لا يصل مجدك، عبوراً إليك،

لستُ أنت،

أنت الضمير في كمين الفقراء، هلا اتصلت هلا انفصلت هلا بارزت شيئك، قاتلت كثبان الفجر وعيون الظهيرة...

لك الملك والانفطار...

شَان شْوِيتْ أُومَارَكْ أَيَا...

لفرط هذي الرغوة الوحشة الفاحشة، اقتربت، اكتويت بالملح، وبلابل العصف، من يأكل هاماتك، يفني تنفيه أو تفنيه لك البدء...

هل تناسل منك بيروت يا أبتي المرة، لأن تنهار باسمك الفحولات، الغزوات المجانية، أيها الأعرابي ـ الورق المقوى، والمتزوج الأرباع تبيد الزرع والنسل تمطر القهر، هو السيف لذوي القربى، والمساكين واليتامى... فيه الأجر المضاعف / المتضاعف..

لك القسوة وحدك...

ومن لا يركب الخطر الى هواك تغمدته بعيثك،

لك النظر،

أي ربيع أنت تدمي، اي خريف تبدي..

ساقترب ارتقب ابرق، هذا سر المهنة وطني لست مني، ما بيننا جدار القارب، وألف ياقة من الغربة تأسر مساءاتك، لاشيء غير جسدي واحتراقي أشهرهما قربانا لحضرتك فاستثر ناقتي بهواك الحداء، لك الصورة، لنا الدم، نبنيك على مشتهى القدم والساق، لم نصل لم تصل..

هذا عين الهوادة،

فهل تربو الفتنة إليك، من أين ترحل بيروت لأين، وأنت تعلم ان الرحيل لا يكون الا لواحدة : إليك.

وَاشَانْ شْوِيتْ أُمَارْكْ أَيَا...

مقصور هذا السفر إليك، إنما النية بالأعمال، أغريب أنت، أبعيد، أقريب، أيها الأقسى، الأقصى، لا فرق بينك وبين النأي، هل تفتض سمتي، أنا مهيض العشق، لا عشق الآن الا للموت، ولا موت إلا أن يكون تحت ضفائر بيروت، وانت تعلم سر النار، لما تكظم جنازتي، وتلتفت إلى صدري كالغليل، تنسل إلى مُديتي، فاعلم ان طعنة الجبان أبداً تقوم من الخلف...

إيوَا شَانْ إِيمِيقْ أُومَارْكْ أَيَا...

من يدلني إليك، أي مساء يهنيك، أي مضاء، لا تواخذني على انقلاب العين في العين، واغتيال المطر في قارورة العطر، ما للكشف خير من سعتي، أنا المصبوب في كفيك، تطيّر من حدقتي ليلة العجف هي عودتي، قدر الساقين ان يفترقا يرتفعا وينسدا على مسغبة الجوف... من أجل هذا السراب تفتنني البداوة والهراوة لأرجمن داليتي، ولا يتكلم... فإليك عني ما شهادتي إلا جسر بين خطوط مداك تتوّج النفي علينا سلطاناً، تكتف أوضاعنا لجزائر الخلد صولة تبدأ من شارات الفلق، ما بيروت إلا مأدبة لنا موجة من لا تغويه الصلوات

في محراب الرماية، باركنا فيه مَرَق الصديد، فالى اين ترحل السنابل منها، وانت تعلم ان الرحيل لا يكون إلا في الحلول...

لا تبادلني جرحا بالجرح، إني امتد على نتوء الزحف، جنون التلال لا محيد عنك حتى توثقك غرفة الاشتهاء أعْلَمُ مخارج الصوت، مداخل النهر، لا غضب ياتينا في الغفوة، لا صدود عنك، انت تلهب مخازن الحدود، تتحد أوتارك بالنجم، ولذة القتل في القتل... لتشربوا على هواكم :

برميل نفط خير من ألف بيروت

لبيك... لا ياتينا الدم الا مستباحا، صراحا، شتاتا يلملم البعضُ البعضَ منا، وخير البيت القبر، فلا تنزع شطآنك اليك — منك هذي الحرمات توكل عيانا، قد ترعى الهواجس في أنظارك، والرحيل انت تعلم —

منك — إليك

فكن زاد العثرة، وولي هذه المحنة، واعلم انك غائق الصب والهوى، والوريد والنوى، تجيف الجند الابواب في عوائد الصدر، ليس لي الا شكل حَمَّالِ الصد /

هذا انكشافي اكتشافي

اقتناعي انعتاقي

ظلي ولظاي

هذه بداية العد، والقد، فاعقل سحائبي، وتوكل،

واشـــددني

إلى صحراء شفتيك،

وارتضيني نوحا محفوظا على شرفات معراجك،

وافتح لي طستك، وسرة لطفك،

أخلــع هامـــــتي....

إيَوا شَانْ شْوِيتْ أُومَارْكْ أيَا

أولَا مَايْذَا شْنَيخْ أُولَا مَايْذِ يِشَيذْ...

ألف لام، نون، فاء، طاء، غلبت الروح، لم يبق من عاشقتي إلا سرب غمام يكنزني يركب القاصي والداني أأحملك أم تحملني ياهم الغربة في برد الأزمنة الحافية... لا غرب ينكث وضوئي لا شرق يمشط أشلائي.. حلية السوق وحدها توصدني تصرعني على شآبيب الصبية، وهذا الهجير النائم في طليعة الساعد ينض زواله عن مفاتن الشوق.. النفط والدولار أهلكا من قبلنا، ألا أنهما مهلكانا.

وانت تعلـم...
شمّر عن ذاكرة البئر
لا تصادق ظاهر اليد،

هذا ترف الأئمة،
فامكث فيك / لا عصمة اليوم :

كلامنا قمع مبيد كاختصر : نفي، وقتل، ثم ذبح البشر فاستعذ ــ بطينتك، بارك شيعة اليم،
لقد ظهر الكساد في الحرف والحرب:
فاشددني الى حزام أمنك
أنزِلْ فيَّ شراسة الغرق
شراسة الغرق

ــ شَانْ شَوِيتْ (إيميق) وُمَارْكْ أَيًا (هذا قليل من الشوق)
ــ أولا ما يَنْدَا شنيخْ أولا ما يُدِ يَتُّيدْ
(لا أملك ما أقول، لا تملك ما تقول).

مناقشات :

«الدعوة السلفية وأثرها في الأوساط الشعبية المغربية»

يسعدني، وقد قرأت العدد الاخير للمجلة ــ 22 ــ 1981 حيث وقفت على ما نشرتم تحت عنوان «أربعة دروس عن الحركة السلفية» للاستاذ عبد الصمد بلكبير، إنه بحق بحث مستفيض، ودراسة عامة للحركة السلفية يشكر عليها.

نعم، لقد وقفت فيها على عدة ثغرات سها عنها، ولم يتعرض لها، أو جهلها ! أو لم يقف على مراجعها ؟

وعلى كل، هي ثغرات هامة، أغفلها، وهي في الطليعة لمن عاش أحداثها، وتذوق حلوها ومرها وشارك فيها وأسهم لمن قريب أو بعيد.

ومن قلة الإنصاف وعدم الاهتمام بها وبأصحابها الذين أدوا الامانة على أحسن الوجوه، ويعدون بحق أسبق من غيرهم، وأقوى خدمة للسلفية، ونشرها بالشمال الافريقي أجمع، وبالمغرب الاقصى أخص جماعة لهم قدم صدق في الاسبقية. وفي الشهرة والمشاركة في الميدان بكتبهم وصحفهم ومجلاتهم ودروسهم وتلامذتهم الكل يشهد لهم بذلك، وقد أغفلهم صاحبنا فوجب التعليق على ما غفله وتوضيح الحقائق، لأن كل تاريخ في نظري لا يعتمد على المراجع الصحيحة في النقل والدراسة والفهم والإدراك تختلف المخالفات في نفس الموضوع يعد تاريخا مخدوشا ومشوها !؟

لهذا رأيت من واجبي أن أعلق على ما كتب، وأتدارك ما نسيه أو سها عنه، أو تجنبه لسبب من الاسباب، إحقاقاً للحق وصدعاً بالحقيقة.

عساكم تأخذون الامور والافكار والنظريات والكلمات والدراسات بنزاهة وإنصاف، وتنشرون كل ما يرد عليكم في الموضوع بالعدد المقبل بإذن الله حتى تستوفي الدراسة حقها ويحكم جانبها وينصف من أغفل ذكره عمداً أو خطئاً وتظهر الحقيقة جالية وناصعة وواضحة، والله من وراء القصد.

منذ سنة 1920 إلى 1930، ظهرت الدعوة السلفية في أشكال وأنواع : فظهرت في الدروس، والدعوة، والارشاد، والمؤلفات والجرائد والمجلات، وبرز أول تأليف صغير الحجم قوي المفعول، أقام ضجة لمؤلفه الشاب إذذاك، الشيخ محمد المكي الناصري تحت عنوان «**إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة**».

نعم تجاوبت بهذا الحدث أرجاء المغرب، واستطاع بعض الدساسين بواسطة دعاية «الحماية البغيضة» أن يخلق تيارا ضد الدعوة السلفية، والكتيب الصّادر فيها.

فظهر في المسرح الاستاذ الشرقاوي، حيث ألف كتاباً في الرد على الاول سمّاه «**نهاية الإنتصار وغاية الإنتصار على صاحب الإظهار**» فكان لهذا الصراع الاثر الحميد. فالاول جاهر بالحقيقة، والحقيقة كما يقول شاعر العراق :

هي الحقيقة أرضاها وإن غضبوا ... وأدعيها وإن صاحوا وإن سلبوا
أقولها غير هيّاب وإن حَنقوا ... وإن أهانوا وإن سبُّوا وإن ثلبُوا
ولست أول من أبدى نصيحته ... لقومه فأتاه منهم العطبُ

أصبحت الحرب عوانا بين شقي الامة المغربية، طائفة تنتصر للسلفية، ودعوتها التحررية من الاوهام، والتدليس، والرهبانية الفاشلة، وأخرى تنتصر بالطرق (ولا أقول الصوفية* لأني الصوفية في نظري، ونظر الواقع سلفية، إلا من شذَّ، والشاذ لا حكم له).

اشتدت الازمة، وظهر في الميدان عدة كتب ونشرات ومؤلفات، في مقدمتها مؤلف الاستاذ الاديب الغيور أبو الشعور (محمد بن اليمني الناصري) دفين البقيع النبوي الشريف، تحت عنوان «**ضرب نطاق الحصار على صاحب الإنتصار**».

وصدر كتيب لاخينا الاستاذ مصطفى الغربي لمناصرة التيجانية، وعقبه مباشرة ظهر كتاب تحت إسم «**لا شرقية ولا غربية**» يعني لا كتاب الشرق للشرقاوي، ولاكتاب مصطفى الغربي، وطال هذا الحوار، واشتد وشاع وذاع، وخلق أجواء في الاوساط الشعبية، واكتفى بهذا في الموضوع.

ثم أنتقلُ إلى دروس التوعية السنية السلفية، تفسير كتاب الله ودروس سنة رسول الله، ويعد في القمة الدرس الذي يعد صرخة مدوية، أي دروس المحدث الحجة أبو شعيب الدكالي المحدث الشهير، والذي ورد بجانب الملك المولى عبد الحفيظ من الحجاز، وكلفه صاحب الجلالة بنشر الدعوة السلفية : نظرا لكونه هو نفسه كان في طليعة دعاة السلفية، فله مؤلف، ضد التيجانية ومواقفه ضد الطرق مشهورة، فنزل الشيخ أبو شعيب للدراسة بالقرويين العامرة، ولخطبة الجمعة في عدة مساجد بفاس العاصمة العلمية، وضاق به أنصار الخرافات، ضاقوا به درعاً، حتى أن بعضهم كتب وثيقة غريبة في شكلها، ووضعها في درج منبر خطبة الجمعة، وبمجرد طلوع الخطيب أبو شعيب وجد الوثيقة تقول : قول الله جلت قدرته :

«قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول، وإنا لنراك فينا ضعيفا، ولولا رهطك لرجمناك، وما أنت علينا بعزيز» فكتب تحت الآية «الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرون، فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين.

كما ظهر في ميدان الدعوة السلفية تلاميذ الشيخ أبي شعيب بالرباط كالعلامة البارع، والحافظ المبدع، والذي يعد بحق مفخرة من مفاخر علماء المغرب، الشيخ سيدي المدني بن الحسني رحمه الله، والعلامة الاصولي المبدع الشيخ محمد السائح، والعلامة الاول كان يلقي دراسة مستفيضة في أسبوع مولد الرسول الكريم بضريح الولي الصالح الشيخ سيدي العربي بن السائح، حيث كان يلقي درسا أو محاضرة، طيلة أربع أوخمس ساعات في الالقاء العفوي، جواهر ويواقت، ولآلئ، ومواعظ، وذكرى وتذكير، وإصداع بالحق والصدق، ونشر الوعي واليقظة، والنهضة الفكرية. فكان لهذا الدرس القيم وأمثاله العديد دور رئيسي في نشر الدعوة السلفية.

وللتاريخ أسجل ما كان يروج بين تلامذته من مناظرات، ومناقشات، بل ومشاكسات ! ؟ عقب انتهاء درسه، فهذا تلميذه محمد المكي الناصري، مؤلف الكتيب السابق الذكر، ينشد قصيدا بديعا في الموضوع، ونص مطلعه :

كم أنادي مستنهضا لبلادي ... وأرى الكل سابحا في رقادي
فإلى من أوجه اللوم منهم ... وعلى من يكون أقوى اعتمادي
طالما جال في دخيلة وهمي ... أن قومي قد أقلعوا عن فسادي

ويجيبه الشرقي الشرقاوي، صاحب المؤلف في الرد :
ونص مطلع قصيدته :

استبدلوا عوض السلام «بنجورُ منشرمي» .....الخ...

أما العلامة السايح، فدروسه بالرباط وبفاس، وبكلية القرويين كان لها الصدى البعيد، أما الشاعر الناصري، فهو أول من بادر بإنشاء المدرسة الحرة بمدينة الرباط، بل أقول بالمغرب أجمع وذلك سنة 1919، وذلك بالزاوية المعطوبية بالرباط، ثم انتقل بها لدرب والزهراء، الزواية الحراقية، ومن تجربته وقدرته وأسبقيته فتحت عدة مدارس حرة بمدينتي الرباط وسلا، كل هذا العمل أقيم ونفذ منذ 1919 وما فتحت الزاوية الناصرية بفاس بمديرية الاستاذ السلفي محمد غازي إلا عام 1923 أي بعد أربع سنوات، وفي هذه المؤسسة تكون فريق من شباب المغرب الذي تحمل مسؤولية الوطنية فيما بعد. مثل الاستاذ محمد المكي الناصري، أحمد بلافريج، محمد الرشيد ملين وغيرهم.

هذا ما حصل في مدينة الرباط من تاريخ 1913 إلى سنة 1920، وسأبعث لكم ببحث يتعلق بهذه الحقبة. حتى يتعرف القراء والباحثون الثغرات التي تركها الاستاذ الكبير في بحثه المنشور بالعدد (22) والذي دعاني لهذا التعليق إحقاقاً للحق، والدعوة بالصدق.

أما تلامذة أبي شعيب في فاس، ففي المقدمة الداعية الكبير، والعلامة الشهير وزير العدل ووزير التاج المناضل السيد محمد العربي العلوي، ورفيقه العلامة الشجاع الفقيه السغريني وغيرهما، وإلى هاذين العالمين النصوحين يرجع الفضل في نهضة كلية القرويين، وانبعاث النهضة الفكرية بين تلامذتها، وحتى بين علمائها، ويطول بي البحث إذا تتبعت ذكرى تلامذة هاذين العالمين الداعيتين، وأكتفي بذكر البعض منهم، أولهم وعلى الرأس والقمة الاستاذ السلفي العالم الشاعر المجاهد المكافح، شهيد مدينة كوليمة بالصحراء ــ **محمد القري رحمه الله**. (راجع ترجمته بقلمه في كتاب «**الادب العربي في المغرب الاقصى**» للاستاذ محمد بن العباس القباج في شعراء الشباب، لتتعرف على مكانة هذا العالم عند المصلح الكبير العالم السلفي محمد بلعربي العلوي، إنه من أخص تلامذته. وراجع شعره هناك للتعرف على وقفاته في الميدان، بل تجاوز ذلك بالدخول إلى المسرح والتمثيل وتأليف الروايات الادبية الاجتماعية ومشاركته في التشخيص مع الممثلين وهو بلباس العلماء، وراجع الروايات العديدة الاجتماعية والادبية مثل اليتيم المهمل، إنه الشخصية التي لا تضارعها أية شخصية من أقرانه).

ثم الاستاذ محمد غازي، مؤسس المدرسة الحرة بالزاوية الناصرية بفاس، والذي أوذي في سبيل دعوته من لدن مؤامرة أنصار الخرافات، ثم الاستاذ محمد علال الفاسي، والاستاذ عبد الهادي الشرايبي، وفلان، وفلان، وفلان.

هذه نظرة موجزة عما حصل في الدعوة السلفية منذ عهد المولى عبد الحفيظ إلى يوم الناس.

كما لا نغفل أن هذه الدعوة، لم تكن وليدة هذا التاريخ، بل ظهر بها علماء أجلاء في عهد السلطان المولى سليمان، سلطان العلماء السلفيين. وهذا العهد بالذات فيه ظهر الوهابيون بنجد والحجاز، ومن هذه الدعوة ظهر العلامة الشهير الشيخ كنون بكلية القرويين، يحمل هذه الدعوة وينشرها، وظهر في نفس التاريخ، وهو عهد الحسن الاول، ظهر العلامة المؤرخ الفيلسوف أحمد خالد الناصري، مؤلف «**الاستقصا في أخبار المغرب الاقصى**»، فقد شرع رحمه الله في عهد الحسن الاول بدراسة تفسير القرآن الكريم بطريقة السلف، وكان يكيل للطرقية، بالمكيل الأوفى، فقامت القيامة ضده، وصدر الإذن بمنعه من متابعة دراسته.

وفي آخر العهد الحسني، وعهد المولى عبد العزيز ورد المغرب الشيخ السنوسي يدعو للسلفية، ولقي ما لقي ما قبله، وتتلمذ له تلامذ عديدون، حملوا مشعل الدعوة السلفية، ونجد الاستاذ بلكبير محرر البحث المنشور لم يستوف بحثه، ولم يشر لكل هذه الطبقات من علماء السلف والدعوات التي انتشرت، فشرقت وغربت بمغربنا العزيز، وأثمرت وأينعت، وعنها نقل تلامذتهم، وقد غلط الاستاذ بلكبير فنسب الكل للتلاميذ، وأغفل المشايخ والاساتذ، هذا من ناحية، ومن أخرى ظهور حركات **جمعية علماء الجزائر المسلمين**، ولسان حالها جريدة البصائر، **ثم** مجلة **شهاب** الغراء، وظهر في وقتها في العشرينات جريدة اتخذت لسانا **للطرق**، تسمى **البلاغ الجزائري**، للشيخ بنعليوة الجزائري.

فظهرت المناظرات، والمشاكسات، والكتابات الشعرية، والنثرية، والمجالس التي تعقد بكل الجهات لدراسة هذه المواضيع، وتكاد تشمل كل أرجاء المغرب. والناس ينتظرون طيلة الاسبوع هذه النشرات التي تحرر بأقلام مبدعة وأفكار، ولكل حجته ومنطقه، والشعب المغربي يزداد يقظة ونهضة بدروس ومحاضرات العلماء السابق الذكر.

هذه معركة كان لها أثرها الفعال في اليقظة والتوعية، وروح الإقدام، والانتفاضة من النوم والركود، وهي بدورها الخطوط الرئيسية للنهضة الفكرية بالافكار السلفية.

سلا — ج أحمد معنينو



مومن السميحي : «44 ـ أسطورة الليل» : يوميات فيلم.

1 ـ المشروع

من بعد إخراج وتوزيع «رياح شرقية» (الشرق) أو «عنف الصمت» الرّغبة في العودة إلى التفكير و العمل في ميدان تاريخ المغرب. تاريخ المغرب الحديث يعني تاريخ المغرب المستعمر.

الحياة خارج المغرب لمدة الدراسة تبعث على التفكير في المغرب من خلال شعور تحليلي : ما هو المغرب ؟ ما هو تاريخه ؟ تاريخه القريب ؟ لماذا وكيف وقع الاستعمار (كارثة، نكبة إهانة) في تاريخي ؟

تحديد فترة مستقلة بنفسها : تحديد ما يسمّى في السيميائية بالمتن الإسبانية : 1912ـ1956.

نشأة وتبرير المشروع في المطالعة أولا : كتب عربية وفرنسية في تاريخ المغرب المحمي، وبشبه جزيرة يونانية تسمى تريكري (TRIKERI) أو بليلجي كما سماها الاتراك حيث تشتغل بها رفيقة الحياة في ميدان الانتروبولوجيا...

قريّة يونانية. البحر الابيض : صمت. هدوء، زرقة، بياض. على الحجر داخل الماء، ثم قراءة النصوص التاريخية عن استعمار المغرب.

ثم الرّغبة هي الكلام عن الثقافة المغربية، الثقافة في معناها الانتروبولوجي كما حدّدها كلود ليفي شتروس لكل مجتمع انساني عقليته الخاصة تنظمه وانماط تعبيره والخبرة الحضارية الانسانية تؤكّد على عدم تفوّق حضارة على أخرى وإنّما الحضارات تختلف بعضها عن بعض. هذه الفكرة تزكي اعتقاد كاتب اليوميات أنه ينتمي هو الآخر إلى حضارة وليس بمختلف ولا ببدائي يجب تحضيره كما زعمت ذلك الإيديولوجية الإستعمارية برمّتها.

أين حضارتي وثقافتي ؟ ما هي معالمها ؟ من تكلم عن هذه الثقافة من داخلها ؟ ما هي أشكال الكلام عن الثقافة المغربية ؟.

مسألة الاشكال : إلى حدّ أوائل القرن العشرين، كبت الغرب مسألة الاشكال، ليؤكد فقط على ايديولوجية المضمون والمضامين. وقد أوضح الكاتب الفرنسي رولان بارت كيف كانت الايديولوجية البرجوازية ترفض مسألة الشكل وتنهض أدبيا وتنظيريا بقضية المضامين حتى توليّها أهمية ميتولوجية (أسطوريّة) تجعل الشخص مستلباً فكانت في أوائل القرن النصوص الحاسمة التي ستبدد عنكبوت المضمون. نصوص فرويد والمدرسة الشكلانية السوفياتية ثم فيما بعد النظريات الهيكلية أو البنيوية.

ما هي معالم حضارتي ؟ من تكلم عن اشارات وعلاقات الثقافة المغربية من داخلها ؟ ما هي أشكال الكلام عن هذه الثقافة ؟ كيف يمكن الكلام عن المغرب، مجتمعه، هويته، علاماته، من منظور داخلي، خارج التكييف الناتج عن الوضعية الإستعمارية ؟

أول ملاحظة هي المقولة المزدوجة : الكلام عن الثقافة المغربية، كلام مزدوج : كلام الادباء والمثقفين (الجامعة، الفقهاء الادباء المغاربة) وكلام شعبي (الامثال، الشعر الشعبي من زجل وملحون، الحلقة، الموسيقى).

والممارسة السينمائية تعامل مع علامات مجتمع : صورةً، علاماته الصامتة والناطقة. الديكور، الملابس، الاثاث، اشارات وحركات الاجساد. والتعبير الفكري من منطق وفكر ولغة وموسيقى.

مشروع «44 — أسطورة اللّيل» ينطلق من الرّغبة في وضع اسئلة لكل مكونات الذات الثقافية هذه من خلال ممارسة مغايرة : السينما.

ولهذه الرّغبة مراجع وتاريخ. يستقيها كاتب اليوميات من تاريخ السينما كما أحبّه وتطعّم به. سلسلة من المخرجين والافلام جعلته يرغب، لا كما يعتقد عادة في تقليدهم أو في الطموح الى ادخال اسمه في السلسلة (غرور وبارنويا)، ولكن فقط في صنع شيء، في خلق عمل يأخذ منه نفس اللّذة في الممارسة كالّتي عاشها في المشاهدة.

فهناك المدرسة الروسية : ايزنشتاين وفيرتوف. والمخرج الياباني ميزوجوشي الّذي كان يفرق في أعماله فيما بين الفليم الحديث : جداي جيكي ، والفيلم التاريخي : جداي جيكي ؛ ثم فسكونتي، المخرج الإيطالي صاحب فيلم الأسد.

والاعمال المعاصرة لكاتب اليوميات، الّتي يعتقد أنه ينتمي إليها بحكم المعاصرة :

«ديك القديس ميخائيل» للإخوان طافياني الإيطاليين، «رحلة الممثلين» لليوناني تيودور انجلو بولوس، «موسّى وهارون» للفرنسي جان مري شتروب.

وأعمال تفرض منظوراً جديداً للممارسة السينمائية، بعيدا عن الانماط السينمائية التجارية، التي ترمي إلى توطيد المقولة السينمائية كمقولة ثقافية لا ترفيهية.

وثقافي. وتاريخي :تاريخ مجتمعي والتاريخ الفردي. وانطلاقاً من أطروحات علم النفس ثم اقتران التاريخ الشخصي بتاريخ المجتمع، ولا يمكنني الكلام خارج الإيديولوجية، لا يمكنني الكلام في مسيرة البحث عن الحقيقة إلاّ في إطار وفضاء الكلام التحليلي. ويفرض الكلام التحليلي شدته وقساوته، وهما البحث، من وراء المسلمات والمعطيات الاولية للواقع، عن باطنية هياكله وتركيبه، كما حددها برطولت بريخت : «من وراء القاعدة، ابحثوا عن الجذور».

والقيام بعمل تحليلي يدخل في عمل مشترك يقوم به اليوم بعض المثقفين المغاربة في البحث عن الذات والهوية المغربية، ومشروع الفليم هو المشاركة سينمائيا في هذا العمل الطويل النّفس.

هذه المبادىء والمنطلقات النظرية هي التي كونت الرّغبة في العمل فيما يسمّى بالفيلم الجديد. عمل مرّ بمراحل مختلفة : المطالعة. الإستجوابات مع من عاشوا بعض مراحل الإستعمار. البحث في الوثائق الصورية. ثم كتابة السيناريو.

وفي باريس. خلال 10 أيام، كان الإستماع إلى صوت الكتابة. الذات، والجسم يكتب ما يقرأه داخليا، يكتب ويصف الاجسام والمشاهد والاصوات والصداع، والاشكال والحركات. جسم كاتب السيناريو مثله قبل البطل الاسطوري أوليس، يسافر سفرا طويلًا ومبكيًا خلال عالم الصور والاصوات. كان ذلك سنة 1977.

2 — التمويـل

بخلاف ميدان الادب والكتب، وميدان التشكيل وحتى الموسيقى، حيث الممارسة تسفر عن وجود عمل يقرأ ويعرض ويسمع وإن لم يدخل السوق فإن السيناريو في السينما لا وجود له للفيلم الآتي.

السيناريو مجرد برنامج عمل ونوايا ومبادىء لا وجود لها أدبيا، ولا فنيا، قبل أن تنتج ما ترمي إليه وهو الفيلم.

والفيلم يُموّل لكي يرى الوجود.

والمخرج السينمائي ممارس ثقافي جديد النوع في تاريخ الممارسة الفنية.

المخرج السينمائي : مسؤول نقابي، وإداري، رجل أعمال، وتاجر أدوار اجتماعية يلعبها المخرج للتوصل إلى رغبته الدفينة : اللعب بالصور وبالاصوات.

انجز «الشرقي» أو «عنف الصمت» بميزانية رديئة لم تتعد 100.000 درهم فكانت المشاكل والحواجز اليومية : ثورة التقنيين والممثلين على حالتهم المادّية : بدون أجرة، أكل السندويشات، تعذر الآلات. والطموحات دائما أكبر من الإمكانيات، لسبب الشده المتركب عن أسطورية السينما في اذهان تقنييها. يعتقد أن السينما ميدان المال وتبذيره، وأساطير هوليود لاصقة بأذهان الناس، يضحكون حينما يعبّر المخرج عن طموحاته الثقافية الثقافة ؟ يقال، ويجاب المخرج بأنه يحاول «أكل الدّماغ» !

ويتخذ القرار : في المرّة المقبلة سأحاول أن أجد ميزانية تجعل كل تقني يحصل على أجرته المعتادة. مجرد أمل : أجرة معتادة للتقنيين تلزم وجود صناعة سينمائية تضمن لهم ذلك. والمخرج السينمائي في المغرب وحيد، هامشي بدون هيكل صناعي، مضطر إلى طلب التقنيين والممثلين والمشاركين عامة بإظهار روح ثقافية ومناضلة في مشاركته العمل. و لكن التقنيين والممثلين يحتاجون إلى أجرة تسمح لهم بالعيش....دوران التناقض فيفشل المخرج في دوره كمسؤول نقابي. ويبقى له الإلتجاء إلى «رغبات» الناس، وبالخصوص السماع والقبول لتهجماتهم. تهجم مشروع من حيث المبدأ بحدّ ذاته، وخبيث وقبيح إن لم يكن فاشستيًا من حيث هدفه : يعني شخص المخرج كأنه فاشل في دوره النقابي.

وتبدأ تراجيديا البحث عن التمويل والمموّلين.

كاتب اليوميات بعيد عن عقلية الربح الإقتصادي. لا يؤمن بها. لا يعلم شيئا عن مكانيكياتها، له ايمانه الراسخ : الإنتاج ــ إنتاج عمل، إنتاج أشكال، إنتاج أفكار ــ وحرية هذا الإنتاج في رواجه وتدواله بنفسه. والموقف ليس مثالياً، ليس هو موقف الزجاجة التي يلقى بها إلى البحر. ماديّة الموقف تكمن في كون الإنتاج مستقلًا بذاته، علما بأن الارض هي التي تدور حول الشمس، لا العكس كما اعتقد خلال قرون. اعتقادا بماديّة واستقلال الإنتاج يصل الشخص إلى التفكير بأنه لم يبق بعد مركزاً. ماتت فكرة الإنسان المركزي كما ماتت فكرة الشمس التي تدور حول الارض ــ المركز.

والإيمان بالإنتاج يعبّر عن كون الثقافة ذخيرة اجتماعية على المجتمع وأفراده الاثرياء وغير الاثرياء منهم (كمشاركة الممثلين غير المحترمين) ن يمولوها، لانهم بهذا يمولون اقتصادية الصّورة التي يحتاج إليها كل مجتمع. اقتصادية الصورة هي حاجة المجتمع لكي يرى صورا عن نفسه، عن نفسيته، عن أفكاره، عن تاريخه، عن مكوناته.

وتكمن التراجيديا في سوء التفاهم ما بين المخرج والمموّلين، المخرج يأتي بطلب التمويل إنتاج صور عن المجتمع، والمموّلون يريدون الربح الفورى الإقتصادي...

يجري المخرج ويجري بحثاً عن إعانات الدولة، عن مموّلين، عن مساعدين يجري عبر الإدارات، والشركات، والأمسيات التي يوعد فيها بالكثير وتنسى غداتها كل الوعود، عبر المدن، والبحور والاقطار (البحث عن الإنتاج المشترك ما بين المغرب والدولة الاجنبية).

أربع سنوات بحثا عن مموّلين وطنيين، يوجدون بالمغرب. فكان الإنتاج من بنكي (ب ت م) و (ش م ا ق). ومساندة من مصالح الوزارة الاولى.

وكان المنتج المشترك فرنسا، حيث تتصرّف في اعانات الدولة لجان تتكوّن من مثقفين تقدميين يجرأون على تمويل مشروع يتكلم عن تاريخ فرنسا الإستعماري. الشخصيات المكونة للّجنة الّتي قررت إنتاج «44 — اسطورة الليل» بفرنسا : كوستا جافراس (مخرج) — كيلان كوندار (كاتب) — فلورانس ملرو (سينمائية).

1977 — 1980 : 3 — 4 سنوات بحثا عن تمويل.

3 — الاستعداد

عند فشل الدور النقابي يقع وجوب الإختيار : التنازل أو المثابرة.

اختيار المثابرة : إيمانا بلزوم العمل رغم كل الصعوبات والحواجز. فيبدأ الإستعداد لتصوير الفيلم. يعني اختيار الديكورات واعداد الملابس واختيار الممثلين ومكالمة التقنيين وطلب الاستئذانات والإتصال بالفنادق والمطاعم .وإعداد آلات التصوير والإنارة والماكياج وكيفيات النقل.

يدخل المخرج كاتب اليوميات في شبكة مكثفة ثقيلة الرّموز : العلاقة مع الآخرين وما ينشأ عنها من طلب ورغبة وشدة وحب وحقد. والعلاقات مع الإدارات والعمالات والوزارات وما يتبعها من مواعيد وانتظار وسوء تفاهم، وتارة عدم مبالاة وتارة تفهّم.

فيكون اليأس والامل، يكون التشجع ثم الإنتظار والغثيان ويكون الالم والخوف.

الخوف من الوثبة. «وثبة الموت» كما يقول أهل السيرك. الوثبة في المجهول. وفي الرأس تلك المقولة البديهية : من لا يغامر بأي شيء لا يحصل على أي شيء...

4 — التصوير

خمسون ستون شخصاً يتبعونك يوميا، حركتهم وسكينتهم، أكلهم وشربهم، عملهم، محادثاتهم، حاجياتهم ورغباتهم.

22 تقنيـاً. عشرات الممثلين (محترفين وغير محترفين).

الحسرة. الخوف. التعب. الهواجس : آلام العمل.

وأكبر الآلام مقاومة الواقع، جمال فاس ودورها وحيطانها، قبورها، وتاريخها. جمال الضوء بها، كيف الكلام عنها، كيف تصويرها بكيفية تضاهي الواقع ؟ غرور، برانويا : مضاهاة الواقع... غرور ولكن هذا ما كان عبر كل زمان يرمي إليه من يسمى بالمبدع والخالق الفني.

يعد كاتب اليوميات نفسه خلال التصوير كأنّه جسم على الماء. لقد خطّت الخطط وحضرت كل امكانيات تحقيق الفيلم : تقنيين، ممثلين، آلات، ملابس وحاجيات الفيلم والآن على الكل أن يتبع متطلبات الفيلم، أوامره وحاجياته. المخرج كاتب اليوميات فكر خلال التصوير أن للفيلم حياته الخاصّة حين يبدأ العمل فيه، وما على مخرجيه إذاك إلا الجواب على مطالبه ورغباته، واتباع الطريق الّذي ينهجه، مكونا وناسجاً المعاني والدّلالات والعالم الدلالي / الفيلم الذي هو آخر المطاف.

وتكون تجربة الوحدانية. المخرج يجد نفسه وحيداً أمام عالم شاسع الاطراف، تغزر وتتكثف دلالاته، عالم كل من الفيلم وظروف إخراجه، وكلها شيئا فشيئا تنتظم حسب شبكة قائمة بذاتها، مستقلة بنفسها وتفرض استقلالها على المخرج... آلام بجمليون. وتبعثر الذات، وتبعثر المعنى.

والتصوير هو مرحلة الصراع مع الصورة والصوَر. علم النفس (حسب قراءات جاك لاكان) حدّد فضاءات الشخص المتكلّم : الفضاء الرّمزي ــ الفضاء الواقعي ــ الفضاء الصُّوَري أو التخيّلي (بالفرنسية نفس الكلمة تعبّر عن الكلمتين العربيتين). السينما تعامل مع الصور، خلقها، ترويجها، تنظيم دلالاتها. والممارسة تقوم على مستوى الفضاء التخيّلي، فيما بين الفضائين الواقع/الرّمز. الصور السينمائية تلعب فيما بين الفضاءات الثلاث كأنّها محور لها واخدوعة، كأنّها سينوغرافية (فضائية تمثيلية / ممثلة) لها، كأنّها المشهديّة حيث تأتي الفضاءات الثلاث لتؤدي أدوارها (في المعنى المسرحي).

لم تكن أي لقطة أخذت، أو تنظيم مشهد، أو تأدية حركة أو نظرة أو إنتاج علاقة فيما بين الصور والمشاهد، عفوية أو بريئة. كل خطوة يخطوها المخرج لها معنى محدّد. كل خطوة يخطوها هي تعامل مع الدلالية. المعاني تظهر في أوقاتها. لان للمعاني أوقاتاً. بعضها يظهر لتوّها، وبعضها تفرض نفسها من دون أن تظهر في الحين ولكن بعدما يحصل ظهور الدلالة وانبثاق المعاني يكون مسايراً للعمل وهذه الإنبثاقية هي سيرورة العمل السينمائي نفسه.

انتهت البراءة. لم تعد للبراءة وجود بوجود مقولة التحليل النفسي.

5 ــ التركيب

مرحلة العودة إلى النفس، الرّجوع من هيستيريا واضطرابات التصوير. مرحلة جمع أطراف الفيلم المشتتة تشتت نفس وذات المخرج ما بين ديكورات وأشخاص ومشاكل.

التركيب سيضع حدّا لتبعثر المعطيات الماديّة للفلم (آلاف الامتار من المادة الخام، المشاهد المتعددة اللقطات التي يجب اختيار أحسنها) ولتبعثر المعاني، التركيب سيجعل الفيلم يقتفي آثار معنى محدّد.

قاعة التركيب خلال مدة قصيرة ستكون الشاطىء الهادىء بعد عواصف التصوير أيام وأسابيع طوال في ظلمات قاعة التركيب تفكرك في تذكرك بنظرية أفلاطون المعرفية : الافكار تخلق في السماء والمشاهد لا يرى في مغاره إلا انعكاساتها.

إلى حدّ التركيب، كان الفيلم في فضاء ما يسميه علم النفس بالجسم المقسّم : عشرات المشاركين والمقولات والمواد الخام تلتقي شيئا فشيئاً إلى أن تصل إلى الإلتصاق والتركيب والإلتحام والتداخل الّذي ينشأ عن عملية التركيب.

وهذه كلها الآن مسلمات.

في الحقيقة، مرحلة التركيب لا تقل وهما من حيث معايشتها عن المراحل الفيلمية الاخرى.

خلال كل مشروع فيلمي، يتعامل من يسمّى بالمخرج مع مقولة البحث عن الحقيقة : حقيقة ذاته، وحقيقة تاريخه والتاريخ، وحقيقة مجتمعه والمجتمع. في كل لحظة من هذا البحث، يكون المتكلم/المخرج في مقابلة مع تعدّد للمعاني وتعدّد للاتجاهات وتعدّد للاختيارات. يجد المخرج نفسه في كل خطوة من عمله مضطراً إلى الإختيار : هذا المعنى وليس ذاك، هذه الدلالة وليس تلك وعند كل اختيار، يدفع المخرج نفسه طبعا في اتجاه معيّن ولكن كذلك وبالاخص يجد نفسه أمام اختيار جديد.

واستحالة الإختيار كما حدّدها رولان بارت هي اليوم من المعطيات للنّص الادبي والفنّي عامّة. استحالة الإختيار لا تعني العفوية الّتي كثيراً ما أكد عليها السرياليون مثلاً. لا علاقة كذلك لاستحالة الإختيار بالانهزامية.

استحالة الإختيار تبلور قوة عمل اللّاوعي كأنّه عمل ينفي المستحيل. اللّاوعي كأنه فضاء لا متنهٍ الكلام الإنساني. انها تؤكد قوة الخلق كمغامرة، كمصارعة مع الحدود (التقليد، المسلمات، العقلية الظلماتية).

واستحالة الإختيار تؤكد من جديد استقلال العمل الابداعي [illegible] ي ماديته، العمل كمادّية (جدلية) بقوانينها ومتطلباتها.

استحالة الإختيار حريّة. حريّة الدلالة في انطلاقها وحرية الدلالات في الإنطلاق والتطور وخلق المعنى والمعاني هي حريّة المعنى. هي حريّة القارىء ــ المشاهد.



(حديث مع الفنان المسرحي طلال حمّاد)

لا يجادل أحد في أهمية الساحة الثقافية ضمن مسار المواجهة الوطنية مع العدو الصهيوني في فلسطين المحتلة.

غير أن ظلالا كثيفة ما زالت تخفي دور المسرح رغم أنه احتل مكانا مُميزا داخل عملية المواجهة الثقافية. وظل يكبر ويتحسَّسُ طريقه بشكل مواز لنضوج الوعي السياسي والفني لدى المشتغلين بالحركة المسرحية.

ففي البداية تحولت الاعمال المسرحية إلى أقنية تصب في العمل السياسي بشكل مباشر، وكان الهاجس الرئيسي يومها هو فتح أكثر ما يمكن من الثغرات في جدار الإحتلال لإبلاغ صوت الرفض والمقاومة إلى الجماهير الفلسطينية.

لكن مع تطور الحركة السياسية ـــ واستقلالها بصيغها وأشكالها المميزة في التحريض والعمل الجماهيري ـــ بدأ المسرحيون الفلسطينيون يضعون قدما ثابتة في الفن ويكسرون طوق القراءة الناقلة المباشرة للواقع ليصوغوا قراءة تحليلية وتركيبية له.

كيف انتقل المسرح في الارض المحتلة من حال الرديف للعمل السياسي إلى حال الحركة المنظمة والواعية لذاتها التي تساهم في العملية النضالية بأدواتها الخصوصية ؟ وإلى أي تراث مسرحي أستندت هذه الحركة عند انطلاقها ؟ ما هي تناقضاتها الداخلية وما خصوصياتها بالمقارنة مع الحركة المسرحية في الساحات العربية الاخرى ؟ طلال حماد أحد الفنانين الفلسطينيين الذين عرفوا سجون الإحتلال وساهموا في هذه الحركة من موقع بارز منذ البدايات ـــ في فرقة «بلالين» أولا ثم في فرقة «الحكواتي» ـــ يجيب على هذه الاسئلة.

س ـــ كيف بدأت الحركة المسرحية في الارض المحتلة بعد حرب 1967 ؟

ج ـــ لم تكن هناك قبل سنة 1967 تقاليد للمسرح الفلسطيني بسبب ظروف مختلفة ساهمت فيها الانظمة التي حكمت فلسطين، وربما تكون فلسطين أكثر جزء من الوطن العربي تعرض لاحتلالات مختلفة، فقد تلت فترة الإستعمار التركي للوطن العربي فترة الإحتلال البريطاني باسم الإنتداب، ثم احتلالان آخران : الإحتلال الصهيوني لفلسطين جزئيا سنة 1948، والإحتلال الاردني للضفة الغربية من خلال مؤامرة ضم الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية لنهر الاردن لتكوين المملكة الاردنية الهاشمية.

وبعد حرب 1967 تفجر حدث جديد هو أنطلاقة الكفاح المسلح، أما في الجانب الإسرائيلي فإن أول القرارات التي صدرت عن وزارة الحرب الصهيونية ـــ وكان يقودها دايان ـــ كانت تقضي بإخضاع كل الاراضي المحتلة في 1967 إلى مكتب وزارة الحرب وفرض قوانين عسكرية متشعبة لحكم هذه الاراضي، أولها

قانون الطوارىء الذي سنّه الإنتداب البريطاني والاستمرار في استعمال القانون الاردني في المسائل البلدية والمدنية بشكل عام، فضلا عن تطبيق القوانين العسكرية وهو أمر راجع إلى رأي الحاكم العسكري ومزاجه وموقفه. ومن ضمن هذه القوانين صدر قرار يمنع إقامة النوادي الثقافية والنقابات العمالية على اعتبار أنها ستكون مراكز للتجمعات البشرية والتجمع البشري هو تجمع تحريضي في نظر هذا القانون. ومن هنا ظهر العمل الثقافي والمسرحي كأحد الجوانب التي فُتش عنها للمساهمة في النضال الفلسطيني.

وبدأ هذا العمل سنة 1968 من خلال النقابات التي كانت قائمة بشكل رمزي قبل الإحتلال، وكان الهدف من هذا العمل المسرحي والفني المساهمة في تحدي القانون الإسرائيلي الذي يمنع وجود نقابات نضالية تدافع عن العمال الفلسطينيين. لكن عمليا لم تكن هذه المحاولات جماهرية.

س ــ هل كانت إذن مقتصرة على نخبة من المثقفين ؟

ج ــ ليس في الاساس، لان نخب المثقفين حاولت أن تقوم بعمل ما، إلا أن رواد هذا العمل كانوا من المنتمين إلى النقابات أو من الطلبة، ولم يكن الإطار مفتوحا للجماهير بشكل عام.

في سنة 1970 بدأت اتصالات بين مجموعات شباب نضج لديها الوعي بالواقع الذي يعيشه الإنسان الفلسطيني، وتحديدا بعد مجزرة أيلول في الاردن. وفي ذلك الحين كان قد انتشر شعر المقاومة الفلسطينية وتصاعد، فكان من الحتم على هذه المجموعة من الشباب أن تشارك في هذا التحرك الثقافي وأن تضيف بعدا آخر لشعر المقاومة من خلال العمل المسرحي.

في العمل الاول الذي ظهر سنة 1970 ــ رغم أن المجموعة بدأت تلتئم قبل ذلك بسنة أو سنتين ــ شارك ما بين أربعين وخمسين فردا، وآستمروا في العمل المسرحي والعطاء، لكن بعضهم آختاروا فيما بعد مواجهة مشاكل الحياة الإقتصادية والإجتماعية لتوفير القوت اليومي، وكانت هناك عناصر أخرى لها تطلعات برجوازية صغيرة خرجت لتعمل في دول النفط أو لإكمال الدراسة في الخارج.

ومن هؤلاء عادل الترتير ــ وهو عامل نجارة وليس منقفا ــ ومستمر في الطعاء المسرحي إلى اليوم منذ عشر سنوات، وسميح العبوشي وهو يعمل مهندسا في الكويت، وإميل عشراوي وهو يشارك الآن في فرقة موسيقية في جامعة بيرزيت بالارض المحتلة، وقد قامت هذه الفرقة الموسيقية بجولة في فرنسا ــ صيف 1980ــ للتعريف بالأغنية الفلسطينية، وعلي الحجاوي، وهو الآن عامل في الكويت، وماجد المالي، وهو مستقيل من العمل المسرحي ويعمل في الاردن، وفرنسوا أبو سالم الذي درس المسرح لمدة سنة في باريس سنة 1970 وعاد إلى القدس ــ وكانت أمه فرنسية وأبوه مجريا (لوران غاسبار) وكان غاسبار مديرا للمستشفى الفرنسي بالقدس نحو 16 سنة وطرد سنة 1969 بتهمة معالجة الفدائيين الجرحى في المستشفى. ولما عاد فرانسوا من باريس كان من العناصر التي ساهمت في إنشاء فرقة «بلالين».

وفي سنة 1972 آنضمت مجموعة كانت بدأت العمل في النقابات العمالية في سنة 68 ــ 1969 ــ وبدأت المشاركة في أعمال الفرقة الجديدة التي كان اسمها «بلالين» ــ وذلك في سنة ظهورها عام 1970 ــ وقدمت أول مسرحية بعنوان «العتمة» ــ والتسمية رمز للإحتلال ــ وعالجت المسرحية الواقع اليومي وزيف البرجوازية الصغيرة والمثقفين الذين يدعون العلم والثقافة والمعرفة دون أن يحركوا ساكنا، وركزت على فكرة أن هناك «بسطاء» يمكن أن يشاركوا في النضال بنشاط، كما ركزت أيضا على دور المرأة لتقول إنه في إمكانها أن تشارك في العملية النضالية هي الأخرى.

وفي آب (أوت) 1973 آستطاعت الفرقة بتحدٍ كبير أن تُقيم أول وآخر مهرجان فلسطيني للمسرح في الارض المحتلة في قاعة بلدية رام الله التي ما زالت إلى الآن غير جاهزة، لكن الشباب آستطاعوا أن يكونوا عمالا ويمهدوا القاعة والخشبة ، وقدموا مجموعة مسرحيات مصحوبة بالرقص الشعبي والفولكلور والغناء.

وكان من بين الاعمال المقدمة مسرحية بعنوان «نشرة أحوال في كازينو نيطسلف» وكلمة «نيطسلف» هي أسم فلسطين مقلوبا، وتروي المسرحية قضية الشعب الفلسطيني بشكل عام. وكانت هناك مسرحية أخرى ــ والعناوين تغني عن كل شرح ــ عنوانها «ثوب الإمبراطور» وتروي قصة آمبراطور يريد أن يشارك كل الشعب في خياطة ثوبه، وهو يقمع ويقتل ويضطهد من أجل إنجاز هذا الثوب....وكانت هناك أيضا مسرحية تراثية عنوانها «الكنز» وهي تتحدث عن الارض وعن الغازي الذي جاء في شكل خواجة من الغرب.

بعد مهرجان سنة 1973 آستمر العمل المسرحي حتى سنة 1974 تقريبا، وحصل الإنشقاق الاول داخل فرقة «بلالين» وخرجت منها مجموعتان مسرحيتان الاولى باسم بلالين (ج. بالونة) حافظت على الإسم الأول، والثانية بآسم «بِلالين» أي العنف.

وفي سنة 1975 حصل الإنشقاق الثاني داخل هذه الحركة المسرحية وخرجت فرقة «صندوق العجب» التي كانت أول تجربة لإيجاد مسرح متفرغ في الارض المحتلة أي مجموعة لا تعمل إلا في هذا الميدان وتسد تكاليفها من المسرح وحده. وقدمت هذه الفرقة مسرحية عنوانها «لمّا آنجنينا» تتحدث عن الواقع السياسي في العالم العربي وزيف الانظمة القائمة على الإطلاق، وتشكلت هذه الفرقة منّ أعضاء كعادل الترتير وأنيس البرغوثي وفرنسوا أبوسالم ومصطفى الكرد.

في سنة 1976 بدأ الباقون من فرقة «بلالين» تجميع أنفسهم من جديد، وفي سنة 1977 نشأت فرقة «الحكواتي» وهذه التسمية هي تعبير تراثي يرمز إلى تقليد من التقاليد الشعبية الفلسطينية هو ذلك الإنسان الذي ينتقل بين القرى والمدن ليقص أخبار القرى والمدن إلى بعضها، وقامت هذه الفرقة بعمل مسرحي عنوانه «بآسم الاب والأم والإبن» تم عرضه في فلسطين المحتلة ثم دعيت الفرقة إلى عرضه في مهرجانات أوروبية وعربية.

س ــ هل نشأت في الارض المحتلة فرق أخرى غير التي ذكرت ؟

ج ــ ظهرت فرق مسرحية أخرى، لكنها كانت إما تنتهج مسرح الشعارات السياسية المتاجرة و تنساق في التيار التجاري أو الإستهلاكي الدعائي لاشخاص يقودون هذه الفرق ليكسبوا سمعة في الخارج، ففي القدس مثلا يقود إحدى الفرق ــ «فرقة المسرح الفلسطيني» ــ شخص عربي يعمل في البوليس الإسرائيلي.

س ــ حين آنطلقت هذه الحركة في السنوات 67 ــ 1968، هل كانت هناك حركة مسرحية سابقة أو تقاليد مسرحية في الارض المحتلة تسمح للفرقة بالإنطلاق من هذا الموروث لتطوير تجربتها المسرحية أم كانت «البداية من صفر» ؟

ج ــ في 1967 لم تكن هناك تقاليد مسرحية لا في فلسطين ولا في الاردن، لا في الضفة الشرقية ولا في الغربية (وكانت الضفتان تشكلان آنذاك وحدة) وبدأت في 68 ــ 1969 محاولات لخلق عمل مسرحي معين. وفي سنة 1970 بدأت الحركة بشكل منظم ومدروس وصارت تشكل مسرحا مساهما في عملية نضالية.

وهناك مسرح نشأ في القطاع المحتل سنة 1948، في الناصرة وحيفا، وهو مسرح عربي لكن في حيفا مثلا كان تابعا لمراكز ثقافية أو يتحصل على دعم من السلطة، وفي الناصرة قام عمل مسرحي ملتزم نوعا ما (وكان

قريبا من حزب «راكاح»)، لكنه لم يستمر، ولو استمر لكان من الممكر أن يشكل بداية لمسرح جديد في المنطقة المحتلة سنة 1948 ويمثل آمتدادا للمسرح في الارض المحتلة سنة 1967.

إلا أنه يظهر أن الارض المحتلة سنة 1948 آستقلت في جانب الشعر الفلسطيني المقاوم فيما أن الاراضي المحتلة سنة 1967 يبدو أنها تكسب الجولة في الحركة المسرحية بشكل خاص.

س ــ هل يمكن أن نقول إن المسرح الفلسطيني ــ بحكم كونه ينطلق من وضع خصوصي جدا، بالمقارنة مع وضع الحركة المسرحية في الوطن العربي عموما، وبآعتبار الاهداف النوعية التي كان يعمل من أجلها تحت الإحتلال ــ أسس كتابه.. مسرحية جديدة ؟ وكيف يمكن تحديد أبرز قسمات هذه الكتابة الخصوصيــة ؟

ج ــ لا نستطيع أن نقول إنها حددت كتابة مسرحية معينة، وإنما أوجدت أسلوبا مسرحيا يتخطى عجز النصوص في العالم العربي، وفقدان النصوص المحلية في الارض المحتلة.

كيف يتم العملية المسرحية في ظل هذا الاسلوب الجماعي ؟ المسرحيات، أو ما يمكن تسميته بنصوص الارض المحتلة، هي مجموعة أفكار يتم تدارُسُها بين أعضاء الفرقة ويتم التدريب عليها حتى يتكامل البناء الحركي للمسرحية ثم يتم تثبيت شكلٍ معين من النص ــ وهو ليس حواريا لانه لا يركز كثيرا على الكلام المحكيّ ــ بل يعادل بين الكلام والحركة الممثلة على اعتبار أن التعبير الجسدي أيضا يمكن أن ينقل كلاما غير مكتوب إلى الجمهور. وبعد آنتهاء تركيبة هيكلية معينة للمسرحية يتم تثبيت الإخراج فيها وتثبيت آخر شيء طُور بعد التدريبات من كلام نصي.

س ــ الاخبار التي تنقلها إلينا الأوساط القريبة من المسرح الفلسطيني تفيد بوجود أزمة في الحركة المسرحية الفلسطينية في الارض المحتلة، فهل هناك فعلا أزمة ؟ وما هي علامتها كما يراها أحد المشاركين في مسيرتها ؟

ج ــ إذا حددنا السؤال بوجود أزمة أو عدم وجودها، فإن الجواب يكون : نعم هناك أزمة، وهي أزمة من حيث أن هذا المسرح يعاني من ضغوطات مختلفة : ضغوطات الظروف الموضوعية المحيطة به كحركة مسرحية، من مُضايقات السلطة الصهيونية أو من الضغوطات الاجتماعية المحيطة على اعتبار أن الواقع الإجتماعي مازال متخلفا، لكن المهم أنه بدأ تقبل جيد للعمل المسرحي بالرغم من آستمرار بعض المعيقات ومنها مثلا أن المرأة نادرا ما تشارك في النشاط المسرحي.

فرقة «بلالين» حاولت أن تحل هذه المشكلة منذ البداية، وكانت بآستمرار آمرأة تمثل في الاعمال المسرحية لكنها لا تواصل، فهي تمثل في عمل أو عملين ثم تتوقف بسبب الضغوط الإجتماعي، فهذا تقليد غير مقبول، ربما يقبل المتفرج أن يعمل الرجل في المسرح لكن بالنسبة للمرأة مازال وضعها العام مختلفا بآعتبارها تختلف عن الرجل كثيرا في نظر المجتمع ــ ومادام المجتمع سلطة رجل ــ فهو يبيح للرجل مثل هذا العمل لكن المرأة لا. وفي فرقة «الحكواتي» مثلا مرت فترة خلال العمل على التدريب على مسرحية «باسم الاب والام والإبن» وخلال إنجازها بُذلت جهود كبيرة لإيجاد المرأة التي تقوم بدور المرأة الفلسطينية في المسرحية «أم مطيع» لكن لم تنجح كل المحاولات المختلفة.

إلى ذلك، الوضع الإقتصادي والإجتماعي يفرّض على الفردّ المشارك في العمل المسرحي أن يقبل التحدي : أن يقسّم جهده بين المسرح وبين تحصيل عيشه وتأمين حياتِه الإجتماعية، أو أن يقبل الضغط المفروض عليه من الواقع الإقتصادي والإجتماعي وبالتالي ينسحب من العمل المسرحي وليس هناك آختيار آخر.

والعمل المسرحي في الارض المتحلة فقير ومازال يعتمد على إمكانياته وعلى الإمكانيات الشخصية لافراده تحديدا، لانه يعتمد على الإمكانيات المادية للعناصر المساهمة في هذه الحركة المسرحية، وفي سنة 1980 للمرة الأولى أتيحت فرصة للفرقة الفلسطينية (من الارض المحتلة) أن تخرج لتشارك في مهرجانات أوروبية وفي مهرجان عربي : مهرجان قرطاج في تونس، وتستطيع تحصيل رصيد معين لاستمرار العمل المسرحي في الارض المحتلة.

وطبيعي جدا وصحي جدا أن ترفض الحركة المسرحية في الارض المحتلة دعما مباشرا من مؤسسة معينة أو من جهة معينة لان هذه العملية لن تخدم العمل المسرحي بأعتباره سيُجيَّر ساعتها لصالح طرف معين.

وهذا المسرح يرفض أن يكون تابعا لجهة معينة لانه مسرح تابع للجماهير فقط : فإذا دعمته الجماهير فهو مستمر وإن لم تدعمه فهو غير مستمر، لكن هذا الدعم هو عمليا غير مشروط وغير موسوم بصبغة سياسية أو تبعية معينة.

ومن المشاكل المادية الاخرى التي يعانيها هذا المسرح أنه لا يملك قاعات خاصة بالمسرح إلى الآن ، والقاعات التي يتم فيها عرض المسرحيات هي معدة أصلا لنشاطات أخرى : في القدس مثلا هناك قاعة كانت موجودة قبل الإحتلال وكانت تمارس فيها نشاطات طلابية وكشفية ضمن مسلسل التغني بالنظام الاردني وبطولاته الزائفة، وأنتقلت مسؤولية هذه القاعة من البلدية الاردنية السابقة إلى البلدية الصهيونية، وبالتالي كان ضروريا الحصول على رخصة من بلدية القدس الإسرائيلية للقيام بنشاط فيها أو عرض عمل مسرحي. ومنذ ثلاثة سنوات أصبح هناك شرط جديد وهو أن الفرقة التي تريد إقامة عرض يجب أن تحصل على رخصة من البوليس الإسرائيلي، وعمليا هذه الشروط معيقة لإقامة العروض. أما القاعات الاخرى فتقع في المدارس، وهي مدارس خاصة كالمدارس الفرنسية ومدارس المطران الانكليزية وأجورها باهضة حتى أن العروض أحيانا لا تغطي أجرة القاعة.

وفي الضفة الغربية تتم العروض في الجامعات كجامعة بير زيت لكن قاعة هذه الجامعة ليست صالحة للعروض المسرحية، والقاعة الوحيدة التي كان من الممكن أن تخدم العمل المسرحي في الارض المحتلة هي القاعة الارضية في بلدية رام الله، التي لم يتم تجهيزها أو تكملة بنائها منذ عشر سنوات، وهي ما تزال جدرانا من «البيتون» كالهيكل العظمي.

س ــ لكن بالرغم من هذه الظروف الخارجية الصعبة آستطاعت هذه الفرق أن تستمر وأن تتغلب على الضغوطات والعراقيل الموضوعية اعتمادًا على اللحمة الداخلية بين أعضائها، لكن حاليا يبدو أنه إلى جانب الصعوبات الخارجية هناك وضع داخلي متأزم وراجع إلى عوامل ذاتية ؟

ج ــ عمليا لا آنفصال بين العوامل الموضوعية والعوامل الذاتية لانهما مؤثرتين في العمل المسرحي : فهناك ضغط خارجي وضغط داخلي، لكن منهجيا يمكن تجزئتهما، فأنت لا تستطيع أن تخرج بفرقة تقتنع تماما بالمساهمة في عمل مسرحي مناضل بشكل منظم وحقيقي ونظيف وستكون هناك حتما أهواء شخصية وأبعاد شخصية، وأشخاص متسلقون ووصوليون كما هو ظاهر في بعض الفرق في الارض المحتلة، والإنتماءات الفكرية والطبقية للعناصر تلعب دورها أيضا في آستمرار العمل المسرحي الجيد في القيام بدوره الحقيقي والفعلي أو هو لا يؤدي دوره لان هذه الخلفيات والإنتماءات المختلفة تلعب دورها داخل المسرح ومن ثم تتمزق الفرقة ويتمزق عملها، بآختصار يمكن المراهنة ــ لكن ليس بتفاؤل كبير ــ على العمل المسرحي في الارض المحتلة، وذلك بسبب الظروف الذاتية والموضوعية المحيطة بهذا المسرح.

س ــ ما هي الافق التي تتوقعها للحركة المسرحية الفلسطينية أنطلاقا من الازمة الراهنة ؟

ج ــ أتصور أن الحركة المسرحية ستستمر بنفس الشكل الذي آستمرت عليه في الفترة الاخيرة، وستكون هناك آنقطاعات وهذا طبيعي لان الوضع ــ بشكل عام ــ غير ثابت ــ وليس هناك عمل معين ثابت، لكن العمل المسرحي ــ يتطور. صحيح أن التجربة السابقة كشفت جوانب كثيرة ولا أستطيع أن أقول إن الحركة المسرحية الحالية ستستمر بالمحافظة على الوجوه والعناصر التي مازالت تساهم في هذه الحركة، بل ستكون هناك تغييرات مثلما حصل في السابق وآنقطاعات، فهناك فرق مسرحية لا تقدم إلا عملا أو عملين في خلال سنة و سنتين ما عدا فرقة «بلالين» وبناتها التي تقدم سنويا عملا على الاقل، وهو عمل مدروس وفيه جهد إذ يستغرق إنجازه وقتا طويلا، فإذا بقيت الظروف الذاتية والموضوعية المذكورة تمارس ضغطها الخارجي والداخلي على هذه الحركة بنفس القوة وإذا لم يتم تحد معين ستستمر الحركة على نفس الوتيرة، لكن هناك مشكلة حقيقية وهي أن الحركة المسرحية لم تستطع أن توجد تجربة تفرغ مسرحي معين أو أن تصل إلى مستوى التفرغ عموما، بسبب قناعات مختلفة تقول إنه لا يمكن الجمع بين واقعين واقع العمل في المسرح وواقع مجابهة الوضع الإجتماعي : ففي الارض المحتلة لا الواقع الاجتماعي ثابت ولا الواقع الإقتصادي ولا أيضا الواقع السياسي.

لو نجحت تجربة التفرغ للعمل المسرحي بمعنى أن يصبح لهذا المسرح ميزانية معينة تغطي تكاليفه وتكاليف المتفرغين من أجله، فمن الطبيعي أنه سيقدم أكثر من ناحية جهده وعمله، وسيستمر ويتطور أكثر. لكن خلال ذلك هناك خوف معين...

وهذه فرصة لاسجل إدانة للصحافة العربية ولوسائل الإعلام عموما التي لم تهتم إلى الآن بالإشارة الصحيحة والموضوعية لنشوء ومكونات وظروف تطور الحركة المسرحية في الارض المحتلة ما عدا بعض المحاولات المعدودة كمحاولة خليل السواحري لدراسة المسرح الفلسطيني، أو إشارة الدكتور علي الراعي في كتابه الاخير عن المسرح العربي.

هذا إضافة إلى آنعدام الدقة والموضوعية في بعض المقالات أو التقارير التي تكتب وتُنشر حول الحركة المسرحية في الارض المحتلة التي يقوم بها بعض الصحافيين وكمثال على ذلك التقرير المنشور بمجلة «الاقلام» العراقية بتوقيع محمد الظاهر عضو رابطة الكتاب الاردنيين الذي لم تكن فيه معلومات صحيحة بل أستطيع أن أقول إن فيه معلومات زائفة وأنا أشك حتى في المصدر الذي آستقى منه معلوماته، إضافة إلى ذكره للنشاط المسرحي الذي تقوم به بعض الجمعيات الخيرية والمؤسسات العشائرية في الارض المحتلة، هذا النشاط الذي لا يشكل بالمرة جزءا من الحركة المسرحية ولا جزءا من عملية المشاركة في النضال الوطني، فهذه المؤسسات برجوازية ومساومة لا تفيد وإنما تكرس الوضع القائم الإجتماعي والإقتصادي المتخلف الذي تقوم عليه.

أجرى الحوار : رشيد خشانـة

اغتيال عزيز اسماعيل

في 82/4/24 تم بمراكش اغتيال الكاتب المغربي عزيز اسماعيل. وقد أقامت جمعيات : قدماء تلاميذ ثانوية ابن يوسف، واتحاد كتاب المغرب، والجمعية المغربية لحقوق الانسان والنادي السينمائي، حفلا تأبينياً. وهذه كلمة «الثقافة الجديدة».

في كل لحظة يبدأ القتل ثم لا ينتهي

أيها الحبيب العزيز

ها أنت الآخر تغادرنا قتيلا، وصرخات النجدة والاحتضار أقوى من احتمال آذاننا. مضرجاً بالدماء تسقط بين أزقة مراكش التي تعشقها. وحيداً ترى إلى السكين تمزق الاحشاء، ووحيداً تتأكد هذه المرة أن النزيف مدخل للموت البطيء، حتى الحارس الليلي فَرّ برعبه، ولم يسمع أحد منا صراخك، لا أحد انتهى إليه مشهد موتك، فهل يكفي أن نقول ما أبشع القتل، وما أبشع هذا الزمن الرّديّ ؟

تموت قبل أوان الموت، تقتل، في غموض الحالة والمرحلة، ولا نملك غير هذا الصمت المفجع، لاننا لا نصدق أنك غادرتنا قبل الاوان ولا نعرف كيف نحدد سعة صرخاتك التي تضج بها الأزقة وتتفسح عبرها أنفاسك الاخيرة وأنت تلج العتمة ثم العتمة ثم العتمة.

ونقف الآن بعد أربعين يوماً، أحباباً وأصدقاء. على قدمين باردتين نقف كأننا نهوى إلى قعر سحيق لا قرار له، لعله التذكر، لعله الحلم، يختلط فيه كل شيء بكل شيء، الابتسامة بالنبل، النخوة بالصمت، النكتة بالاستعارة، الشعب بالنخبة، الصراع بالاحترام، الحضور بالمتاه، الصلابة بالمرونة، العشق بالخيبة.

علاقتك بـ «الثقافة الجديدة» خاصة كما أنت تعلم، حضرت يوم رمينا بكلمات التأسيس الاولى، ورافقتنا في محن المسار، تحبذ مرة، وتعاتب مرة، وتؤكد على استمرارية الصراع مرات. كيف نختزل عرض الأيام في كلمات ؟ وكيف نقترب منك دون أن ننهشك ؟

أيام عريضة حقاً، ولكنها صامتة أيضاً.

هل تتذكر أيها الحبيب العزيز بهجة الكفاح الثقافي باتحاد كتاب المغرب ؟ هل تذكر الوعود بالانتهاء من دراسة هامة تخص بها «الثقافة الجديدة» ؟ هل تذكر فرحتك بالتحولات الثقافية التي يشهدها المغرب ؟

ولم تكتب أجمل ما كنت تحلم به من دراسات في الثقافة المغربية، كنت تقول إن عُدة المواجهة لم تكتمل بعد، وتتفرغ زمناً لتحضير الاجازة في الحقوق كمخرج من العمل اليومي القاسي الذي يستنفد كل طاقاتك، ويبدد الوقت بين يديك كأنه لاكان ولا يكون.

لم يمهلك القتل لتحقيق بعض من أحلامك الثقافية، ولكن ما قدمت من دراسات في الصحافة الوطنية كانت له اشعاعاته لحظة انبثاق وظهور جيل السبعينات، مستوحياً مبادئ الوطنية والديمقراطية مسترشداً بالفكر العلمي، مساهماً في معركة شبيبة لم تهادن فجيعتها.

أيها الحبيب العزيز

لا ينبغي أحبابك في «الثقافة الجديدة» أن يقيسوا مساحة أيامك، ولااختطافك من صمتك المثقل بالأسرار. يكتفي أحبابك بالصمت، وبالذهاب إلى ما هو أبعد من اللحظة، هناك حيث السر يظل سراً، وحيث الملحون وحده يعرف كيف ينعش جسدك، ويدفع بقسمات وجهك نحو تشكلاتها الاليفة بين النور والديجور.

أنت الآن غير منسي في الصمت والعتمة، عليك ندخل هادئين، لا تتململ، فأنت ما تزال متعباً بجراحك ونزيفك.

أيها الحبيب العزيز

مُدَّ يديك عائداً لا مودعاً

مدَّ يـديـك

«الثقافة الجديدة»

وفاة الدكتور عزيز بلال

مرثية واحدة لا تكفي الدكتور عزيز بلال، باب للمراثي لا يكفي كله. أحد المفكرين البارزين المغاربة، وأحد المجاهدين الماركسيين الصابرين يموت حريقا بشيكاغو بالولايات المتحدة الامريكية.

حضور الدكتور عزيز بلال كان خصباً وممتداً، ومن التزامه بمبادىء الماركسية الى التزامه ضمن حزب التقدم والاشتراكية الى التزامه الى البحث الجامعي والتدريس، والاشراف على الرسائل الجامعية، الى التزامه بالمعركة من أجل ترسيخ الديمقراطية والعمل لصالح المواطنين.

يأتينا موته حريقا يلهب النخاع الشوكيَ، لأنه ليس موتاً عادياً، ولا كان غيابه بسيطاً بالنسبة للوضع الثقافي والنضالي الذي يعيشه المغرب. فالدكتور عزيز بلال وجه بارز في مجال البحث الاقتصادي على صعيد المغرب والعالم الثالث ونضاله اليومي تجسيد لعضوية المثقف التقدمي.

ولربما كانت أحسن تحية وفاء وإخلاص يمكن أن نقدمها لعزيز بلال، هي جمع ونشر جميع أعماله مترجمة الى اللغة العربية.

«الثقافة الجديدة»

مَمْنُوعات الثقافة المغربية

رسالة من جمعية قدماء تلاميذ ثانوية الإمام الاصيلي

من المكتب الاداري لجمعية قدماء تلاميذ ثانوية الامام الأصيلي إلى الاخوة في مجلة «الثقافة الجديدة».
تحية ثقافية حارة ، وبعد ،

نود أن نشعركم أن جمعيتنا كانت تنوي تنظيم أيام ثقافية فلسطينية ما بين 26 و 28 من شهر غشت الحالي، إلا أنه بعد الاتصال بالسلطات المحلية قصد الترخيص لهذا النشاط، كان الجواب سلبا، اي مُنعت الجمعية من مزاولة هذا النشاط الثقافي التضامني مع محنة أشقائنا الفلسطينيين.

إننا إذ نسجل هذا الخرق السافر الذي لا يرتكز على أساس قانوني يبرره، والذي يستهدف فرض الحصار على جمعيتنا في محاولة إقصاء وإلغاء صوتها الوطني الديمقراطي، خاصة وأن الساحة الثقافية المحلية تزخر حاليا «بالبهرجة» الموسمية التي تنظمها جمعية اخرى، هذه الجمعية التي تجد المجال مفتوحا أمامها تصول وتجول في المدينة مستعملة في ذلك كل الامكانات قصد ترويج ثقافة مشوهة لهويتنا الثقافية ومحملة بمضامين ايديولوجية خطيرة.

إننا اذ نعي جيدا خلفيات وأبعاد هذه الخروقات التي نتعرض لها، ندين هذه المحاولات الفاشلة التي تستهدف جمعيتنا كاطار ثقافي تقدمي، وفي الوقت نفسه سنعمل مع باقي الاطارات والمنابر الثقافية الجادة على فضح هذه الممارسات اللاديمقراطية في أفق بناء ثقافتنا الوطنية الديمقراطية.

وتقبلوا تحيات اعضاء المكتب

أصيلة في 26 ــ 8 ــ 1982

بيان من جمعية قدماء ابن يوسف بمراكش

تأكيدا لحضورها المستمر في الساحة الثقافية على الصعيد المحلي، وضمن برنامجها الثقافي العادي، قررت جمعية قدماء ابن يوسف بمراكش تنظيم ايام ثقافية في الفترة الممتدة من 4 يوليوز 82 الى 15 منه، وذلك بتنسيق مع فرع اتحاد كتاب المغرب بمراكش ومدرسي الفلسفة المنضوين تحت لواء الجمعية المغربية لمدرسي الفلسفة.

ولقد تضمن ذلك البرنامج محورين : محورا ادبيا ومحورا فلسفيا، وبعد القيام بالاجراءات اللازمة مع دار الشباب ــ عرصة الحامض ــ حيث يوجد مقر الجمعية، وبعد ان وافقت الدار وادرجت البرنامج في برامجها الشهرية حيث حظى بالموافقة من طرف الهيئات المركزية لوزارة الشبيبة والرياضة، فوجئت الجمعية بالمنع من تنفيذه.

وبالمناسبة فان هذا المنع ـــ الذي يضاف الى المنع الذي واجهته الجمعية في ربيع السنة الفارطة في الوقت الذي كانت فيه الجمعية تستعد لتنظيم ايام ثقافية حول التعليم ـــ ليعتبر خرقاً سافرا لحق من حقوقها، باعتبارها جمعية ثقافية معترفا بها.

وعلى اساس ذلك، فان الجمعية ـــ اذ تطلع الرأي العام المحلي والوطني على هذا المنع لتندد بشدة بكل العراقيل والاجراءات التعسفية التي يراد منها اسكات صوت الجمعيات الجادة، التي سجلت حضورا هاما في الساحة الثقافية محليا، و من ضمنها جمعية قدماء ابن يوسف.

وتطالب برفع كل القيود والعراقيل التي توضع أمام ممارسة الجمعيات لحقوقها الثقافية

15 يوليوز 82
عن المكتـــب

توقيف مجلة «الباحث» التونسية

يتأكد يومياً أن محنة الثقافة العربية واحدة في كل أقطارنا. وها هي مجلة «الباحث» التونسية، التي حاولت الخروج من مرحلة الصمت، تتعرض هي الاخرى للتوقيف. ومن المحزن أن تعرفنا على هذه المجلة الجادة جاء في نفس وقت توصلنا ببيان هيئة تحريرها الذي ننشره تضامناً ودعوة للمزيد من التضامن مع مجلة «الباحث».

نداء الى المثقفين والمبدعين التونسيين والعرب

عاشت تونس مدة طويلة فراغا ثقافيا وفكريا فظيعا كما انها عانت من الازدواجية اللغوية ومن السطحيّة في مجال الابداع الادبي والفنّي بصفة عامة حتى أن المحاولات القليلة التي ظهرت لم تستطع التخلص من العتمة الكثيفة التي كانت تحيط بها وظلت بعيدة ومستعصية عن القارئ والمتطلع إلى العلم والمعرفة وهذا الركود الثقافي والفكري أدّى إلى ضياع الشباب وتشتته في متاهات أديولوجية وطوّح به بعيدا عن واقعه وآلام وطنه فإذا به يردد شعارات ومقولات لا تمت بصلة إلى محيطه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي. وهكذا تحولت الجامعة إلى ساحة للمعارك وميدانا للجهل وحلّت الهراوات محل الكتاب. وعوض أن يناقش الطلبة المسائل الأساسية الخاصة بالوطن راحوا يناقشون قضايا سخيفة ويتصارعون بسبب أفكار تافهة. أما الساحة الثقافية والفكرية فقد ظلت فارغة ـــ النوادي الأدبية لا تأتيها إلا قلة قليلة والمجلات والصحف لا تنشر الا نتفا من إنتاج الشباب ـــ وأصبحت الثقافة ثانوية وثانوية جداً وعوّضتها الرياضة لا بمفهومها الصحيح ولكن بمفهوم العنف والفوضى والفساد. ولقد تربّى جيل الستينات والسبعينات في جو مشحون بالبغضاء والعنف المجاني ومطبوع بمعاداة الكتاب والتفكير الجدّي.. الشيء الذي أدى إلى أن تصبح تونس بلد ابن خلدون والشابي والطاهر الحداد ومحمد علي الحامي وعلي باش حانبه وغيرهم.. إلى أن تصبح بلداً لا يهتم البتة بالثقافة ولا بالفكر ولا بالفنّ.. قد تحولت إلى بلد تافه كل ما فيه للفوضى والضياع والتشتّت.

ونحن لا نحمّل أحدا مسؤولية كل ما وقع وإنما نقول أن هذه المرحلة التاريخيّة قد عرفت فراغا ثقافياً ربّما يتحوّل في السنوات القادمة إلى كارثة من الكوارث وتكون انعكاساتها سيّئة على مسيرة البلاد والمجتمع بأسره.

إننا نعتقد كمبدعين وكمثقفين في هذه البلاد أن الضياع الفكري الذي يعاني منه الشباب يعود بالأساس إلى عدم الاهتمام بالثقافة والفكر والفن وعدم الإهتمام بسياسة الكتاب — أي النشر — بالدرجة الأولى ذلك أن الشباب حين يحسّ بالقمع الفكري يصبح أداة طيّعة في يد من يريدون التخريب الحقيقي.

ولقد وعينا بهذا منذ سنوات وتألمنا لما يجري في الجامعة وخارجها وكنّا نريد اجتياز هذه المرحلة وإعادة الضوء إلى بلد كان في مقدمة أقطار المغرب العربي الذي حارب الفرنكفونية بفضل جامعة الزيتونة وبفضل مثقفين أفذاذ ظلّوا صامدين أمام محاولة المسخ التي تعرضت لها البلاد أمدا طويلا. إننا نغير على هذا الوطن ونريده أن يكون دائما مثلما كان في الماضي.. نقطة إشعاع فكرّي وثقافي منه ينطلق التجديد والابداع ومنه ينتشر الكتاب وتعمّ المعرفة. ولقد سعينا منذ سنوات إلى إيصال كلمتنا عبر النوادي الثقافية وعبر الصحف والمجلات ونشرنا العديد من المقالات ملفتين النظر إلى الحالة هذه ومتحملين مسؤوليتنا كاملة في كلّ شيء.

وفي هذه السنة توصلنا إلى إيجاد صيغة تمكننا من إبلاغ أفكارنا ومن إثراء الحياة الفكرية والثقافية والفنية في البلاد وهذه الصيغة هي مجلة «الباحث» التي سهرنا الليالي العديدة في إعدادها حتّى تكون صوت القلم الحرّ وحتى تكون صوت تونس الجديد وصوت كل الشباب وكل التيارات الوطنيّة الصحيحة. ونحن لم ننو بذلك محاربة أحد أو النيل من أحد.. لقد أردنا أن نخدم وطننا وأن نؤدي واجبنا كمثقفين وكمبدعين تجاه شعبنا وكنا نبغي أن نوجد وسيلة تعبير تمكّننا من محاربة الركود وتساهم مع بقيّة المجلات الأخرى في التنوع الثقافي والفكري الذي بدأت تعرفه بلادنا منذ مدّة زمنيّة قصيرة.

لقد كانت العشرية الماضية كما وصفنا سابقا عشرية سلبية على المستوى الثقافي والفكري والفنّي وحينما تولّى الأديب محمد مزالي الوزارة الاولى كنّا نتمنى أن يعود إلى بلادنا ألقها وإشعاعها الثقافي والفكري والفني وأن يتمكن المثقفون من الخروج من العتمة ويعبّروا عن آرائهم وأفكارهم بكامل الوضوح والمسؤولية. وقد فكرّنا أن نعد ملفات للثقافة وللشخصيات التونسية حتى يتعرف إخواننا العرب على ما يجري في بلادنا.

ولكن خلال شهر ديسمبر من السنة المنقضية، تعرضت مجلة «الباحث» إلى أيقاف أول بسبب مقال وصفي لما جرى في العشرية الماضية من تخريب وتدمير للثقافة والابداع، ولقد تحمّلنا الصدمة الأولى في صبر وصمت لكنّ الهجمة لم تتوقف فما ان صدر العدد السادس حتّى فاجأتنا السلط المعنية بمنع توزيع المجلة دون توضيح. ولقد تساءلنا عن السبب فما وجدناه ذلك أن العدد لا يحتوي إلا على مقالات إبداعية ومقالات مترجمة من الأدب العالمي وحورات مع مفكرّين عرب وهذا ما جعلنا نستغرب المنع ونطالب من السلط توضيحا عن أسباب ذلك.

إننا نطلب من كلّ المثقفين والمبدعين مساندة مجلة «الباحث» والوقوف إلى جانبها حتّى تتمكنّ من أداء رسالتها الأدبية والفكريّة كما نطالب من السلط الكفّ عن المضايقات، وإننا نعتبر أنفسنا مجندين لخدمة وطننا وشعبنا كما أننا نعتبر أنفسنا مسؤولين عن مجتمعنا.

هيئة تحرير مجلة «الباحث»

تونس في 20 — 3 — 82